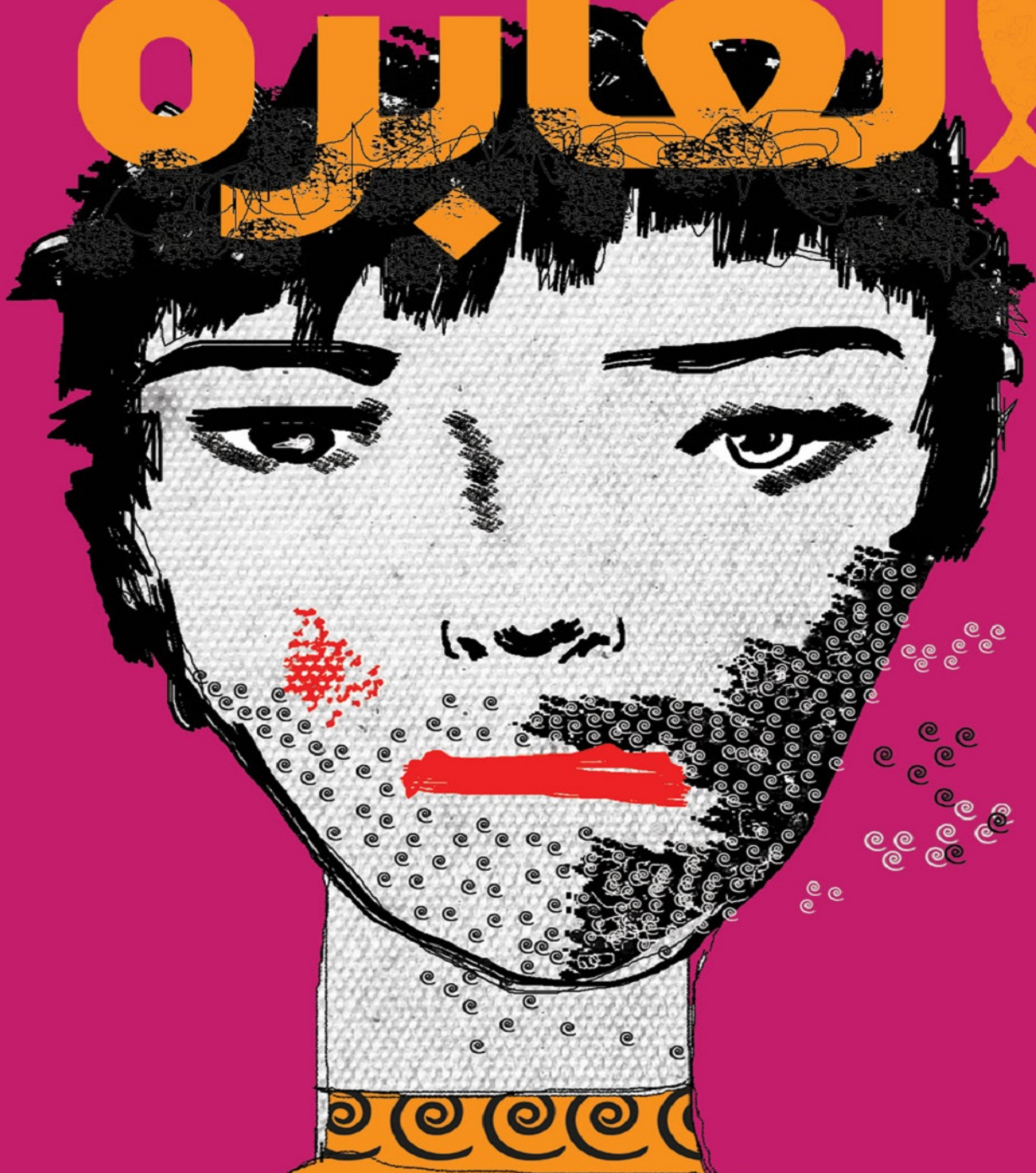


رواية

إبراهيم عبد المجيد

العارية



الفتوسكل

العابرة

إبراهيم عبد المجيد



- حقوق النسخ والترجمة © 2015 منشورات
إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقدية شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

"....." by

.Arabic copyright © 2015 by Almutawassit Books

المؤلف:..... / المترجم:..... / عنوان الكتاب:.....

الطبعة الأولى: ٢٠١٥.

صورة الغلاف:..... / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 0000000000000000

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / الحيدر خانة / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

"Jasim Mohamed" translated by "Hanna Nordenhök" Bländare by

Photographer: Sara Moritz / Graphic design: Alnassiry

Text copyright © Hanna Nordenhök

.Arabic copyright © 2015 by Almutawassit Books

The has been financed by the Swedish Art Council

المتوسط

-1-

اقتربت لمياء من زميلتها رغم أنها كانت قرّرت أن لا يحدث ذلك. وجدت نفسها تلتصق بها. نظرت الأخرى إليها في دهشة، فالمقعد طويلٌ ممتدٌ، ليس عليه غير حوالي عشرة طُّلاب. تراجعت لمياء قليلاً، واعتذرت، لكن زميلتها ابتسمت وقالت:

- عادي.

اقتربت لمياء بوجهها إليها، وهمست:

- لأنك جميلة فقط، لكن؛ لم أقصد.

لم تردّ عليها زميلتها. أصابتها دهشة جديدة من خشونة صوتها، فقالت لمياء:

- صوتي من عند ربّنا. لا تخافي. أنا اسمي لمياء.

قالت زميلتها:

- وأنا سونيا.

وبدا أنها لا تريد أن تتحدّث.

دخلت أستاذة الفلسفة. سيّدة تجاوزت الأربعين من عمرها، أنيقة في ملابسها. شَعْرُها الأسود قصير حول وجهها. تظهر به خطوط بيضاء قليلة من الأمام تزيّنه أكثر ممّا تشي بالعمر. ألقت تحيّة الصباح، وجلست خلف المنضدة الطويلة، وخلفها السُّبُورة الكبيرة، وبدأت تتكلّم:

- اليوم أول درس لكم في الفلسفة. لن أقرّر عليكم كتاباً من كُتُبي، كما يفعل الآخرون. سأشرح فقط. في نهاية كلِّ درس، سأذكر لكم المراجع التي استعنتُ بها، وعليكم الرجوع إلى هذه المراجع. هكذا تعلّمتُ من أساتذتي الكبار هنا وفي الخارج. المراجع بعضها باللغة العربية، وبعضها باللغات الأخرى. مَنْ يعرف منكم لغة غير العربية سيكون ممتازاً، وقد يُكمِل تعليمه، ويصبح أستاذاً كبيراً. مَنْ لا يعرف، فسيحصل بعد أربع سنوات على الليسانس، ويجد عملاً في جمعية تعاونية!

قالتُ ذلك باسمه، فضحك الطُّلاب والطالبات، واستمرّتْ تتحدّث:

- دعوني في البداية أُحدِّثكم عن "ما هي الفلسفة؟" قبل أن تدرسوها.

وهنا صرختُ سونيا:

- كفاية كدا. إنتِ بتلزقي فيّ ليه؟!

انتبه الجميع، ووقفتُ سونيا نائرة، تُحدِّث الأستاذة:

- عندما جلستُ جوارِي، التصقتُ بي، والبنش طويل وفاضي. تراجعْتُ،

واعذرتُ، ثمّ فعلتها مرّة ثانية. أنا لا أفهم ماذا تريد!

شردتُ لمياء، وبدا أنها تفكّر في شيء بعيد، ثمّ وقفتُ، وقالتُ:

- أنا آسفة، يا دكتورة. تسمحي لي أخرج.

صمتِ الأستاذة لحظة. لم تُظهرْ دهشتها من صوت لمياء الخشن قياساً على أصوات البنات. خرجتُ لمياء بسرعة غاضبة متوتّرة من الجانب كما دخلتُ. لم تبالِ أن يُفسحَ لها أحد الطريق، فصارتُ تصطدم بركبتيها الجافتين في ركب

البنات والأولاد القليلين الجالسين على المقعد الممتدّ - الينش - ومَرَّتْ أمام
الدكتورة إلى باب الخروج. عند الباب، قالت لها الدكتورة:

- انتظري لحظة.

توقَّفتُ تنظر إليها، ولم تدرِ أن الأستاذة والطُّلاب كلهم قد انتبهوا إلى أنها أطول
قليلاً ممَّا هو معتاد من طول الفتيات، وأن زِيَّها بسيط، لكن، لافت، فهو مجرد
سروال كعادة الفتيات والنساء الآن، لكنه كاجوال، لا يُظهر مفاثن ساقِيها، ولا
ردْفِيها. رماديُّ فوقه قميص أبيض كاجوال أيضاً. لكن؛ خالٍ من أيِّ رسوم ملوَّنة أو
نقوش، ولا يكشف شيئاً من صدرها، فقط قصير الكُمَيْن. وأن قَصَّة شَعْرِها
"جارسون"، ولا يظهر في عنقها قلادة من أيِّ نوع. قالت الأستاذة:

- المحاضرة ساعة ونصف. بعدها أنا في مكتبي. ضروري أن تمرِّي عليّ.

قالت لمياء:

- حاضر.

لكن، لم يسمعها أحد. خرجتْ، وواصلتِ الدكتورة حديثها.

جلستُ لمياء في الكافتيريا وحدها. أنساها ما حدث فرحة دخولها إلى الجامعة
من الباب الكبير المطلّ على شارع جامعة القاهرة. لقد كانت الدقيقة التي
وقفتُ فيها عند الباب الكبير طويلةً جدًّا، وقد وضعتُ حقيبتَها الصغيرة على جهاز
التفتيش الإلكتروني قبل أن تعبر. كانتُ تشتاق إلى الفرحة وهي ترى أعداداً
كبيرة من البنات والبنين يتحرَّكون بين مباني الكُلِّيَّات المختلفة مبتهجين. بالفعل

بعد أن عبرت الباب، وكانت كُليَّة الآداب قريبة جدًّا على يمينها، استمرَّت تمشي في الطُّرقات، تتفرَّج على الأماكن الخضراء الصغيرة، تراها واسعة، وخضرتها تجذب العين، والكافيتريا الصغيرة التي تبدو مُخصصة للطلبات السريعة جدًّا بعمَّالها الذين يعدُّون القهوة والشاي، ويقدِّمون المشروبات الباردة والساندوتشات، وتتطلَّع إلى برج الساعة العالية للجامعة، كأنها ساعة جرينتش. سألت عن كافيتريا أخرى، فيها مقاعد للجلوس، وعرفتُها، وهي التي تجلس فيها الآن.

أنساها ما حدث في قاعة الدرس فرحتها بهذا العالم الواسع الذي كانت تشاق إليه. لكن، هذه ليست أوَّل مرَّة يحدث لها ما حدث. عليها أن تبتسم، فهي التي تنجذب إلى البنات، ولو بغير إرادتها رغم ميلها للعب والجلوس مع البنين. آن الأوان أن تحطِّم أسوار الغربة، فهذا العالم لا ينتظر المقيدين.

كانت ترى مجموعات قليلة من الطُّلاب، تجلس مع بعضها. لم يلفت انتباهها كعاداتها ملابس البنات. قمصانهنَّ أو بلوزاتهنَّ المزركشة بالورود، ولا بنطلوناتهنَّ الجينز الممزَّقة عند الرُّكب. طبعاً أكثرهنَّ مُتَحجَّبات، لا ترى شعرهنَّ. تختلف أشكال الحجاب. طبعاً كلها تغطِّي الرأس والرقبة، لكن بعضها ينزل إلى الصدر أو الكتفين، وكلها من ألوان مبهجة سواء كانت طبقة واحدة أو طبقتين مختلفتي اللون. لفت انتباهها اثنتان ترتديان خمارين أسودين، تجلسان في مواجهة بعضهما، وتقتربان برأسيهما، تتحدَّثان همساً. كعاداتها وجدت نفسها تشاق إلى ملابس الأولاد التي تُظهر قوَّة عضلاتهم. ذقونهم المطلوقة والمنسَّقة بعناية مع شواربهم. قصَّات شَعْرهم التي في أعلى بعضها توكة أو في الخلف منها صغيرة طويلة أو تاركين شَعْرهم يكاد يصل إلى الأكتاف، وكثير منها مُستوحى من قصَّات شَعْر لاعبي الكرة المشاهير مثل ميسي ورونالدو، وبعضهم صُلَعان

تماماً على عادة كثير من الرجال الآن، تظهر في رؤوسهم تعرُّجاتها. هذه أوّل سنة لها، ولا تظنُّ أن أحداً من زملائها قد تعرّف على أحد، لذلك لا بدّ أن الجالسين من سنوات سابقة، ومَنْ سيكون جديداً سيجلس وحده مثلها، على الأقلّ اليوم. لكنّ، لم يكن هناك مَنْ يجلس وحده غيرها. جلستُ تمشي بيدها على وجهها، وتمشي بها أكثر من مرّة فوق شفتها العليا. إنها "تنتف" الشارب والشعر الذي يتفرّق على ذقنها بدهانات، تشتريها من الصيدلية. لا تلجأ لدهانات طبيعية، تقوم بإعدادها النساء، فهي تتمنّى لكل الدهانات أن تُخفّق، وبالفعل يعود الشعر بسرعة للظهور، وتتحسّر، لأنها لا تستطيع أن تُطلقه. عليها أن تحتفظ بصورتها كفتاة حتّى تعرف كيف تعالج نفسها. ومشتُ بيدها على فخذيّها الناشفتين واحدةً بعد الأخرى. ليستا سمينتين بما يكفي لفتاة في سنّها، لذلك ترتدي سروالاً واسعاً. شيءٌ ما جافٌّ في فخذيّها تحت يدها، تعرف أنه عضلات. لا بدّ، وإلّا ماذا سيكون؟! مشتُ بيدها بين فخذيّها، ثمّ توقفتُ. تحتاج لتلمس فرجها أن تقف، ولن تقف. لا معنى لذلك هنا، وما زالت أمّها لا تُصدّق أنه صار عالياً بشكل مريب، كأن شيئاً تحته يريد الظهور. لم توافق أمّها حتّى أن تتطلّع إليه، ورأت، كما ترى دائماً، في حديثها قلة أدب. تقدّم النادل يسألها ماذا تشرب أو تأكل؟ فطلبتُ قهوة مضبوطة، وهي ذاهلة عنه، فتركها مندهشاً. هل من الصّوريّ حقّاً أن تذهب إلى أستاذة الفلسفة في الموعد؟ الأفضل أن تعود إلى البيت. لا. الأفضل أن تبقى وتنسى ما حدث، وتحضر المحاضرة التالية، ولتجلس على أعلى مقعد في نهاية مدرّج القاعة وحدها، فلا يكون أحد قريباً منها. لا. لا. الأفضل حقّاً أن تترك الكليّة اليوم، وتبدأ دراستها من الغد. لن تخرب الدنيا. ستعتذر في المحاضرة غداً لأستاذة الفلسفة عن عدم ذهابها اليوم.

كان النادل قد ترك فنجان القهوة أمامها.

شربتُ قهوتها، تقاوم رغبتها في النظر إلى الفتاة الجميلة التي يحيط بها طالبان
يضحكان، وتضحك معهما من قلبها، ويبدوان يتباريان على إضحاكها. لفتَ
انتباهها أنها غير مُتَحَجِّبة شقراء زرقاء العينين. شَعَرها مسترسل على
الجانبين، يتفرَّق على كتفَيْها، وترتدي فستاناً، ينزل عن ركبَتَيْها قليلاً، فاتناً
بالتطريز، شَقَّافَ الكَمَّيْنِ القصيرَيْنِ. لمحتُها الفتاة أكثر من مرَّة تنظر إليها، وما
كادتُ تخفض رأسها حتَّى أخفضت الفتاةُ الأخرى رأسها أيضاً. راحتُ تهمس
لزميلَيْها بشيء، لم تسمعه، فضحكا بصوت عالٍ، وهما ينظران إليها، ثمَّ قالت
الفتاة:

- تفضّلي، واجلسي معنا.

ابتسمتُ متردّدةً، لكن الفتاة أعادتُ دعوتها، فحملتُ فنجان القهوة في يدها،
واتّجهتُ إليهم. أفسحوا لها مكاناً بينهم حول المنضدة المفروشة بمفرش أبيض،
فوقه ما يشربون من شاي وبيبسي كولا. جلستُ، فسألْتُها الفتاة الأخرى:

- في أيِّ سنة أنتِ؟

- أنا جديدة. في سنة أولى، قسم فلسفة.

ضحكتِ الفتاة، وقالتُ:

- لسَّه بدري. أمامك ثلاث سنوات، وتبقي زَيْنًا.

وقال شابٌّ ضاحكاً:

- المهمّ أن لا تصاحبني زينون.

ضحكوا بينما هي في دهشة، فقالتُ:

- مَن زينون هذا؟

- صديق قديم لنا من القرن الخامس قبل الميلاد، عنده برهان على عدم وجود الزمان ولا المكان ولا الحركة. منذُ عرفتُهُ وأنا ضائع.

لم تبتسم، ولم تُعلّق. فهمتُ أنه لا بدّ يتحدّث عن أحد الفلاسفة. لكن الفتاة الأخرى قالت:

- عيناك غريبتان. صغيرتان ورفيعتان. هل بابا ياباني مثلاً؟

ضحك الشَّابَّان بصوت عالٍ، وقالتُ هي:

- بابا مصري طبعاً.

قالت الفتاة:

- طيّب، أنا اسمي محسن! يوه قصدي محسنة.

ضحك الشَّابَّان بقوة، ثمّ قال الذي تحدّث عن زينون:

- أنا اسمي عابدين، لكنّ، لستُ من حيّ عابدين. هذا اسمه مُريد، لكنّ، لا يريد شيئاً. محسنة دائماً تخطئ في اسمها، كأنما كانت تتمنّى أن تكون رجلاً.

ضحكوا بينما شعرتُ هي برعدة في جسمها. تساءلتُ في نفسها هل يمكن أن تكون الفتاة مثلها؟ لكنها قالت لمحسنة:

- بصراحة، أنتِ جميلة جدّاً. اسمحي لي أقول لكِ هذا.

قالت محسنة:

- شكراً، يا حبيبتي. أخيراً وجدتُ فتاةً، لا تغار من جمالي.

ضحكوا، وبدأ الوقت يمضي بسرعة وهي بينهم رغم أنها لم تشارك كثيراً في الحديث. أعجبها أنهم لم ينتبهوا لخشونة صوتها، ولا أنها لا تتزيّن كالبنات. ربّما انتبهوا، لكنهم أكثر أدباً من غيرهم، فلم يُعلّقوا على شيء. قد يتحدّثون في ذلك فيما بعد فيما بينهم. لا بدّ أنهم سيندهشون، وربّما يضحكون. ستجمع الكليّة بينهم مرّة أخرى.

كانت تودّ لو أخذت محسنة، وخرجتا تمشيان معاً. رأت طُلاب قسم الفلسفة يخرجون من القاعة الواضحة خلف زجاج الكافتيريا. انتهت المحاضرة إذن. قامت، ودفعت حسابها، وانصرفت، لكنها ذهبت إلى الدكتورة الجميلة أستاذة الفلسفة، ونسيت قرارها من قبل أن لا تذهب. هل نسيت حقاً أم جعلها جمال محسنة تتذكّر جمال أستاذتها؟!

ابتسمت الدكتورة "بادية" وهي تراها تدخل من باب الحجرة. الحجرة صغيرة لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار مربّعة. فيها مكتبان، تجلس الدكتورة بادية خلف واحد منهما. على الجدران أرفف، عليها كُتب ودولاب بين الأرفف، فيه كُتب أيضاً، تظهر من خلف زجاجه. أشارت الدكتورة لها أن تجلس على مقعد أمام المكتب، فجلست ناظرة إلى الأرض في خجل. راحت الدكتورة تتفحصها بدقّة، فرأت أن ثدييها صغيران، ليسا في حجم يناسب عمرها. سألتها:

- كم عمرك؟

- ثمانية عشر، واسمي لمياء حسين عمران.

- يا لمياء، أنا لم أكن أريدك في شيء، ولا أعرف لماذا قلت لك أن تأتي إلى مكتبي، لكن، ما دمت أتيت، فأحب أن أقول لك إن شكلك جميل. أعرف أنك لا تقصدين شيئاً، وأن مافعلته زميلتك لم يكن هناك داعٍ له، ولقد حدثتها في ذلك بعد أن خرجت.

سكتت لمياء لحظة بينما تُشعل الدكتورة بادية سيجارة، ثم قالت:

- لكن، أنا في حاجة أن أحدث حضرتك فعلاً. أنا أعاني من مشكلة كبيرة، ولا أحد يسمعني طوال عمري.

اندهشت الدكتورة التي راحت تتأملها من جديد. رأت قميصها مغلق الأزرار، لا يُظهر شيئاً من الصدر. لا تضع روجاً على شفَتَيْها. لا يبدو أن هناك أيّ ماكياج على وجهها. حاجباها منسقان حقاً، لكن، لا تبدو أيّ صبغة عليهما أو كحل. رموشها تبدو مهملة أو طبيعية بلا تدخل. فقط في أذنيها قرط. تأملت أصابعها، فرأت أن أظافرها مقصوصة لنهايتها، وليس عليها أيّ مانكير من أيّ لون، فقالت باسمّة:

- أ تحيّي البنات؟

سكتت لمياء لحظة، ثم قالت وهي تنظر إلى الأرض:

- أنا قرّرت أكون صريحة وشجاعة. كنت أنتظر اليوم الذي أدخل فيه الجامعة، وأتحدث مع أحد، لعلّه يساعدني. قد تحدث لي مشاكل كبيرة، وأترك الدراسة كما تركت المدرسة الثانوية. مِلي للنساء كبير، لكن؛ أيضاً أحب صداقة الأولاد أكثر منذُ صغري.

وأشارتُ إلى ثدييها الصغيرين، وقالت:

- صوتي أقرب للرجال وصدري أيضاً و...

سكتتُ، ولم تُكْمِلْ. تأمّلتُها الدكتوراة لحظات، لكنها قالت:

- لا تندهشي من صراحتي مع حضرتك من أوّل لقاء. معاناتي كبيرة، قد أشرح تفاصيلها، لو تعطيني الوقت. قرأتُ في الصحف وعلى الإنترنت كثيراً عن مثل حالتي. يُسمّونها ترانس جيندر.

بدا الذهول على وجه الدكتوراة بادية، ثمّ قالت:

- هل أنتِ جادّة في حديثك؟

- للأسف جادّة. حياتي صعبة جدّاً. كدتُ أفصل من المدرسة الثانويّة، لأنني كنتُ دائماً أقترّب من البنات. اعتبروني متحرّشة. كنتُ في السنة الثانية ثانوي. لا أحد أدرك أنني أعاني من هذا الاضطراب الشديد الذي جعل سلوكي كالأولاد، وليس البنات.

Gender Identity Disorder

أنا أجيد الإنجليزية، والفرنسية أيضاً، لكنّ، ليس كما الإنجليزية. تعلّمتُ في مدارس لغات. المهمّ توصلَ أهلي لاتفّاق مع المدرسة أن لا أذهبَ ولا أفصلَ من الدراسة، وأن أحضر فقط الامتحان. أيّام الامتحان قليلة، ولن تتّسع للتّحرّش الذي تحدّثوا عنه. ذاكرتُ العامّين في البيت، والتحقّت بالجامعة. سجنني أبي وأمّي عامّين في البيت بعيداً عن زميلاتي البنات مُصدّقين أنني متحرّشة. بل قالتُ أمّي إنني سحاقية. أنا لستُ كذلك.

سكتت الدكتورة، وازدادتْ دهشتها من جرأة هذه الفتاة الرهيبة، لكنها للحظة فكَّرتْ أنها قد تكون "عاملة اشتغالة" أو "فيلم" عليها. البنات والصبيان الآن من عالم آخر. عالم الفيسبوك وتويتر وأنستجرام وغيره يعيشون أكثرهم في الخيال.

وقالتْ لمياء:

- هل يمكن أن تساعديني؟

هزَّتْ الدكتورة بادية رأسها، وقالتْ:

- سأساعدكِ. سأعطيكِ كارتاً، فيه عنوان بيتي. أنا أعيش وحدي. يمكن أن تأتيَني الليلة في المساء، نتحدَّث وحدنا. الآن يمكن أن تدخل زميلتي أستاذة علم النفس، وتشغلنا.

قالتْ لمياء:

- ليتكِ تُحدِّثينها عني وعن حالتي.

قالتْ الدكتورة:

- بعد أن نجلس معاً على راحتنا في منزلي، ونتحدَّث باستفاضة. سأساعدكِ جدّاً. والآن يمكن أن تنصرفي، وتُكملي محاضراتكِ.

وأخرجتْ كارتاً من حقيبتها، قدَّمتهُ لها، وسألَتْها:

- لماذا لم تلتحقي بجامعة خاصّة، ما دام تعليمكِ على هذا المستوى؟

- أمِّي قالتْ إنني سأكون المتفوّقة هنا أو تستطيعين أن تقولي إنها لا ترى فائدة

في العلم والبنت مصيرها الزواج.

سكتت الدكتورة حائرة، وخرجت لمياء. لكنها لم تُكْمِلْ محاضراتها. أخذت طريقها إلى البيت، تقول لنفسها باسمه: "اعترفتُ لَمَنْ تُسمّى "بادية" لعلّها تُعيدني من الصحراء!"

في الطريق تذكّرت أنها قرأت على الفيس بوك أمس أن اليوم ستقام مباراة كرة القدم بين ليفربول وريال مدريد، وستُذاع الساعة الواحدة ظهراً بتوقيت القاهرة. أخذت طريقها إلى مقهى البستان في وسط البلد. تحبُّ الشاشة التي في الممرِّ بين المقهى وشارع طلعت حرب. تحبُّ الجلوس هناك، حيثُ يختلط الشباب بالفتيات، وحتّى إذا جلست وحدها، لا يكون جلوسها مثيراً لأحد. من هاتفها، حدّثت صديقها إحسان. قال لها إنه سبقها إلى المقهى، ولم يخبرها حتّى لا يُشغلها عن أوّل يوم دراسة في الجامعة. وصلت بسرعة بتاكسي. لم تشأ أن تركب المترو. قالت لا داعي اليوم، فمن أوّل له لم يكن جيّداً. هي عادةً لا تحبُّ أن تركب عربة النساء. تنجذب لوجوه كثيرة، فتتحيّر بينها. في عربة الرجال نساءٌ وفتياتٌ أقلّ، ولا تتحيّر في الانجذاب. حين تقترب من فتاة أو امرأة تنفر منها، ويقترب منها بعض الرجال، فتنفر بدورها منهم. النساء يرونها سحاقية شاذّة، والرجال يرونها أنثى جميلة، لأن عينيها خضراوان، خضرتُهما تزيد من عمقهما رغم أنهما رفيفتان، ولا ينتبهون إلى مظهرها الرّجوليّ. هي بين الرجال والنساء ضائعة. إحسان أيضاً يراها أنثى جميلة، ويُدْهِشُه إعجابها بالجلوس معه، ومعه أصدقاؤه الشباب، بشكل عامّ. قال لها مرّة ضاحكاً "أنتِ دائماً معجبة بالرجال، ولا ينقصك إلّا لعب الكرة معهم، لكنكِ كثيراً ما تنظرين إلى النساء نظرة فيها جنس، فلماذا، وأنتِ أجمل من أيّ امرأة؟!" انتبهت للسؤال، فتساءلت في

دهشة "أنا أفعل ذلك؟! أول مرة أعرف هذا. أكيد شخص غيري يفعل هذا، وأنت لا تدري" وضحكت وضحك.

كان الزحام شديداً أمام الشاشة في الممر الطويل. الجرسونات يتحركون بالمشاريب وبالشيشة بين الجالسين. كلما جاءت الكرة إلى محمد صلاح، هتفت قبل الجميع "صلاح. صلاح" كان صوتها عالياً، يدهش القريين الذين يهزون رؤوسهم في استغراب كبير، وحين ينظرون إلى مصدر الصوت، فيرونها، يندهشون أكثر. كيف لصاحبة العينين الخضراوين أن يكون صوتها خشناً هكذا؟! أمضت ساعتين في سعادة. دحنت فيهما الشيشة والسجائر، ثم وقفت لتمضي وقد وضعت في فمها حبات من "الهولز" لتضيّع أيّ رائحة، يمكن أن تشمّها أمّها أو أبوها أو أختها الصغرى رانيا. أختها رانيا أصغر منها بعامين، لكنها مسكينة، تدفع ثمن ما تفعله هي من حبّ لمشاهدة مباريات كرة القدم، ومن جلوس على المقاهي بين الرجال، فالتضييق عليها كبير حتّى لا تفعل مثلها. في طفولتهما كانت لمياء تحبّ أن تلعب الكرة مع الأولاد الذكور في حديقة الحيوان بينما أختها تقف حائرة. ترى أباهما وأمّها يمنعان لمياء من ذلك، فتجلس هي مستسلمة بينما تجلس لمياء متوتّرة، تكاد تقف كل لحظة وهي تتابع ألعاب الصبيّة باسمّة وضاحكة، ولا تملك نفسها أحياناً، فتقف وتجري لتشارك في اللعب، فيجلسها أبوها أو أمّها في عنف.

- البنت دي كان لا بدّ أن تكون ولداً. جاءت بنتاً بالخطأ.

يقول أبوها، فتقول أمّها ضاحكة:

- بصراحة، هيّ ولد.

وتأخذها في حضنها قائلة:

- خَلِّيكِي إلى جانبي مثل البنات الحلوة، يا حبيبتي.

انتهت المباراة، وبدأ عدد كبير في الانصراف. وقفتُ هي لتنصرف ومعها إحسان. إنه يسكن في الشارع التالي للشارع الذي تسكن فيه. هو يسكن في امتداد شارع أمين باشا سامي، وهي في شارع معهد الآثار الشرقيّة. العلاقة الطيّبة العميقة بين أسرتها وأسرته جعلته ملاذاً لها. لم تذهب إلى المدرسة عامين، لكن أمّها لم تمنعها عن مقابلة إحسان، وقضاء وقت معه. كثيراً ما يأتي إلى البيت، يصحبها، وترى أمّها أن هذا سيُهوّن عليها البقاء في البيت. إحسان هو الابن الذي لم تنجبه، كما أن ابنتيّها هما ابنتا أمّ إحسان اللتان لم تُنجبهما.

توقّفتُ لمياء قليلاً حتّى يدفع إحسان الحساب للجرسون الذي وقف ينظر إليها مبتسماً. فوجئتُ بسناء تجلس قريباً، تنظر إليها، فتقدّمتُ لتصافحها. سناء امرأة تجاوزت الأربعين، لكن جسدها لا يزال كجسد فتاة في العشرين. لا يبدو أنها تزوّجت من قبل. طلبتُ منها سناء أن تجلس معها، فاعتذرتُ. قالتُ سناء:

- مضتُ ستّة أشهر لم آتِ إلى هنا، ولم أركِ. اجلسي معي قليلاً.

قالتُ:

- مضطّرة أن أعود إلى البيت مع إحسان صديقي. جاري أيضاً.

نظرتُ سناء إلى إحسان من بعيد، ثمّ قالتُ:

- طيّب. كيف أراكِ؟ كنتُ أريد أن أعزمكِ أسبوعاً في الغردقة أو الأقصر، حيثُ أعيش وأعمل في السياحة، كما أخبرتكِ من قبل. ستنبسطين جدّاً معي.

- أنا آسفة. خَلِّيتها فرصة ثانية. بدأت الدراسة، ولن يكون لديّ وقت.

جاء إحسان، فصافحتُ هي سناء، لكن سناء وقفتُ، وقبَّلَتْهَا. شعرتُ بالقبلة
قوية وعميقة مثل آخر مرّة منذُ شهور. مشتُ مع إحسان صامتة في اتّجاه
شارع هدى شعراوي. سيعودان إلى البيت على الأقدام. قال إحسان بعد أن
ابتعدا قليلاً:

- ألا تزال هذه المرأة تتذكّركِ؟

- لا أعرف ماذا تريد؟

- أنا أعرف.

نظرتُ إليه كأنما لا تريده أن يُكْمِلَ، فالشائع عن سناء يصل إلى الكثيرين من
الرُّوَّاد الدائمين للمقهى. قالتُ لمياء:

- لكنها صديقة للأدباء. حين جلستُ معها أوّل مرّة، كانتُ تجلس مع أدبيات.

- لا علاقة للأدب بالشرمطة. الشرمطة طَبْع.

ارتبكتُ، وانزعجتُ، لكن إحسان استمرَّ وهو يضحك:

- إنها تدفع لمنْ تغويه رجلاً أو امرأة. تعزمهم على قضاء وقت في الغردقة أو
الأقصر، يهيّصوا معاها على حسابها. هذا كله معروف عنها. تصطاد الأدباء، لأن
أكثرهم فقراء وضائعون. كما أنها متّهمة في قضايا، في بلد بعيد، أظنّه أميركا
الجنوبية، بأنها كانتُ تمارس الجنس في المطار. قبضوا عليها تفعل ذلك في
دورة المياه مع أحد المسافرين.

وجدتُ نفسها تتكلّم دون ارتباك:

- يا إحسان، حرام عليك، اسكت. كيف تدفع وهي جميلة، ولها جسد فاتن رغم عمرها؟! كما أنهم في أميركا الجنوبية لا يحتاجون لممارسة الجنس في الخفاء.

- هذا ما يقوله الكُتَّاب عنها، بل الكاتبات أكثر من الكُتَّاب. تُفضِّل الجلوس معهم، لتبدو كاتبة، وتصطاد الفقراء والتعساء منهم كما قلت. يطلقون عليها اسم "سنية جُنج". مثل ماري منيب في فيلم لعبة السِّتِّ، وأيُّ أحد يجلس معها يسمُّونه "نفخو" على اسم عبد الفتَّاح القصري زوج ماري منيب وأبو تحية كاريوكا في الفيلم.

ضحكت وقالت:

- يعني كلهم بالالیکا.

ضحك بصوت عالٍ، فهذا لقب خطيب تحية كاريوكا المغنِّي عزيز عثمان في الفيلم.

- يعني إنتِ فاكِرة الفيلم؟

- رأيتهُ أمس صدفة في قناة ميلودي أفلام. فيلم حلو جدًّا. تحية كاريوكا قمر، ونجيب الريحاني ولا أحسن ممثِّل في العالم. هل تُصدِّق، يا إحسان، أن هؤلاء الناس كانوا في مصر في يوم من الأيام؟!

قال لها:

- وأكثر وحياتك. يكفي عمر الشريف ورشدي أباطة ومحمود مرسى وشادية وفاتن حمامة وسعاد حسني، وما تعديش. إنتِ عارفة إني غاوي سينما.

وسكتا لحظات، فقال:

- لقد نسينا أن نأكل من جمال الماتش. ما رأيك نأكل عند "جاد" في باب اللوق.

- ليس اليوم. سأكل في البيت. عندي موعد الساعة السابعة مع أستاذتي.

- من أول يوم؟

ضحكتُ قائلة:

- من أول يوم وحياتك.

بعد أن عادتُ لمياء إلى بيتها، وجدتُ أنه لا رغبة لديها في البقاء ولا الراحة لبعض الوقت. ما إن تناولتُ غداءها حتَّى ارتدتُ ملابس أخرى، وخرجتُ في طريقها إلى بيت الأستاذة بادية. تفاجأتُ أن الأستاذة نفسها هي التي فتحتُ لها الباب في ملابس منزلية جميلة. ابتسمتُ لها الأستاذة، وأفسحتُ لها الطريق، لتدخل. البيت الذي هو في شارع عكاشة في الدَّقِي من البيوت القديمة التي لا تزال تحتفظ بطرازها المعماري. شقَّة الدكتوراة واسعة بشكل كبير مثل شقَّتْهم. مرتفعة جدرانها. قالتُ لها الدكتوراة بادية أن تلحق بها إلى غرفة مكتبها مباشرة. لم تستطع التَّوقُّف في الصالة الكبيرة التي فيها مقاعد كلاسيكية، وسفرة لم تستطع أن تتبيَّن ملامحها إلَّا أنها أيضاً كلاسيكية المقاعد، كبيرة المنضدة. المكتب غرفة واسعة أيضاً، جدرانها مليئة بدواليب الكُتب، لكنها لاحظتُ في ركن منه سريراً ضيقاً، يسع فرداً واحداً. قالت الدكتوراة لمياء:

- لا تهتمِّي بالسرير. أضعه هنا، لأنني أحياناً، أحبُّ الاسترخاء، وأكسل عن الذهاب إلى غرفة النوم.

جلست الأستاذة خلف مكتبها، وأشارتُ للمياء أن تجلس على مقعد أمام المكتب. راحتُ لمياء تجول بنظراتها على الكُتب التي معظمها مجلِّدات كبيرة. قالت الدكتوراة:

- يمكن أن تقفي وتتفرَّج عليَّ براحتك. سأتركك لعمل فنجان قهوة. ماذا تودِّين أن تشربي؟

- شكرًا، يا دكتورة. لا أريد أن أشرب أيّ شيء. أريد أن أتحدّث معكِ كثيرًا.

- إذن، سأترككِ تتفرّجين على الكُتب، وأذهب أعدّ القهوة.

قامت الدكتورة خارجة من المكتب، ووقفتُ لمياء تدور على الجدران، تتطلّع إلى الكُتب. وجدتُ كثيرًا منها بلغات إنجليزية وفرنسية وألمانية. قالتُ لنفسها "هذه السيّدة تجيد ثلاث لغات غير العربية. لا بدّ أنها سيّدة عظيمة". لفت نظرُها مجلّد ضخمٌ بالإنجليزية، عليه صورة فاتنة لامرأة يونانية أشبه بالآلهات، صدرها عارٍ، وذراعاها عاريان، وزيّها الأبيض يعكس بدنًا طازجًا، وتتكئ على آلة وترية موسيقية، قيثارة، فيها أوتار كثيرة، وتحتها ما يشير إلى أن الكتاب عن الشاعرة اليونانية سافو. وجدتُ إلى جواره أيضًا مجلّدًا بالفرنسية، وآخر بالألمانية عن نفس الشاعرة، لكنّ، عليهما صور أخرى. رأيتُ أن الكُتب عن سافو تشغل رفقًا كاملاً من الدولاب الذي تجاوره دواليب أخرى. أمسكتُ بالكتاب الكبير الثقيل الذي هو باللغة الإنجليزية، وراحتُ تُقلّب فيه. غريب أنها في كلّ ما درستُ، لم يقابلها اسم سافو غير مرّة واحدة، باعتبارها شاعرة يونانية قديمة، لكنها لم تعرف أنها هامّة إلى هذا الحدّ الذي يجعل الكتاب به عشرات الصور المرسومة لها. في بعضها عارية الصدر، يتقدّمها نهذاها الجميلان، وفي بعضها مع فتاة أخرى جميلة. عرفتُ بسرعة أنها اخترعت هذ القيثارة التي جعلتُ لها واحداً وعشرين وترًا، وأنها كانت سحاقية، تعشق مَنْ معها في بعض الصور مثل التي اسمها "آتيس" وغيرها من بنات صغيرات. كانتُ شاردة تفكّر لماذا وقعتُ عيناها على ما يقال عن سافو من أنها كانت سحاقية؟! ارتبكتُ، وقرّرتُ أن تترك الكتاب قبل أن تدخل الأستاذة، وتراها تتمعّن في مثل هذه الصور، لكنها فوجئتُ بيد الأستاذة على كتفها، تقول:

- أعجبتكِ سافو؟

اضطربت لمياء، ووضعت الكتاب مكانه، فقالت الأستاذة:

- إنها شاعرة يونانية كبيرة من القرن السابع قبل الميلاد. لديها قليل من الشِّعْر في حبِّ النساء، لكن أكثر شِعْرَهَا ليس كذلك. أكثره ضاع. يقال إن الكنيسة أحرقت ما تبقى منه. يقال أيضاً إن البعثات الأثرية في مصر وجدت بعضه منقوشاً على أوراق البردي عام 1900. هي تستحقُّ القراءة عنها، على أيِّ حال.

كانت لا تزال تضع ذراعها حول كتف لمياء التي تجمّدت في مكانها، لا تعرف كيف تتحرّك، لكن الأستاذة أبعدت ذراعها، وقالت لها أن تجلس.

جلست لمياء مكانها، وجلست الأستاذة خلف مكتبها مبتسمة تقول:

- أنت كنت مشغولة جداً بالكتاب، فلم تشعري بي وأنا أدخل وأضع فنجان القهوة على المكتب.

قالت لمياء كاذبة:

- أنا قرأت شيئاً عن هذه الشاعرة، ومعجبة بها، لذلك كنت أتصفّح الكتاب.

نظرت إليها الأستاذة نظرة عميقة، لكن، قصيرة، فسرعان ما أرخت أهدابها، ثم قالت:

- أنا حصلتُ على الدكتوراة من السوربون. عشتُ في فرنسا، وعشتُ في ألمانيا وأسبانيا، لذلك لا تشغلني كثيراً قصص غرام النساء ببعضهنّ.

سكتت لمياء، ولم تردّ، فاستطردت الأستاذة:

- كانت لي صديقة في فرنسا. الحقيقة أكثر من صديقة "ليزيان" وكنّ يقمنَ

حفلات للجنس الجماعي. تماماً كما يفعل الرجال والنساء معاً. لكن، طبعاً
حفلاتهنّ دون رجال.

اندهشتُ لمياء من الحديث، وفكّرتُ أن تخرج، لكنها هي التي لاذتُ بالأستاذة،
وعليها أن تتحمّل. هي التي قالتُ إنها معجبة بسافو، وقرأتُ عنها، لتفتح طريق
الحديث، كما أنها تميل إلى أستاذتها بقوة. كانت الأستاذة تحتسي من القهوة
بهدوء، لكن عينيّها من أعلى الفنجان تنظران إلى لمياء. قالت الأستاذة:

- لم تُعلّقِي على كلامي.

قالت لمياء مبتسمة:

- أعتقد أن هذا عادي في أوروبا. أبي سافر مرّة إلى فرنسا، وعاد يحكي لأُمِّي
كيف أن هناك نوادٍ ليلية للشّواذِّ، وإعلانات أحياناً عن هذه النوادي في الطُّرقات.

ضحكت الأستاذة، وقالتُ:

- على أيِّ حال، أنا تعرّفتُ على شِعْرِ سافو حين أتقنتُ القراءة بالفرنسية. قبل
ذلك لم أكن أعرفها. هي شاعرة عظيمة أشبه بالأسطورة. هي تخفّف عنيّ
قراءاتي في الفلسفة. الفلسفة صعبة جدّاً. الفلسفة يمكن إجمالها في أن هذا
العالم صعب إدراكه، لكن، ماذا نفعل ونحن مرغمون أن نحياه؟! لقد وُلدتُ بحبّ
الفلسفة.

ابتسمتُ لمياء، وقالتُ:

- ربّنا يكرمك، يا دكتورة. هكذا سأنتحر!

- لا طبعاً. ستعيدين تشكيل الحياة. أنتِ تعرفين لغتَيْن، وهذا يمكن أن يجعلك

أستاذة يوماً. سأساعدك كثيراً.

وكانت الدكتورة قد انتهت من احتساء القهوة، فقامت، وجلست على المقعد المواجه للمياه، والقريب جداً منها، حتّى إن رُكبهما صارت متقاربة، وقالت:

- احكِ لي. ما هي مشكلتك، بالضبط؟

أحنت لمياه رأسها متأثرة، لكنها سألت:

- هل ممكن أعرف لماذا أسماك والداك ببادية؟

ضحكت الدكتورة، وقالت:

- كان أبي يعمل في أوّل حياته في العراق، وعاد من هناك بهذا الاسم. أنا شخصياً لا أعرف ما الذي أعجبه فيه. بادية يعني صحراء طبعاً. على أيّ حال، أحببت الاسم، لأنّ مَنْ يعرفني يمكن أن يتوهّ في ...

ضحكت لمياه، وتابعت الأستاذة:

- أجل. يضلُّ طريقه معي.

حملتُ فيها لمياه في دهشة حقيقية، ورأت تحت وجهها الذي بدأت تظهر فيه تجاعيد العمر جمالاً مدفوناً غامضاً. ثمّ قالت الأستاذة:

- أكيد كان يحبُّ امرأة هناك اسمها بادية، وماما ما تعرفش!

وضحكت، فضحكت لمياه، وقالت الأستاذة:

- سأسكتُ، واحكِ لي.

تنهّدت لمياء. أخذتُ نَفْسًا طويلاً، وأغمضتُ عينيها، ثمّ قالتُ:

- لا أعرف بالضبط. ما قرأته يجعلني أقول إنني من خلال سلوكي أُعتبر ترانس جيندر. لكن، حين أقترّب من الفتيات، يشعرون أنني ليزبيان. كما قلتُ لحضرتك في الكُليّة أنا منذُ طفولتي أحبُّ اللعب مع الأولاد الذكور. وحتّى الآن أجلس في المقاهي معهم، أتابع ماتشات كرة القدم، وأصرخ مثلهم. لا أعرف كيف أحبُّ الذكور، وأقترّب من الإناث. التّغيّرات التي حدثتُ في جسدي والاكتناب الذي أعاني منه كثيراً، لأنني أشعر أن شيئاً آخر مدفون تحت جسدي، يجعلاني أجد تفسيراً في معنى الترانس جيندر. كلّما خلعتُ ملابسني أتذكّر، لأن ...

وسكتتُ في خجل، وأرختُ رأسها، فقالت الأستاذة:

- لا يجب أن يضايقك أن صدرك صغير. عاديٌّ جدّاً، ويمكن تكبيره!

لكن لمياء ظلّت صامتة، فقالت الأستاذة:

- طيّب، وتحت، ألا يوجد؟

ولم تُكمِل، فتساءلت لمياء:

- تحت أين؟

مدّت الأستاذة يدها تُرّبت على فخذها، وقالتُ:

- هنا، يعني بين السّاقين.

حرّكتُ لمياء ساقها مُبعدة يد الأستاذة في أدب، وقالتُ:

- أكيد. أجل موجود. وهذا سبب حيرتي. لكن،

ولم تُكْمِلْ، وسكتت الأستاذة لحظات، ثم قالت:

- حتّى لا تتصوّرين أنّي ليزبيان مثلاً. فقط أتذكّر أنّي فعلتها مرّتين. مرّة في فرنسا ومرّة في توليدو في أسبانيا. إنّي فقط ذكّرتيني بذلك، وأنّتم تمسكين بالكتاب عن سافو. أنا طبعاً لستُ طبيبة. لا فيزياء، ولا علم نفّس. لكن، قرأتُ في علم النفّس كثيراً جدّاً. أولاً لا تخجلي من الحقيقة. أنتِ في حاجة إلى طبيب متخصص. هو الذي سيُحدّد ما إذا كان الموضوع عضويّاً، وفي هذه الحالة، يمكن إجراء جراحة أو علاج بالهرمونات أو نفّسيّاً، فلا تخجلي، لأنك لن تمارسي الجنس مع فتاة أو امرأة عنوة.

رفعتُ لمياء وجهها إليها في دهشة. كيف حقّاً انفتحتُ معها هذه الأستاذة بسرعة وقوّة في الحديث؟! على الفور، فكّرتُ أنّ هذه الأستاذة ذات ميول نسوية. لا يبدو أنّها متزوّجة. إنّها تعيش وحدها. لم تقابلها صورة لرجل في الصالة، ولا هنا. هي أستاذتها الآن، وإذا تمرّدتُ عليها، لا تعرف ماذا ستفعل لها في الدراسة. لا يمكن أن تهرب منها. لا يمكن أن يصدّقها أحد من المسؤولين أو غيرهم، إذا تحدّثتُ عنها بشرّ. كانتُ تفكّر في ذلك، وتنظر إلى أعلى، حيثُ سقف الحجرة المرتفع. وقفت الأستاذة قائلة:

- قفّي أمامي لحظة. لحظة واحدة فقط.

وقفتُ لمياء التي رأتُ في عينيّ الأستاذة رغبة تكاد تنهمر مطراً وأصواتاً صاخبة. ستحاول إنهاء الأمر بسرعة. كانتُ تودُّ أن لا تقف، لكنها أحسّتُ بالميل إلى أستاذتها يحملها، فقالتُ لنفسها هذه فرصة، أفتح الطريق لما يكاد ينفجر تحت جسدي. وقفتُ، ولا تدري كيف ألقّت بنفسها في حضن الأستاذة التي قالتُ:

- متعجّلة جدّاً! غصباً عنك، أنا أعرف. لا تقلقي.

وكانت قد أحاطتها بذراعها الأيمن بينما راحت بكفّها الأيسر تتحسّس ثديّتها الصغيرين، وتقول:

- إنهما صغيران جدّاً. هل هو أيضاً كذلك؟!

لم تتساءل لمياء عمّن هو هذه المرأة، فهي تعرف، وستتركها تراه عالياً أكبر من عمرها، وتركت يد الأستاذة تمشي بين فخذيّها. بل فتحت لها ساقيّها قليلاً، وقالت "آه" في نشوة سريعة، وأمسكت بيديّ الأستاذة بقوة، تحيط بهما نفسها، وتدخل في صدرها أكثر، وراحت بدورها تمشي على جسد الأستاذة التي تراجعت بها، وسقطت بهدوء على السرير الصغير قائلة:

- إنه صغير لفرد واحد. سنكون فرداً واحداً، ثمّ نتحدّث فيما بعد.

لم تنتبه لمياء لكلامها، وراحت تنزع عنها ثيابها بشرّه، فقالت الأستاذة:

- تتصرّفين بقوة الرجال، يا مجنونة.

- لماذا تبكين؟ لقد انتهى كل شيء على أجمل ما يكون. أمتعيني جدّاً. كنتُ مع فتاة في قوّة رجل، وبدأتُ أُصدّقكِ. المهمّ أن تكوني استمتعتِ أيضاً.

كانت كلاهما عارية في أحضان الأخرى، وأحسّت الأستاذة بدموع لمياء بين ثديّتها، فمسحتها بيدها، وقالت:

- الأفضل أن ترتدي ملابسنا الآن. ما فعلتيه معي يُغريني بأن لا أتوقّف عنك. أريد

أن آكلك، لكن، فلاسمعك أكثر.

لم يستغرق الأمر غير دقائق، وعادت كلّ منهما إلى ثيابها، وقالت لمياء
مبتسمة:

- أرجو أن لا تكون هنا كاميرات، صوّرتنا.

اندهشت الأستاذة جدّاً، وقالت:

- الجنس، يا لمياء، صلاة. إنه الفناء عن العالم والاتّحاد بالله أو بالملكوت. خروج
عن العالم المحسوس، لذلك أحتقر جدّاً كل مَنْ يقوم بفضح الآخرين، بسبب
الجنس.

هزّت لمياء رأسها، وقالت:

- هكذا ستحتقرين كل البلد.

ضحكت الأستاذة، وقالت لمياء:

- لديّ سؤال، يا دكتورة؟

- تفضّلي.

- هل حقّاً تريدان مساعدتي أم وجدت فيّ ما يُشبع رغبتك؟

سكتت الأستاذة لحظات، وتنهدت، ثمّ قالت:

- الاثنان. بالمناسبة، أنا لستُ قذرة. إذا أحببت أن لا تأتي إليّ مرّة أخرى، لن
أضايقك. لن أبتزك، بكوني أستاذتك، ولن أعطيك درجة أفضل من غيرك إلّا إذا

كانت إجاباتك تستحق في الاختبارات. لقد طلبت منك الحضور، كمحاولة لا أكثر،
لم أفكر أنها قد تنجح. هناك الكثيرات يمكن أن تأتين إلى هنا.

نظرت إليها لمياء صامته، فتابعت الأستاذة الحديث:

- أنا لي كل عام فتاة واحدة، ودائماً أنجح في اصطيادها. كل ما في الأمر أن
المسألة لا تتم من أول يوم. هذا العام كنت أسعد حظاً.

- كل عام، يا دكتورة؟

- أجل. لكن، واحدة، ولا أزيد. ولأني أدرس للأربع سنوات، فهناك دائماً أربع
يتغيرن، منهنّ واحدة تتخرج، وإذا رسبت في اليسانس، لا أغيرها بجديدة.
أحافظ على العشرة حتى تنجح، وأفوز بغيرها. أتركها للحياة التي خرجت إليها.
الأمر سهل، لكني حريصة على الأسرار. أجل. كثرة السحاقات - نظرت إليها
لمياء في غيظ مكتوم - وحتى الترانس جيندر - ابتسمت لمياء - لا تجعلني أتاخر
في الأمر.

- حضرتك متزوجة، يا دكتورة؟

- لا طبعاً. ليس للرجال معنى.

سكتت لمياء. تأكد لها أن أستاذتها سحاقية، وليست ترانسجيندر، وإلا كانت
بحثت لنفسها عن مخرج من أزمته. لقد تعايشت مع وضعها الذي لا يلح عليها
جسمها بتغييره. إنه وضع نفسي، وليس عضويّاً كما تشعر هي.

وقفت لمياء ضاحكة، وقالت:

- يعني هنّ كثيرات والحمد لله. طيّب!

ضحكتا، وقالت الأستاذة.

- يقول الرجال إن حجم الشفاه دليل على حجم شَفَتَي البظر. لكنني وجدتُ
كثيرات عكس ذلك. أنتِ شفَتاكِ رفيفتان و..... لن أكملَ. الرجال بلهاء في كلِّ
الأحوال.

دخلتُ لمياء شَقَّة أسرتها، وتوجَّهتُ مباشرة إلى غرفتها. الساعة تجاوزت
العاشرة مساءً، ولا أحد في انتظارها. ربَّما نامت أمُّها وأختها بينما أبوها لا زال
في الخارج كعادته، لكن، ما إن دخلتُ غرفتها حتَّى دخلتُ أمُّها وراءها غاضبة:
- أنا صاحبة وفي انتظارك. الساعة تقترب من الحادية عشرة. أين كنتِ كلَّ هذا
الوقت؟

وكانتُ تمسك بذراعها وتضغط عليه بقوة ممَّا آلم لمياء، وراحتُ تهبط إلى
أسفل، تريد أن تخلِّص ذراعها، ولا تستطيع.
- اتركي ذراعي، أحكي لك.

- أخبرتني أنكِ ذاهبة لأستاذة الجامعة، لكن، أنتِ خرجتِ من هنا الساعة
السادسة، فكيف مضت الخمس ساعات.

- معها والله.

- ماذا كانت تريد منكِ حتَّى تظلي كل هذا الوقت؟

- هل لو قلتُ لكِ ستُصدِّقيني؟

- أسمع أوَّلاً.

- إذن، اتركي ذراعي، أنا غير قادرة على تحمُّل قرصتك.

تركتُ أمُّها ذراعها، وجلستُ على مقعد أمام المكتب الصغير الذي تذاكر عليه لمياء، وجلستُ لمياء خلف المكتب، وقالت:

- لن أحكي لكِ شيئاً. أجل. لأنه لا فائدة فيما أقول. قُلُّهُ كثيراً، ولا فائدة معكِ. لن تعرفي ما أعانيه إلَّا حين أنتحر.

نظرتُ أمُّها إليها نظرة طويلة غير مُصدِّقة، لكن لمياء استمرَّت تتحدَّث.

- كم من السنين حدَّثتكِ بمشاعري الغريبة. تتهميني أنني شاذَّة، وأني من كثرة ما أشاهد من أفلام بورنو على الإنترنت أتصوّر ذلك. أقسمتُ لكِ أكثر من مرَّة أنني لا أشاهد أيَّ أفلام من هذا النوع. يا ماما، أرجوكي، ساعديني. أنا مش عارفة أنا بنت ولّا ولد.

وقفتُ أمُّها تنظر إليها، وقالت:

- أنتِ شرموطة. ولو كنتِ حدَّثتي مُدريستكِ بشيء من ذلك، فقد ضاع مستقبلكِ.

وتفلتَ عليها، وخرجتُ.

وضعتُ لمياء رأسها بين كفَّيها، ولم تشعر بأيِّ دهشة، فهذا حديث تسمعه دائماً. أمُّها لم تفهم أبداً منذُ وقت مبكّر، كيف كانت تتبوّل كالأولاد واقفة،

وليست كالبنيات جالسة على قاعدة التواليت. وبعد أن صارت لا تفعل ذلك، لا تزال رغم مضي السنين تشتاق أن تتبول واقفة. أمُّها لم تفهم أبداً كيف أنها لا تتمتع بخصر نسائي صغير، ولا ميلها حتّى الآن لملابس الأولاد، ولا تقليد أبيها أكثر من تقليد أمِّها في الحركة والكلام. كانت دائماً تعتبر ذلك شقاوة منها، ولا تفهم أنه ميل ذكوري، ولا تريد أن تفهم رغم ثقافتها وعلمها. لم تفهم أبداً شرودها كثيراً، وهي لم تجرّب أن تقول لها إنها تشعر أحياناً بالمتاهة حولها عن العالم، فلن تفهم أمُّها، ولن تفكر أن تفهم معنى لأيّ حيرة في ذلك. لكنها وقفت تخلع ثيابها بهدوء، وأقسمت أن تقاوم، وأن تجد مَنْ يساعدها. لقد صارت طالبة في الجامعة. نظرت حولها، وفجأة ابتسمت، وراحت ترقص. فليكن ما فعلته مع أستاذتها هو حياتها حتّى تجد حلاً. أجل. ستجد مَنْ يوافقها من البنات. وإذا كانت الأستاذة تختار واحدة كل عام، فهي يمكن أن تعثر على أكثر من واحدة في كليّتها، بل وفي الطُرقات، وكلّ يوم.

ألقت بنفسها على السرير شبه عارية. وضعت يدها بين فخذَيْها، وقالت في نفسها "انتظر، أيُّها المخفيُّ تحت هذا العضو المزيف. سأخذ حقِّي أولاً حتّى أجد طريقة لإظهارك حتّى لو طلبت اللجوء السيّاسي".

وتمرّغت مرتين على السرير، ثمّ ارتدت ثوب نومها، وراحت تُقلّب في الموبايل الذي تملكه. كالعادة وجدت "بوستات" تتحدّث في السياسة. هذه المرّة لم تتجاهلها. كتبت على الفيس بوك.

"أنا مش بادخل كتير على صفحتي، وآخرتي فيها لما أدخل أعمل لايك لحدّ بيتكلّم عن السينما أو الفنّ عموماً. من الكلام اللّبي باقراه هنا باشوف ناس كتير بتشتّم في النظام الحاكم. وبرضه باشوف ناس بتدافع عن النظام الحاكم. على قدّ فهمي الأهل في السياسة، تبقى بلدنا في منتصف الطريق. هل هذا له

علاقة بحكاية الترانس جيندر؟! يعني المخلوقات اللّبي هي رجالة عايزة تكون نسوان، والعكس. ياريت تفكّروا شوية وتردّوا على سؤالي: هل بلدنا ترانس جيندر، ولا نعرف؟ آه ناس كثير بتقول إنها بلد مكتّبة، وناس كثير بتقول مصر بتفرح!"

بعد أن كتبت ذلك، ضحكتُ، وقفتُ فاتحة النافذة، وأشعلتُ سيجارة صغيرة من صنعها. كانتُ عيناها على الشارع تحتها، لترى أباهما حين عودته. إنها على يقين أن أمّها لن تعود إليها مرّة ثانية الآن. قالتُ في نفسها باسمه "لم يأتِ الشتاء بعد. الشارع خالٍ حقّاً كالعادة في هذا الوقت، لكنّ، لا يظهر فيه العشاق إلّا في الشتاء". ضحكتُ، لأنها تذكّرتُ أن شخصاً ما لا بدّ أنه ابن حرام كان قد كتب بالطباشير على أوّل الشارع من ناحية المركز الثقافيّ الفرنسي "شارع الجنس". كانتُ مندهشة من جرأة مَنْ كتب ذلك، فالشارع جميل هادئ، ليس فيه غير عمارات قليلة غير مرتفعة، تطلُّ على حدائق معهد الآثار الشرقيّة. كثيراً ما رأتُ الشباب والفتيات من الحاضرين لدروس أو ندوات المركز الفرنسي يمرّون من الشارع، ولا يبدو أنهم يمارسون أيّ نوع من العلاقات. بل يمشون بسرعة متّجهين إلى شارع الشيخ علي يوسف. أكثر من مرّة رأتُ شابّاً يقف يشير إلى ما هو مكتوب، ويضحك، وينادي زملاءه، ليقرؤوا، ويضحكوا، لكنها لم ترَ أحداً منهم يمسح ما هو مكتوب. فكّرتُ هي أكثر من مرّة أن تمسح المكتوب، لكنها خشيتُ أن يراها أحد، فيتصوّر أنها هي مَنْ كتبتُ ذلك من قبل. دائماً تندهش أن أحداً من السكّان لم يمحُ الكتابة. موافقون عليها. لا طبعاً. خائفون مثلها ربّما. الأرجح خائفون. تمنّتُ أن يرى أباهما ما هو مكتوب، وبالتأكيد سيمسحه هو أو أمّها، لكنهما عادة يمشيان ينظران إلى الأرض.

لقد ظلّت هذه الكتابة عامّاً كاملاً، لم يفكّر أحد في مسحها، لكنها اختفت منذُ

عدّة أشهر. مسحها شخص ما.

رأتُ في أوّل الشارع أباهَا داخلًا إليه، فتركتُ ما بقي من السيارة يسقط على أرض الشارع. لن يرى أبوها ذلك، فالشارع مظلم إلّا من طرفيه بنورالشارعين المتقاطعين معه. عادتُ إلى مكتبها الصغير. فتحتُ رواية "إني راحلة" ليوسف السباعي، وجلستُ تقرأ فيها. أبوها من محبّي يوسف السباعي، وهو من اقترح عليها هذه الرواية. يريدُها أن تقرأ روايات مصرية. إذا دخل عليها الآن، لن تكون هناك مشكلة، وأمّها لن تخبره بتأخرها. لكنها سمعتُ أباهَا يفتح باب الشقّة، ويدخل إلى غرفة نومه، ولم تعد تسمع له صوتًا، ولا لأُمّها. لا بدّ أن أمّها نامت، وتناول هو عشاءه في الخارج، وجاء لينام بسرعة. رأت الساعة تقترب من الثانية عشرة. في الصيف، يتأخّر أبوها أكثر. بعد عودته من البلاد العربية، ترك العمل كمهندس في الحكومة، واستطاع أن يشتري محلًا في منطقة "معروف" لبيع قطع غيار السيّارات، وعادة يأتي بعد منتصف الليل. إنه، على أيّ حال، يسبُّ كل يوم في أحوال البلاد الاقتصادية التي تُسبب خسارة كبيرة للتجار أمثاله، ويلعن اليوم الذي حدث فيه ثورة يناير!

تركتُ رواية يوسف السباعي، وتمدّدتُ فوق السرير، لا تذكر منها شيئًا. هي تفتحها فقط حين يأتي أبوها. هي تكتفي بالفرجة على الأفلام المأخوذة عن روايات مصرية. أبوها يريدُها أن تحبّ ما يحبّه، لكنّ، دون إجبار. لكنها رأت تعليقات كثيرة على ما كتبه على الفيسبوك، بينها تعليق لكاتب مشهور، كم رأيته في التلفزيون من قبل يقول:

"غريب أمر صاحب الحساب رجلاً كان أو امرأة. سؤاله لم يطرأ على ذهن أيّ مفكّر سياسي. نحن نسمع كل يوم تحليلات في التلفزيون، وفي المحطّات التابعة للنظام، والمعادية له، ونقرأ الصحف، لكن أحداً لم يعبر عن المسألة مثل

هذا التعبير الموجز. صاحب أو صاحبة هذا الحساب الذي يُسمِّي نفسه "دودة وبتنقر" مفكّر كبير جدًّا، يخشى أن يكتب اسمه، فيتمّ القبض عليه".

ضحكتُ، وراحتُ تهتّزُّ من الضحك وهي تكتُم صوتها فوق السرير. لكنها قرأتُ تعليقاً لفتاة تقول "وربّما هو أو هي ترانس جيندر، ولذلك فهم المسألة. على أيِّ حال بلدنا في حاجة إلى عملية كبيرة أو علاج بالهرمونات، لتصل إلى الوضع الحقيقي الذي أراده الله لها".

ثمَّ رأْتُ تعليقاً آخر لفتاة أخرى يقول "بلدنا في الغالب ترانس جيندر، والأحسن لها تروح للدكتور مختار صابات في مصر الجديدة، فهو متخصص وعالمي في الموضوع، وأنا أعرف واحداً راح له، وبقي بنت زي القمر. أهله الحقيقة كانوا محترمين جدًّا معاه، وعالجوه، ولم يخلجوا منه".

هزّت رأسها قائلة "دكتور مختار صابات" لن تنسي هذا الاسم. ستذهب إليه، ولو دون أن يعلم أهلها.

صباح اليوم التالي مشت من بيتهم إلى محطة مترو سعد زغلول في شارع إسماعيل أباطة وسط السوق المزدحم بعد أن عبرت شارع المبتديان إلى شارع منصور. ستركب المترو اليوم إلى الجامعة. تريد أن تدخل من الباب الخلفي الواقع على شارع السودان، لتمشي أكبر مسافة بين الوجوه النضرة السعيد والخضرة والأشجار والكُلِّيَّات المختلفة. ستنزل في ميدان التحرير، وتُغيّر طريقها راكبة المترو القادم من شبرا إلى الجيزة، وتغادره في محطة الجامعة. لقد تعودت أن تركب عربات الرجال رغم أنها حائرة بينها وبين عربة النساء. لماذا لا تركب اليوم عربة النساء، وتحاول أن تتحكّم في نظراتها؟ إذا كانت تخشى أن تُتهم من النساء بالسحاق، فهو أهون من أن تُتهم به أيضاً في عربات الرجال حين تقترب من امرأة! إنها لا تشعر بالحيرة، لكن، بالدمار دائماً. تستطيع اليوم أن تقاوم رغباتها، ما دامت عرفت الطريق إلى العلاج. مقاومتها لرغباتها أول طريق العلاج. كما أن تحرّش الرجال بها أمر كريه، لا تتحمّله. لقد وجدت الآن مَنْ تنام معها، وتُشبع رغبتها الذكورية، وإن بآلات أنثوية. مَنْ وجدته ليس عابر طريق، لكنه سيّدة من سيّدات المجتمع الراقي، تعلّمت في أوربا، وأستاذة، لها سمعتها الطيّبة في الجامعة.

حين وصلت إلى محطة التحرير، اكتشفت أنها تنزل من عربة الرجال. خانت رغبتها أو خانتها العادة. لتتنبه في المترو الذهاب إلى الجيزة. عربة النساء أحد الحلول الجريئة الآن. أخذت طريقها إلى الرصيف المؤدّي إلى الجيزة. كان الزحام شديداً، فنحن في أول الصباح. وجوه كثير من الناس متعبّة. هم العمّال والموظّفون الذين يشكّلون أكثرية ممّن يظهر في الصباح الباكر ذاهبين إلى أعمالهم. بينما تنزل السُّلم الكهربائي إلى الرصيف، سمعت فتاة تقول لشابّ

جوارها، يقفان أمامها.

- ما كل هذا البوليس في ميدان التحرير اليوم؟

- لا أعرف. ربّما سيمرُّ شخص مهمّ.

التفتَ شابٌّ أمامهما إليهما قائلاً:

- لا. هناك شخص دعا لنزول الميدان، والتظاهر فيه اليوم. لذلك الدنيا متلبّشة.

ثمَّ أسرع في النزول سابقاً حركة السُّلَم الكهربى. ساد الصمت بعدها. بدا أنها لا تشعر بأحد جوارها، ولا أحد يشعر بها. نزلتْ عند نهاية السُّلَم. مشت المسافة القليلة إلى الرصيف الذي وجدته محتشداً بالناس. كل هؤلاء ذاهبون إلى الجامعة أو إلى أعمال في الجيزة والهرم. يا إلهي! ذكّرتْ نفسها أن لا تنسى دخول عربة الحريم. تذكّرتْ أن لفظ الحريم من الحرمة بينما كل أيادي الرجال تقفز عليهم في الطُّرقات. ربّما لأن الحريم قديماً كنَّ ملكاً لصاحبهنَّ والياً أو خليفة أو غنياً، لكن، مَنْ يملك الآن كل هذه النساء؟! وقفتْ شاردة لدقائق قليلة، ثمَّ سمعتْ صوت هدير المترو قادماً من بعيد. تأتّى عند وصوله، وراح يقف شيئاً فشيئاً. جاءت عربة النساء أمامها. إذن، لن تنسى. لم ينزلْ غير عدد قليل منها بينما دخل معها عدد كبير. كنَّ مسرعات، فاحتكَّتْ بها أكثر من واحدة في أثناء الصعود. على غير توقُّع، كانتْ هناك مقاعد فارغة. أسرعَتْ إلى إحداها، وجلستْ. على الفور مالتْ برأسها إلى أسفل حتّى لا ترى أحداً. إلى هذا الحدِّ، يا لمياء، تُغريكِ النساء؟ وهل يفعل الرجال كلهم مثلكِ؟ لن تسأل إحسان صديقها أو أيّاً من أصدقائهما. أيّ رجل سيجيبها بنعم، وكيف يقاسي الرجال في كبت مشاعرهم حتّى يعودوا إلى بيوتهم، يلتقون مع زوجاتهم أو يتحسّرون على وحدتهم! سيُجيبنها بذلك طمعاً في كرمها! ابتسمتْ. لا يجب أن تلوم

الرجال. إذا كانت هي تفعل ذلك، فماذا يفعل الرجال المكتملون؟! لكنها ارتبكت وهي ترى النسبة الغالبة من النساء مُتَحَجِّبات، كأنها تعرف ذلك لأول مرة. تقريباً ليس هناك كاشفة لشعرها غيرها وامرأة أخرى بعيدة عنها في حوالي الأربعين من عمرها. كيف نسيّت أن هذا هو حال النساء في مصر. حتّى في مدرستها الثانويّة قبل أن تلزم بيتها كانت كثير من الفتيات المسلمات مُتَحَجِّبات. قليل منهنّ غير مُتَحَجِّبات مثلها ومثل المسيحيات رغم أنها مدرسة خاصّة للطبقة الموسرة. الأغرب كانت زميلة لها مسيحية ومُتَحَجِّبة، قالت لها "أمّي قالت لي أتحجّب خوفاً من المعاكسات". وكان الأساتذة من الرجال والنساء يتنمّرون بها. "لماذا تتحجّبين وأنتِ نصرانية؟! لن يلومكِ أحد على كشف شعرك. تشبّهكِ بالمسلمين حرام، والمسلمون في غنى عنه" أكثر من مرّة بكت هذه الفتاة، ثمّ انقطعت عن الدراسة مثلها. إنها لا تنساها أبداً. لم تفهم أبداً سرّ هذا الرعب عند عائلة مسيحية! هي فتاة واحدة مسيحية من فعلت ذلك، والحمد لله.

فوجئتُ بامرأة تقف أمامها، تقول لها:

- لماذا أنتِ غير مُتَحَجِّبة؟! لا يبدو أنكِ نصرانية. تحجّبي، يا بنتي، علشان ربّنا ينصرك في الدنيا.

نظرتُ إليها، وابتسمتُ، ولم تردّ.

قالت المرأة لامرأة أخرى تقف جوارها:

- كلامي لا يعجبها.

لم تردّ عليها الأخرى، فقالت الأولى لها:

- أنتِ أيضاً لا تردّين عليّ. كيف لا يعجبك كلامي، وأنتِ المُتَحجّبة؟!

قالت المرأة الأخرى:

- حضرتك، نحنُ ذاهبات إلى أعمالنا، وهذه ساعة صباح. هذا مترو، وليس مسجداً. أرجوكِ دعي كل انسان في حاله مش ناقصة حوارات ع الصبح.

وإذا بالمرأة الأولى تصرخ في بقية العربّة:

- ما رأيكم يا ستّات؟! هذه الستّ تلومني، لأنّي أطلب من البنت القمر دي تتحجّب؟

فقالت امرأة من بعيد:

- مالكيش دعوة بالكفّار، يا هانم.

وحطّ صمت على مَنْ بالعربّة، وتساءلتُ في نفسي ما هذا الصبح؟!

كانت المرأة تقف أمام قَدَمَي لمياء الجالسة في المقعد المستطيل الموازي لجدار المترو. اندهشتُ لمياء من الزحام الذي زاد جدّاً في العربّة، فأدركتُ أن المترو مرّ بأكثر من محطة. أحسّستُ لمياء بساقي المرأة على طرفي ركبتيّها، وتعلّقت المرأة بالحلقة الجِلْدِيّة المتّصلة بالسقف، لتتحكّم في ثباتها. دون أن تدري تحرّكت يد لمياء إلى إحد فخذَي المرأة و"خبطتُ فيه" لكن المرأة لم يبدُ أنها شعرتُ بذلك. عادتُ تتكلّم:

- البلد دي خربت منذُ خلعنا الحجاب. وبالمناسبة أنا لستُ من الإخوان المسلمين، ولا أحبُّهم. أنا ستّ موحّدة بالله بس.

لكن يد لمياء ذهبت مرّة أخرى دون قصد إلى فخذ المرأة. في هذه المرّة تركتها ترتاح عليه، ولم تُعْذّها إلى مكانها. لم تعد تسمع ما تقوله المرأة. لدهشتها حين رفعت وجهها إليها، وجدتها تبتسم وتقول:

- أنا غلطانة. فعلاً كل واحد حُرّ.

وجدت لمياء نفسها "تنكش" بأصابعها على فخذ المرأة، والمرأة لا تُبعد ساقها. حرّكت فخذها حركة سريعة، كأنها تنفض حشرة عنه، ثمّ عاد إلى ثباته، فتركت لمياء يدها جاثمة كلها عليه. رفعت وجهها، فرأت المرأة تبتسم وتنظر إلى أعلى. مشّت بإبهامها على فخذ المرأة من الداخل، فحرّكت المرأة، لتفتح مسافة في جلبابها الواسع بين الفخذَيْن. كان الزحام شديداً، ولا تظنّ لمياء أن مَنْ تجلس جوارها ترى أو تنتبه إلى حركة يدها. قالت في نفسها "والله ما أقصد، لكنّ، الحمد لله أنكِ سكّتي. الشرمطة ماتخبيهاش الهدوم" وراحت بإبهامها تتوغّل في فخذها. في لحظة كادت تنحني وترفع الجلبات الطويل، وتضع يدها على الفخذ عارياً، لكنها تماسكت. اكتفت بالشهوة التي انطلقت فيها، ولا بدّ أن شهوة المرأة أكثر. حين صارت يدها كلها بين فخذَي المرأة، ضغطت عليها المرأة بفخذيها، وتركت هي يدها بلا حركة، لكنها رأت اللّافّة على الرصيف، والمترو يكاد يتوقّف. محطة الجامعة. هنا يجب أن تنزل. وقفت، ولا تعرف ما هو المنتصب بين فخذَيها. شيء يكاد ينفجر بينهما. قالت للمرأة وهي تنظر إليها باحتقار:

- تفضّلي، يا مدام، مكاني، وشكراً على النصائح الغالية.

قالت المرأة:

- والله، إنتِ محترمة وبنت ناس.

ولم تفسخ لها طريقاً لتمرّ إلّا بعد أن احتكّ جسمها كله بها. نزلت لمياء، وراحت تقريباً تجري، فهي في حاجة إلى دورة مياه، تُطلق البول الذي تجمّع في مثانتها. لن تجد ذلك إلّا في مباني الجامعة، فلتُسرع.

استطاعت أن تتحكّم في نفسها حتّى وصلت إلى دورة المياه، وخرجت منها مرتاحة جدّاً، تتنهد غير مُصدّقة. كانت تشعر أن فخذَيْها يصطدمان ببعضهما، وكم تمنّت أن تضع يدها بينهما. لقد توجّهت إلى الكافتيريا، ولم تذهب إلى المحاضرة. في لحظة كانت تشعر أنها في مكان لا تعرفه. في لحظة نسيّت أن هذه هي الجامعة التي تمنّتها، والتي رغم حبس والدَيْها لها في البيت عامين من المدرسة، نجحت أن تُذاكر وتدخلها. وافقت أمّها يائسة على قول أبيها، باعتبار أنها لا بدّ كبرت ونضجت، ولن تتحرّش بالبنات، فتحدث معها ولها مشكلات جديدة آملة أن لا يُشكّل الصبيان الذين ستعرفهم لها مشكلة، فهي تميل إلى مصاحبة الصبيان، وهم يأمنون عليها دائماً حين تخرج مع إحسان أو تواعده، وربّما تستطيع أن تجذب واحداً منهم، ليتزوّجها.

ما إن دخلت لمياء الكافتيريا حتّى رأت سونيا تشير إليها بالتّحية باسمه. إنها الفتاة التي صرخت فيها أمس في المحاضرة. جميلة حين تبتسم، تتسع عيناها العسليتان، على عكس ما رأتها حين انفعلت تنهرها. حجابها يميل إلى اللون الوردي. ترى ماذا تريد منها الآن؟ لكن صوت سونيا أتاها قائلة وهي تضحك:

- تعالي. أستاذ علم النّفس غائب اليوم. يعني أوّل محاضرة إجازة!

كان مع سونيا الشّابّان اللذان قابلتهما أمس مع محسنة، عابدين ومُريد. وقفت سونيا، وقالت:

- محتاجة أوالك والله. أرجوك.

تقدّمتُ إليها مبتسمة نصف ابتسامة، فتقدّمتُ سونيا، وأخذتها في حضنها، وربّبتُ على ظهرها، وأشارت لها بالجلوس. جلستُ معهم. قالتُ سونيا:

- سامحيني، مخّي ذهب بعيداً، لأن البلد بصراحة كلها مصائب. حقّك عليّ.

- لا مشكلة. أنا نسيْتُ.

- اسمحي لي أعزمك على شاي.

- أنا سوف أعزمك. سأعزمكم كلكم.

قال مُريد:

- ما هذا اليوم الجميل؟

وقال عابدين:

- هكذا أفضل. أصل مُريد كان يحدّثنا عن زميل لنا في قسم تاريخ. جاره. قال إنه أمس عند الفجر قبضوا عليه من البيت.

قالت سونيا:

- يقول إن العمارة كلها أحسّت بالبوليس، وإن أخت الولد كتبتُ هذا على الفيسبوك أيضاً.

التزمتُ هي الصمت. بينما قال مُريد:

- لو في زمن آخر. منذ أربع سنين مثلاً، كانت الكُليّة ولّعتْ مظاهرات.

ثمّ نظر إليها قائلاً:

- لم يعجبني ما فعلته سونيا أمس حين حكته لنا اليوم، وأثبتها قبل ظهورك. لم أكن أعرف أنها تتحدّث عنك.

قالتْ سونيا:

- فعلاً أثّبتني.

وقال مُريد:

- ليتنا نكون أصدقاء طول العام ومعنا محسنة التي لم تظهر اليوم خاصّة أنا سنتركك، يا سونيا، ويا لمياء، في آخره، ولن تريانا العام القادم.

قال عابدين:

- هل أنت ناوي تنجح؟

ضحكوا جميعاً. ثمّ قال مُريد:

- أنا مع كارل ماركس. لا علاقة لي بزينون بتاعك!

قال عابدين للمياء:

- كما قلتُ لكِ أمس، زينون هذا يقول إنه لا توجد أصلاً حركة. لو أطلقتِ سهماً من القوس، لن يصل إلى هدفه. لماذا؟ لأنه حتّى يصل لا بدّ أن يقطع نصف المسافة. ولكي يقطع نصف المسافة لا بدّ أن يقطع نصف نصف المسافة،

وهكذا. ولأن لكل مسافة نصف، لن يتحرّك من مكانه. اشهدي أنتِ بيننا. بلدنا منذُ أطلق جمال عبد الناصر السهمَ على الاستعمار والملكية والإقطاع، وهذا الكلام، لم تتحرّك نصف مسافة. هل زينون مخطئ؟! هل بلدنا تحرّكت إلى الأمام؟!

ارتبكتُ، لكنها ابتسمتُ، وقالتُ:

- إن شاء الله تنجحاً، وأُكمل أنا وسونيا. لكن، أين محسن؟

ضحك عابدين ومُريد بقوة، وقالتُ سونيا:

- عرفتُ مَنْ تقصد. هي بنت خالتي على فكرة، وعرفتُ صديقَها عابدين ومُريد مثلكَ أمس. هي دائماً تستعبط حين تذكر اسمها. أختها تلد اليوم، وراحتُ معها المستشفى منذُ الفجر.

ورأوا واحداً من رجال أمن الكُليّة يدخل الكافيتريا، ويقف عند الباب، ينظر إلى الجالسين يتفحّصهم. همستُ سونيا:

- هل سمعوا ما قلّته، يا مُريد، عن الولد الذي قبضوا عليه أمس؟ يالهوي؟

التزموا الصمت والابتسام حتّى أتى الجميع صوتُ رجل الأمن يقول:

- يا جماعة، هناك طالب نسي الموبايل على آلة التفتيش في أثناء الدخول. الموبايل عندنا، وليته يأتي يتسلّمه.

وتركهم ومضى. لا بدّ ذهب إلى كافيتريا أخرى.

قال عابدين:

- هل في هذا الزمن مَنْ يفعل ذلك؟! يستطيعون من الموبايل أن يعرفوا رَقْمه، ويعرفوا صاحبه، وينادوا عليه بالاسم.

قال مُريد:

- أكيد فتحوا الموبايل، ورأوا ما خَزَنَته فيه. ولو كان له حساب على الفيسبوك أو تويتر، فلا بدَّ قرؤوا ما عليه. أكيد هو يعرف صورته، وجاء ليجده. ربّنا يستر، ولا يكون هناك شيء يضرّه.

قال عابدين:

- ولاد حرام. ينادون على الموبايل حتّى يطمئنَّ صاحبه أنهم لم يفحصوه، ويذهب، فيقبضوا عليه.

شملهم الصمت لحظات، ثمَّ قال مُريد وهو ينظر إلى لمياء:

- هذا هو صاحب زينون يفكّر كماركسي. أنا والله ماركسي بالكلام فقط، وكثيراً ما أركن إلى زينون هذا. لكن، لماذا لا تتحدّثين؟ هل لا يعجبك كلامنا؟

- أبداً. أنا أصل عندي مشكلة تضحك. أنا بنت قدّامكم، لكن، أحبّ البنات جدّاً. ما رأيكم؟

نظروا إليها في دهشة كبيرة جدّاً، فقالت:

- لا تفهموني خطأ. أنا لستُ ليزبيان، ولا أحبُّ قلّة الأدب. بالعكس أنا أحبُّ الجلوس مع الصبيان طول عمري، وألعب معهم أيضاً. فقط أحببتُ أن أخرجكم من الكلام في السياسة. ثمَّ إنني لا أُصدّق أنهم يقبضون على أحد بسبب الفيسبوك.

هنا دخل أحد الطُّلاب حاملاً كتاباً في يده، يقول بصوت عالٍ:

- قبضوا على صاحب الموبايل. عرفوه من صورته على الموبايل. يقولون وجدوا بلاوي على صفحته في الفيسبوك. بعد اليوم نأتي من غير موبايلات أفضل. تأمله تقريباً كل الجالسين بالكافتيريا، ووقف بعضهم غير مُصدِّق، أمّا الفتيات، فأكثرهنَّ وقفنَّ وانصرفنَّ من المكان في سرعة.

قال عابدين:

- لا تعليق. الكل خاف.

وقالت لمياء:

- اسمحوا لي أروّح.

وقفتُ تصافحهم. دون أن تدري شدّت على يد سونيا بقوة، وتحركتُ خارجة. تابعتها سونيا بعينيها حتّى خرجتُ من باب الكافتيريا، وهمستُ:

- سأقول لكما شيئاً غريباً. حين احتضنتُ لمياء هذه، لم أشعر أن في صدرها ثدياً. صدرها تقريباً فلات.

اندهشا وهما ينظران إلى بعضهما، وقال عابدين:

- والله، إنتِ مجنونة، يا سونيا. إحنا في إيه، ولّا في إيه! عموماً بنات كثير صدرها صغير.

قالتُ:

- أقول لكم فلات، تقول صغير؟

قال مُريد:

- ناقص تقولي إنها رجل متنكّر، والأمن يقبض عيلها بالمرّة.

ضحكوا، لكن سونيا لم تضحك. قالت شبه شاردة:

- هي لم تكن تَهزّر حين قالت إنها تميل إلى البنات. لقد شدّت على يدي بقوة وهي تصافحني، كادت تكسر أصابعي. أكثر من ذلك مشّت بإبهامها على ظهر يدي تحكُّ فيه.

- اسكتي، يا بنت المجنونة.

قال عابدين ذلك، فاندفعوا في الضحك.

لكنّ مُريد قال:

- تعال، يا عابدين، نعرف حكاية صاحب الموبايل. اترك زينون الآن. تعال لنعرف اسمه على الأقلّ، نقول عنه كلمتَيْن في الفيسبوك. لازم أهله يعرفوا بدري.

كادت تنهار على الأرض وأمين الشرطة يدفعها برفق إلى منطقة حجز النساء.

لكنها صارت وجهها لوجه مع ستّ فتيات ونساء يجلسن على الأرض، تضع كل واحدة منهنّ يدها على خديّها صامتة. توقّعت ما رأيته في الأفلام المصرية القديمة على شاشة التليفزيون. أن يكون بينهنّ عاهرة أو أكثر تتحرّش بها، لكنهن بدوّن ذاهلاتٍ عنها. بينهنّ واحدة تسري دمعة على خديّها. انهارت جالسة على الأرض، وانفجرت في البكاء. نظرن إليها كأن الأمر عاديّ تعودنّ عليه. أو كأن هذا تفعله كل واحدة يُلقى بها هنا حين تشعر أنه قد أُغلق عليها باب الأمل. أكبرهن سنّاً كانت ترتدي ملابس سوداء. بدت تجاوزت الأربعين. جلباب واسع بينما الأخريات ترتدين بنطلونات جينز، فوقها بلوزات، بدت لها رخيصة الثمن، وبدوّن في العشرينيات من العمر. قالت لها السيّدة الأكبر سنّاً:

- لا تبكي، يا بنتي. إنتِ شكليّ بنت ناس، وأكيد أهلك لن يتخلّوا عنك. لا بدّ ستُعرضي على النيابة للتحقيق اليوم الساعة الخامسة، وعلى الأكثر صباح غد، وتحصلي على إفراج.

هذا حديث غريب عليها، لم تسمعه من قبل. مرّ عليها في الفيسبوك مثله كثيراً، لكنها لم تقف عنده. وسألته إحدى الفتيات:

- لماذا قبضوا عليك؟

لم تردّ. لم تعرف ماذا تقول.

قال الفتاة من جديد:

- لا بدّ من سبب حتّى لو خطأ. احكي لنا حتّى ننصحك ماذا تفعلين في النيابة.

لم تردّ أيضاً. اقتربت منها المرأة الأكبر زحفاً على مؤخرتها حتّى صارت جوارها،
وقالت:

- اهدئي، يا بنتي. لا تقلقي. إن شاء الله خير. لكن، احكي لنا فعلاً ماذا حدث
لننصحك لوجه الله.

وقالت فتاة أخرى ضاحكة:

- بالمناسبة، كلنا محبوسين مؤقتاً بقرار النيابة، وسنُعرض على النيابة مرّة
أخرى. يعني خبرة.

واندفعت الثالثة قائلة:

- طيّب، نحن نحكي لك لماذا نحن هنا. شوفي، يا قمر ...

وراحت تحكي:

- السّت التي في عمر أمّنا هذه متّهمة بقتل طفلين. قالوا ولداها، وهي تقول
إنها لم تنجب أصلاً. سنُنقل غداً إلى السجن، لأن النيابة صباح اليوم قرّرت
حبسها خمسة عشر يوماً. مثلي أنا. طبعاً أنت لا تُصدّقين أنها لم تنجب. هذا
هو كلامها. الشهود شهدوا أنهما ولداها. الشهود رأوها وهي ترمي جثّتي
الولدين في برميل الزباله. الحقيقة فيه كاميرا في محلّ، كان مغلقاً جوار البرميل
صوّرها. هي طبعاً لا تعرف مسألة الكاميرات هذه. هي لا تريد أن تعترف، ولا
توجد شهادات ميلاد للولدين. شهادة الجيران فقط قالت إنهما كانا يعيشان
معها. أمّا الثانية الحلوة هذه - وأشارت إلى فتاة جميلة حقّاً، لكنّ أسنانها

سوداء، لا بدّ من أثر تعاطي المخدّرات - فهي تقف على باب خمّارة في كрдاسة. بلهاء. كрдاسة هذه كلها إخوان مسلمين. وطبعاً لا يمكن يوافقوا على خمّارة. الناس هناك كانت تظنّ أنها محاولة للتمويه على البوليس، وأن كل مَنْ يأتي إلى الخمّارة إخوان مسلمين وإرهابيّين، يعقدون اجتماعاتهم فيها. خمّارة في زقاق جانبي، صعب أن يراها أحد. لكنّ، في كрдاسة سهل أن تُعرَف، لأن المكان أصلاً ضدّ الخمر. الحكومة جابّتهم وحَضَرَتها متّهمة بإخفاء جماعات إرهابية. هي تقول إن الخمّارة كانت خالية لحظة القبض عليها إلّا من شخص واحد، تمّ القبض عليه أيضاً، ولا تعرف أين ذهب. نحن لم نره في النيابة معنا. هي لم تره أيضاً حين عُرضت على النيابة منذُ أسبوع. النيابة حابسها أسبوعين، ولا نعرف لماذا أجّلوا نقلها للسجن. عادة حبس القسم للمحكوم عليه بأربعة أيّام فقط. بعد أسبوع، ستُعرَض مرّة ثانية على النيابة.

وهنا قالت البنت الثالثة:

- هل ستظليّن تحكي لها. ما فائدة هذا كله؟! نحن نريد أن نسمع منها!

قالت الفتاة التي كانت تحكي للمياء:

- معلش. أصلها لا تريدني أن أكمل - وأشارت إلى مَنْ طلبت التّوقّف عن الحديث - لأنها وأنا والثالثة هذه متّهمين في قضية دعارة. نحن نعمل خادّات في مكتب للتّخديم، يرسلنا إلى مَنْ يريد، ننظّف له البيت. لا بيت دخلناه وفيه رجل وحده إلّا ونام مع مَنْ تذهب إليه. واحدة أو اتنين. في البداية كنّا نقاوم، ثمّ استسلمنا. كانت الأمور تمشي بهدوء، إلى أن أقنعتنا هذه، الله لا يسامحها - وأشارت مرّة ثانية إلى مَنْ طلبت التّوقّف عن الحديث - أن نشغل أيضاً في الدعارة. قالت إنها تعرف واحدة ستّ، عاملة شقّتها بيت دعارة في شارع جامعة الدول العربية.

وجدنا الدعارة لِيَّهَا أجر مستقلّ، وكبير عن الأجر الذي كُنَّا نأخذه من الخدمة والدعارة معاً. قلنا ماشي. لكنّ، ما طوّلناش. كُنَّا نحنُ الثلاثة في وقت واحد في ثلاث غرف. الرِّجَالُ الذين كانوا معنا خرجوا من مديرية الأمن، ولم يتمّ تحويلهم للنيابة رغم أنهم اعترفوا بممارسة الدعارة معنا. القانون كدا، نعمل إيه؟! يعني إحنا اللي يتعمل فينا، وكمان نتسجن. ما علينا. مقدّر ومقسوم. عرفتينا، يا حلوة؟ إنتي بتعيّطي برضه؟

صرختُ فيهم:

- كفى. لا أريد أن أسمع. اتركنني في حالي.

نظرنَ إلى بعضهنّ، وقالتُ واحدةً منهنّ:

- لا والنبي. شكلها قاتلة قتيل، وجرائمنا لا تدخل دماغها.

صرختُ فيهنّ من جديد:

- لماذا تردنَ أن تعرفنَ سبب القبض عليّ. ماذا سيفيدكنّ؟ أنا تمّ القبض عليّ بسبب الفيسبوك.

نظرنَ إلى بعضهنّ، ثمّ ضحكنَ وهن يلطمنَ وجوههنّ بتمثيل، وقلنَ معاً تقريباً:

- تاني! الفيسبوك تاني. كان معنا بنت أمس، لكن النيابة أطلقت سراحها. خلاص، يا حلوة، وإن شاء الله سيُطلقون سراحك.

ابتعدنَ عنها، وتمدّدنَ على الأرض قريبات من بعضهنّ بينما ظلّت هي جالسة القرفصاء منكمشة على نفسها، تضمُّ ركبتيّهما بين يديّهما. وقفز أمامها سؤال أرعبها:

"ماذا يحدث لو اكتشفت الشرطة أنها ترانس جيندر، وحولوها إلى حجز الرجال؟! ماذا سيفعل المجرمون معها؟! هنا على الأقلّ لو تحرّشتُ بها واحدة، ستستمتعُ، ولو تحرّشتُ هي بهنّ، لن يمانعنّ".

ولعنت البوست الذي كتبتهُ أمس. لم تكن تتوقَّع ذلك أبداً، في طريق عودتها من الكليّة في حوالي الساعة الواحدة، وحين كانتُ تعبر ماكينة الكشف الإلكتروني في محطة مترو الجامعة، تركتُ حقيبتها لتفتّشها أمانة شرطة. كانتُ أمانة الشرطة جميلة بحقّ، ممّا دعاها دون أن تقصد كالعادة أن تنظرَ إليها بعمق، جعل الأمانة ترتبك. سألتها:

- لماذا تنظرين لي هكذا؟! هل تعرفينني من قبل؟!

ارتبكتُ بدورها. قالتُ:

- أبدا. أنا لم أنظر إليك. أنا سرحانة فقط.

في نفس اللحظة رنّ الموبايل داخل الحقيبة رنة قصيرة، وتوقَّفت. سألتها أمانة الشرطة:

- لماذا تتوقَّفت الرنة بسرعة هكذا؟

ارتبكتُ أكثر، ثمّ قالت:

- عادي، أيّ صديق لي أو من أسرتي ليس عنده رصيد مثلاً يريدني أن أكلّمه.

فوجئتُ بأمانة الشرطة تمسك بالموبايل، وتقول:

- وكيف يرنُّ هنا، وفي هذا المكان؟! هنا لا توجد أصلاً شبكة. هل هذا الموبايل ثريّاً؟

زاد ارتباكها، وقالتُ:

- لا أفهم ما تقصدين.

- تستعبطي. متّصل يعني بالأقمار الصّناعيّة، وهذا غير موجود غير مع الإخوان المسلمين أو الإرهابيّين.

امتقع وجهها، وكادتُ تتلاشى من الرعب، وتذكّرتُ ما جرى في الجامعة، لكنها قالتُ بصوت لا يكاد يخرج من حلقها:

- حضرتكُ افحصي الموبايل، ستجدين إني مشتركة في فودافون. وشوفي اسم مَنْ طلبني أخبرك مَنْ هو.

لم تفعل أمانة الشرطة ذلك. دخلتُ على الفيسبوك الخاصّ بلمياء، والذي لا تُفجّل له الباسوورد، ومن ثمّ يفتح بضغطة واحدة عليه. وجدت البوست الذي كتبته لَمياء الليلة السابقة أمامها.

قالتُ أمانة الشرطة.

- مَنْ "دودة وبتنقر" هذه؟

ابتسمتُ وقالتُ:

- لن أكذب على حضرتكُ. أنا. أحبُّ أهزّر.

فوجئتُ بأمنية الشرطة تقرأ لحظات صامتة، ويتغيّر وجهها، ثمّ تسألها:

- بلد ترانس جيندر، أنا لا أفهمها، لكن الضابط سيفهمها. تعالي.

أخذتها من ذراعها، فمشّت جوارها، لا تُصدّق ما يجري، ولا تعرف ماذا سيكون.
أوقفتها أمام الضابط في غرفة البوليس. حدّثتُ أمنيّة الشرطة الضابطَ بصوت
هامس بعد أن اقتربتُ منه، وتركتُ في يده الموبايل، فراح بدوره يقرأ البوست
والتعليقات عليه. كانت التعليقات قد زادتُ جدّاً، وكلها سُبُّ في الحكومة والنظام
الحاكم، وتصفه بالشذوذ.

- أعطني رَقْمَك القومي.

أعطته الرّقْم القومي، وانهارتُ جالسة دون أن يطلبَ منها ذلك. امتلأ جسمها
بالعرق. قالتُ:

- أنا لا أفهم شيئاً ممّا يحدث، حضرتك!

قال:

- ولا أنا. ساعة وستفهمي، يا حلوة.

وحُمِلتُ في سيّارة الترحيلات وحدها إلى مديرية أمن الجيزة.

حقّق معها أمين شرطة، كان قد تسلّم الموبايل وخطاب صغير مغلق مع سائق
العربة. سألتُهُ:

- ماذا فعلتُ، ليحدثَ لي هذا كله؟

نظر حوله، ولم يكن هناك أحد في الغرفة، فهمس لها بعد أن اقترب منها بوجهه، وهي جالسة أمام مكتبه:

- أنا عمري ما فعلتُ ما سأفعله معكِ. أولاً أنا غير فاهم ما كتبه ضابط محطة المترو لنا، ولا ما كتبتيه أنتِ على الفيسبوك. أنا لن أحرّر المحضر معكِ. سأنتظر الضابط وهو في الشارع الآن، وسأحكي له، وقد يفرج عنكِ دون حتّى محضر.

وتراجع إلى الخلف، وهو يقول لنفسه "بلد ترانس جيندرا! هو إحنا طايلين نبقي إنجليز؟"

وضعتُ هي رأسها بين يديها، وكادت تضحك غير متخيّلة ما يقول، لكن دموعها كانت على خديها. قال أمين الشرطة:

- لكنّ، أنا آسف، مضطّرّ أضعكِ في حجز النساء حتّى يأتي الضابط. لن يتأخّر. ساعة زمن أو ساعتين.

كان هناك موبايل صغير مع فتاة من المحبوسين. أخرجته، ونظرتُ فيه، وقالت:

- الساعة الخامسة الآن. أتى موعد النيابة، لكنّ، لا أحد جاء ليأخذكِ إليها.

لم تردّ لمياء. كانت تنظر إلى موبايل الفتاة مندهشة، فقالت الفتاة:

- خبّأته في مكان، لا يصلون إليه في جسمي. تحبّي أشرح لك؟

لم تردّ. قالت الفتاة:

- كان نفسي أساعدك تتصلي بأحد من أهلك، لكن، للأسف الشبكة مقطوعة في الغرفة رغم أنها في الخارج.

كانت قد قطعت الوقت كله بينهن صامته. أحسّت أنها في مكان، لا هو أرض ولا بحر. وفي زمان، لا هو ليل ولا نهار. استسلمت، واشتأقت إلى أصوات الموتى التي لم تعرفها، والتي تسمع عنها من الكبار، إنها إشارات ممن أحبهم أو أحبهن الشخص الموشك على الموت تظهر في الفضاء. هكذا فعل جدّها وهو على فراش الموت. هكذا حكّت أمّها عنه، وكيف كان يرّد أسماء نساء، لم تعرفهن زوجته "جدّتها" حتّى إنها كادت تغضب منه وهو غير مدرك أين هو ومن حوله. إحدى الجارات قالت لجدّتها "ما دام ما تعرفيهومش ما تزعليش. دول أكيد الملايكة وهو بيديهم أسماء نسوان وخلص" كانت تسمع هذه الحكايات من أمّها وهي تتحدّث مع بعض صديقاتها. هي لم تر جدّها. له صورة في البيت، يبدو فيها مثل باشوات زمان. شاربه طويل قوي، وشفتاه عريضتان، وجلبابه البلدي أنيق، وفوقه بالطو أكثر أناقة، يذكّرها بزكي رستم في فيلم "الفتوة". جدّها أيضاً كان تاجر خضار في روض الفرج. لم يُنجب صبياناً. بنتان فقط، وأخوته الرجال اغتصبوا حقوقهما في الميراث، كما تسمع أمّها تتحدّث دائماً. لكنه علّم بنتيه. فأُمّها متخرّجة في كُليّة الآداب قسم اللغة الإنجليزية. لا تعرف لماذا رأنها يوماً تجمع كل الكُتب التي كانت تقتنيها في بيتها، تعطّيها لفراش المدرسة، لبيعها في سوق الأزبكية، وصارت بعد ذلك تتردّد على مسجد السيّدة زينب طول الوقت. أمّها لم تبلغ الخامسة والأربعين بعد، لكنها فجأة صارت تعتبر أن القرآن الكريم فيه كل شيء. فيه القصص والمسرح والسينما وكل الملذّات الرُوحية، وتركت عملها كمدرّسة في مدرسة السنية الثانويّة للبنات القريبة من بيتهم في حيّ السيّدة زينب. صارت إذا خرجت من البيت تخرج إلى مسجد السيّدة، وإذا عادت لا تترك القرآن من يدها معظم الوقت. أبوها لم يعترض على

ذلك. هي تدرك أنه وجد فيها فرصة أن تنشغل عنه، ولا ينشغل بها. من الذي فعل بأُمِّها ذلك؟ لا تعرف، ولا تستطيع أن تسألها. أُمُّها تقول لها ولأختها أنا أعَلِّمكما، لا لأيِّ سبب غير أن تجدا عريساً مناسباً، لكن، بعد الزواج، ليس لكما إلَّا البيت. شاهدتُ أُمِّها وأباها يتابعان أحداث ثورة يناير في التلفزيون في كل القنوات الأجنبية، لكنهما كانا يعتبران أنها كلها قنوات كاذبة، وقناة ماسبيرو فقط هي الصادقة، وأن من في الميدان عملاء لدول أخرى، يريدون خراب البلاد. لكنها رأت أُمِّها وأباها يجريان إلى الاستفتاء على التعديلات الدِّستوريَّة أوَّل مرَّة في مارس عام 2011. لم تكن تعرف معنى ذلك. ورأت أُمِّها وأباها يجريان على الانتخابات في العام التالي لانتخاب محمَّد مرسي مرشَّح الإخوان المسلمين. في الحقيقة أحسَّت أن أباها، تخلصاً من النقاش، يقول لأُمِّها إنه سيفعل مثلها. لقد أقسم لها أنه انتخب مرشَّح الإخوان. وحين تركتُ أُمِّها، ودلفتُ إلى المطبخ لعمل فنجان من القهوة، سمعتهُ "لمياء" يقول لنفسه "ربِّنا يغفر لي، أنا باحلف كذب علشان ما ازعلهاش. إخوان إيه اللي حيخربوا البلاد دول!" ثمَّ تقدَّم إلى أُمِّها وهي تأتي حاملة القهوة، يقول في فرح: "أجمل قهوة دي، يا أُمِّ لمياء علشان أكيد مرسي حينجح" وسمعتهُ من جديد بعد أن تركتُ أُمِّها إلى دورة المياه، يقول لنفسه "الله يخرب بيت مرسي على شفيق على الثورة واللي عملها. كان ماله مبارك؟ ما كنَّا عايشين مزقطين" ولمَّا رآها تبتسم، انحنى إليها، وقال لها "سمعتيني، يا لمياء" لم تردِّ، وابتسمت. قال لها "حاديكي عشرة جنيه من ورا ماما، بس أوعي تقولي لها. أُمُّك مجنونة حتخرب الدنيا". هذه الأحاديث كانت صعبة عليها، ولا تعرف لماذا تتذكَّرها الآن. لا تعرف لماذا تتذكَّر دهشتها من اتِّفاق أُمِّها وأبيها عليها أن لا تخبر أحداً بما تشعر به، وأن كل ما تشعر به أوهام نَفْسيَّة، وأنها بنت ناضجة جميلة، لكن، معمول لها عمل، ستفكُّه أُمُّها بزيارتها للسَّيدة زينب. ذبح أبوها بقرتَيْن في شهرَيْن متعاقِبَيْن، باقتراح من أُمِّها من أجلها، ووَزَّع لحمهما على فقراء ميدان السَّيدة. هي لم

تُخبر أباها قطُّ بما تشعر به، ولم تُحدِّثه عن ارتباكها واكتئابها. لم تفسِّر له ما اعتبروه في المدرسة تحرُّشاً بالفتيات رغم أنها رأته وقتها مرتبكاً حائراً فيما عرفه عنها. كل حديثها كان مع أمِّها، ولا بدَّ أنها تنقله إليه. كلَّما سألتها أمُّها عن مشاعرها الآن بعد الذبائح التي ذبحتها للفقراء وبعد التوبيخ الذي توجَّه بها به دائماً تقول يائسة "خلاص، يا ماما. الدورة الشهرية تأتي لي بانتظام مثل كل البنات. حقاً كنت أوهام!" منذُ أجلسوها بالبيت، تُكمل فيه التعليم حتَّى تحصل على الثانوية العامة، لم يعد أحد يتحدَّث في المسألة.

في إحدى المرَّات منذُ ثلاث سنوات، ذهبتُ أمُّها إلى العمرة وحدها، لأن أباها ليس لديه وقت. تجارته تحتاج وجوده في هذا الكساد الذي فعلته الثورة كما يقول. كانتُ هناك سيِّدة تأتي مرَّة كل أسبوع لتنظيف البيت. غيَّر أبوها موعدها، وجعله الأحد، وليس الجمعة. إجازته يوم الأحد كما يحدث في معظم محلَّات منطقة معروف. كانتُ هي وأختها في المدرسة قبل أن يُجْلِساها في البيت. عادتُ مبكِّرة عن موعد رجوعها، لأن ناظر المدرسة مات في مكتبه. لقد أغلقوا المدرسة حِداداً عليه قبل موعد نهاية اليوم الدِّراسيِّ. فتحتِ الباب، ودخلتُ إلى الصالة، فسمعتُ صوت أبيها من غرفة نومه يقول بصوت عالٍ "مين؟" قالتُ "أنا لميا، يا بابا. الناظر مات، وروَّحونا بدري" سمعتُ صوت امرأة من داخل الغرفة تقول "يا نهار اسود" وقفتُ هي في الصالة متخشيبة، وسمعتُ صوت التليفزيون في الغرفة فجأة يرتفع عالياً. دخلتُ غرفتها، وجلستُ على السرير ذاهلة، لا تعرف ماذا تفعل. لحظات وجاءتُ فتاة في العشرينيات من عمرها، هي ابنة الخادمة التي كثيراً ما تأتي معها، جميلة جدّاً، وكانتُ أمُّها تهاديه بنقود كثيرة، وتقول بعد أن تنصرف البنت مع أمِّها "زمن وحش يخلِّي بنت زَيِّ القمر تشتغل خدَّامة في البيوت!"

سألْتُها الخادمة الجميلة:

- عايزة حاجة، يا حبيبتى، قبل ما ادخل المطبخ أنظّفه.

لم تردّ. ظلّت تنظر إليها.

لم تُخبرُ أمّها أبداً بما شعرتُ به، وحين رأتُ أباهُ يجاري أمّها فيما تفعل أو تقول، أدركتُ مع الوقت أن له حياةً أخرى، ولا يريد أن يشغل باله. هو سعيد في الخارج، ويأتي سعيداً إلى المنزل، فتظنُّ أمّها أنه سعيد بالعودة إلى البيت، لكنه لا يستغرق غير نصف ساعة، يأكل فيها، إذا كان جائعاً، ثمَّ يدخل لينام ويرتفع شخيره. سمعتُ أمّها تتحدّث في التليفون مرّةً مع أختها "خالتها هي" وتقول إنه دائماً يأتي متعباً، وينام ويشخر كثيراً، ولم يكن يشخر منذُ تزوّجته. عرفتُ من الإجابات أن خالتها تقول لها إنه العمر. أبوها في الخمسين. هي كانت تعرف أن الرجال لا ينتهون من النساء في الخمسين. رأتُ أفلاماً كثيرة في التليفزيون عن الخيانة، أبطالها عواجيز، وقرأتُ على الإنترنت كثيراً من ذلك. وكان بين المدرّسين الذين يتعاقبون على البيت، يُدرّسون لها بعد أن أبعدها عن المدرسة مدرّس في السّتين من عمره، تحرّش بها مرّة، فهدّدته بالفضيحة. بعدها أخذها من قصيرها، واعتذر عن تكملة العمل بالدروس. أدهشها حقّاً أن يمارس أبوها الجنسَ مع خادمة، ولديه دنيا واسعة. لكنّ، بعد تحرّش المدرّس العجوز معها، أدركتُ أن غريزة الحيوانات قوية أيضاً في البشر. يُدهشها دائماً لماذا لم يفكّر أبوها، وهو الميسور الحال، بعرضها على طبيب متخصص في حالتها التي أصبحت على يقين منها، وكيف تفكّر في ذلك الآن، ويبدو أنهم نسوها هنا في مديرية الأمن؟! هكذا قالتُ لها المرأة المتهمة بقتل أبنائها في استغراب قائلة "يعني ما عملوش محضر ليكي؟! طيّب، سايبينك هنا ليه؟! وإيه الطابط اللّي ما جاش لحدّ دلوقت دا علشان أمين الشرطة يعرض عليه

القضية؟! " لكن الباب انفتح، ودخل أمين الشرطة الذي استقبلها من قبل، وقال لها:

- تعالي، يا قمر.

نهضتُ مسرعة، كأنه الغيث جاءها. خرجتُ في خطوات سريعة ناسية حقيبتها، فصرختُ فيها الفتيات "خذي شنطتك" عادتُ، وأخذتها. في الطريق إلى مكتب الضابط، قال لها أمين الشرطة "امسكي نفسك. بابا هنا" أغمضتُ عينيها، ولم تستطع قَدَمَها حَمَلَهَا، فتهاوتُ مترجحة على الأرض فاقدةً وعيها. دقائق أو ساعات لا تدرك بالضبط، ووجدتُ نفسها ممددة على كنية طويلة في غرفة الضابط، وقد غطوها بملاءة، لا بدَّ أحضروها من الحبس. رأت الضابط شاباً خلف مكتبه، وأبأها أمامه. كان أبوها يجزُّ على أسنانه في ضيق رهيب. قال له الضابط:

- أرجوك، إمسيك أعصابك، يا حسين بيه. نحنُ لم نهنُها، ولم نضايقها. يمكن لك أن تأخذها بهدوء إلى البيت، وأرجوك أن تعاملها معاملة طيبة. ما وجدناه على الفيسبوك لا يستحقُّ أيَّ محاسبة. وأنا آسف؛ تأخرتُ في مهمة في الشارع، فلم أتصل بك إلا بعد عودتي. عرفتُ إنها بنتك من اسمها وعنوانها في بطاقة الرِّقْم القومي. بالمناسبة، لا تعتبر هذا كرمًا مِنِّي. لقد تحدّثتُ مع مدير الأمن هنا، فوافق. قال لا نريد مظلومين. أقول لك هذا لتعرف أن لدينا عدلاً.

وأرسل الضابط أمين شرطة لشراء علب مشروبات مانجه وتَفَّاح وجوافة، وقال لأبيها "بعد أن تشرب علبة أو اثنتين، سيكون لديها القوّة أن تقف وتخرج معك". لكن الذي حدث أنه حين تقدّم أبوها إليها بعلبة تَفَّاح، أشارتُ بيدها أن لا. قال له الضابط "دعني أنا أعطيها لها". وحين تقدّم إليها بالعلبة، أخذتها وشربتها

وابتسمتُ، وطلبت الثانية. قال الضابط:

- يا حسين بيه، ابنتك تحبنا، وتبدو تريد أن تعمل معنا.

وضحك بينما ابتسم أبوها، وأخذها إلى البيت. مشت المسافة القليلة إلى الشارع والليل نائم فوق المنطقة وعلى الطُرقات، وفكرتُ لو طلع النهار، وحملها جنُّ إلى السماء بعيداً عما يمكن أن ينتظرها في البيت من أمِّها. جعلها أبوها في المقعد الخلفي، وقال لها "نامي ومَدِّدي ساقيكِ حتَّى ترتاحي." وعند باب البيت، وقبل أن تصعد معه، قال لها:

- لن أخبر ماما بشيء. غداً ستكونين في قوَّة أكبر، وتستطيعين أن تشرحي لها الأمر أو حتَّى تدافعي عن نفسك، إذا أحببتِ لها أن تعرف، وأنا لا أنصحكِ بذلك. وإذا سألتُ ماما لماذا تأخّرتِ اليوم، سأقول لها إنكِ مررتِ عليّ في المحلّ، وحجزتُكِ معي طول النهار. سأقول لها لقد بعثُ كثيراً جدّاً من قِطَع الغيار اليوم رغم أنني لم أبغ شيئاً. المهمّ أن لا تشعري بالخوف حتَّى لا تصيبي نفسك بأيّ أذى. أنا لن أترككِ، وسأعالجكِ ممّا أنتِ فيه، وسامحيني، وسأقتل أمكِ لو رفضتُ تحتَ دعوى الحرام، وأن لا نتدخّل في إرادة الله.

شملها الفرح، وكادت تُقَبِّل أباهَا على السُّلَم، بل وكادتُ تزغرد، واتَّسع بها المكان. ليس لأنه سيخفي الأمر عن أمِّها، لكنّ، لأنه سيعالجها. لماذا فكر في ذلك الآن فجأة هكذا؟ ليس مهمّاً أن تعرف. لكنها حين دخلتُ غرفتها، وألقتُ بنفسها فوق السرير، فكرتُ أن يكونَ ذلك فخاً صنعه لها أبوها، ثمّ قالتُ لنفسها "كلمة ترانس جيندر تفعل هذا بي؟! لو عرفوا أنها حقيقة، ماذا كانوا سيفعلون؟!"

لم يكن وجودها في البيت لثلاثة أيّام تالية حُكماً عليها من والدَيْها. لم يذكر أبوها شيئاً ممّا جرى لأُمّها حقّاً، وظلّ ذلك يُدهِشها جدّاً، ويُربكها، لأنها لا تُصدِّقه، وتنتظر أن تنفجر فيها أمُّها لحظة ما. لكنها أخذتْ أختها إلى حجرتها وقت القيلولة وأمّها نائمة، وقرّرتْ أن تحكيَ لها ربّما تنسى قلقها. قالتْ:

- رانيا، يا حبيبتى، لديّ كلام كثير، أريد أن أقوله لك. أنتِ أختي الصغيرة حقّاً، لكنّ، لا بدّ من أحد أفكُ نفسي معاه. أيوه أنا يمكن أن يحدث لي شيء سيّئ.

قالتْ رانيا الجميلة الهادئة:

- أنا أيضاً أريد أن أسألكِ ما الذي يجعلكِ لا تذهبين إلى الجامعة.

- اتركي موضوع الجامعة الآن. في الكلّيّات النّظريّة، لا يوجد غياب وحضور.

- طيّب، قلّلي لي ما الذي يشغلكِ ويُتعبُكِ هكذا؟

سكتتْ لمياء لحظات، وقالتْ:

- هل سمعتي أبي يحكي شيئاً عنيّ لأُمّي؟

اندهشتْ رانيا لحظات، وقالتْ:

- أجل. سمعتهُ يقول لها لا بدّ أن نهتمّ بلمياء، ونرى ما الذي يُتعبُها ونساعدُها.

لمياء بنتنا الكبيرة، وأزمتها حقيقة.

سكتتْ لمياء لحظات وهي تنظر إليها، ثمّ سألتها:

- وهل تكلم عن أزمتي أمامك؟

- لا. طلب مني الدخول لغرفتي.

- وأنا أيضاً لن أحكي لك، لأنك صغيرة. أصغر مني بعامين حقاً، لكنها في هذا الزمن تساوي مائة سنة.

- طيب، فيم تريدني؟

- أنا لم أكن مع بابا في المحلّ. أنا كنتُ في مديرية أمن الجيزة.

- يالهوي! ماذا تقولين؟

أشارتُ إليها بإصبعها السّبّابة أن لا ترفع صوتها. وسكتت لحظة، ثمّ قالت:

- قبضوا عليّ وأنا داخلة إلى المترو.

تساءلتُ رانيا في دهشة:

- لماذا؟

- لا أعرف. أمينة شرطة فحصت الموبايل، ووجدتُ فيه كلاماً أزعجها.

انفتحتُ عينا رانيا إلى آخرهما غير مُصدّقة، واستمرّت لمياء تحكي:

- كنتُ كاتبة الكلمة دي.

وفتحت الموبايل تريها لها، فلم تجدها. هزّت رأسها، وقالت:

- إذن، حذفها الضابط.

- أيّ كلمة؟ قلّة أدب مثلاً؟

- لا أعرف. اعتبروها سياسة.

- طيّب، ما هي؟ قولها لي حتّى أنتبه، ولا أقع في الغلط.

سكتت لمياء لحظات، ثمّ قالت:

- هل تسمعين عن رجال يعشقون بعضهم؟

اشتعل وجه رانيا من الخجل. فقالت لمياء:

- لا تخجلي. أنا فقط أسألك.

ابتسمت رانيا ساخرة:

- مَنْ لا يعرف هذا الكلام الآن؟! الإنترنت كلها بلاوي. خولات وسحاقيات وبتوع عيال كمان.

- يَخْرِبُ بَيْتِكَ، ماذا تقولين؟

- هل تظنّيني بلهاء؟! لا يوجد أبله غير أهاليها الآن. أنا في أولى ثانوي، يا هانم.

نظرت إليها لمياء غير مصدّقة لحظات طالت، ثمّ اندفعت تأخذها في حضنها،
وثرّبت على ظهرها، وقالت رانيا:

- قللي لي ماذا كتبت؟

قالت لمياء مبتسمة وهي تُبعدُها عنها، وتأمّل عينيها الخضراوين:

- نحنُ الاثنان عيوننا خضراء. لا ماما ولا بابا عيونهما خضراء.

ابتسمتُ رانيا، وقالتُ:

- ربّنا لمّا يريد. ماما دائماً تقول هذا. لكنّ، لم تقولي ماذا كتبتِ؟

سكتتُ لمياء تفكّر قليلاً، ثمّ قالتُ:

- كتبتُ إن دي بلد الزبالة.

- يانهار إسود. ومش عايزاهم يقبضوا عليكِ. الحمد لله انهم تركوكِ.

ابتسمتُ لمياء، وقالتُ:

- كنتُ أقصد زبالة الشوارع فقط، لكنّ، هم أخذوها سياسة.

- طيّب، قولي لي كيف تركوكِ؟!

- صعبتُ على الضابط، وظهر أنه يعرف بابا. بابا قال لي إنه زبون عنده، وإن باباه أيضاً صديقه منذُ أيّام الدراسة.

- طيّب، الحمد لله. لكنّ، انتبهِي، الله يخلّيكِ.

ضحكتُ لمياء؛ وقالتُ:

- سأكتب على الفيسبوك مصر حلوة أوي، وبالليل بعد أن ينام الناس الدنيا بتشّتي عرائس من السما، ترقص في الشوارع.

ضحكتُ رانيا، وقالتُ:

- لكن، لماذا لا تضيفيني بين أصدقائكِ على الصفحة؟

- صفحتُكِ كلها أدعية، يا رانيا. أنا أحبُّ التسالي.

- ماما عملتُها لي، وكل يوم تسألني عن الدعاء الذي أنزلتُه عليها، وتشوفه.

اندهشتُ لمياء، وسألتُها:

- وهل تحفظين أدعية كثيرة؟

- أجدها في الإنترنت. آخر دعاء كتبتُه أمس. يا ربَّ خُذْ كل الناس البيضان!

هتفتُ لمياء وهي غارقة في الضحك:

- يا نهارِكِ إسود.

- آه، والله، وماما غضبتُ مِنِّي، وضربتُني قلم جامد، وشرحتُ لها أن كل البنات بتقول الكلمة دي دلوقت، وأنا لا أعرف غير أنها سخرية، ولم تُصدِّقني.

- أريني صفحتكِ.

سكتتُ رانيا لحظات، وقالت:

- بصراحة، أنا ليَّ صفحة ثانية، ليستُ باسمي. كاتبها باسم سعاد حسني. أرسلتُ لكِ منها طلب صداقة أمس. ليتكِ تقبلينه.

تناولتُ لمياء الموبايل الخاصَّ بها، وبحثتُ عن صفحة أختها، فوجدتها كلها مشاهد من أفلام سعاد حسني وعمر الشريف وأحمد مظهر وشكري سرحان وغيرهم من الممثلين، فقبلتُ صداقتها على الفور، وقبَّلْتُها على خديَّها، وقالت:

- إِيَّاكِ تخبري ماما بما جرى لي.

وقفت رانيا، وقالت:

- أنا نسيْتُ، لكن، متأكّدة أنك لم تقولي لي الحقيقة. أنا خارجة أستحمّ، وأغيّر الأولويز.

لكنها عند الباب استدارت، وسألتها بصوت خفيض:

- سؤال محيّرني، يا لمياء. كيف أني أصغر منكِ وThدياي أكبر من Thديكِ؟! هل هذا طبيعيّ؟!

ارتبكت لمياء، وحملتُ فيها بعينيّها، ثمّ قالت:

- اخرجي، يا مجنونة. اخرجي.

خرجت رانيا تضحك غير مدركّة ما فعلتهُ في أختها.

كان هذا هو الحديث الوحيد لها في اليوم الأوّل في البيت. تحاشت الخروج من الغرفة، ما دامت أمّها لا تدخل إليها. هي لا تعرف لماذا تجاهلتها أمّها هذا التجاهل! إنها حتّى لم تسلّها لماذا لم تذهب إلى الجامعة واليوم هو الاثنين، ليس الجمعة ولا إجازة من أيّ نوع. كان النهار يمضي في متابعتها للفيس بوك. أعادت ما كتبتّه وهي تشعر بالظلم الذي وقع عليها. تركت قراءة التعليقات، وراحت تتصفّح بوستات الصفحة العامّة. ليس لها أصدقاء كثيرون. ألفان. لكنّ تعليقات بعضهم تكفي. ليس كل مَنْ له حساب على الفيسبوك يدخل إليه كل يوم. لكنها راحت تقلّب على الإنترنت، تبحث عن الدكتور مختار صابات. وجدت

صفحته، ولدهشتها لم تجد تعليقات كثيرة عليها من المرضى. هل ذلك لقلة شهرته أم لكون المترددين عليه من أصحاب الأمراض النادرة؟! أغلب الظن أن هذا هو السبب. إنهم يحاولون الاختفاء عن الناس. فتحت اليوتيوب على موسيقى عالمية. أجل. هي لم تتعود عليها. أحبت الطرب العربي، وتعودت عليه، لكن، ماذا يمنعها أن تستمع إلى موسيقى من كل العالم. وتركت نفسها تنام على ظهرها فوق السرير، وتقرأ في رواية "إني راحلة" من جديد. قرأت صفحاتها الأخيرة. ابتسمت، لأنها لا تذكر أنها أصلاً قرأت كل صفحاتها. أنهت الرواية، وأغلقتها. وضعتها تحت الوسادة، ومالت على جانبها باسمه تقول لنفسها، يا رب، حلم حتى ولو إلى تحت الأرض. واستسلمت لموسيقى شهرزاد لريمسكي كورساكوف. لا تدرك هل أغمضت عينيها أم لا، لأنها رأت نفسها في جزيرة يمشي فيها الناس عراة، وفي يد كل منهم أسد أو نمر أو ذئب أو ثعلب. الناس ليس لهم عورات ظاهرة. يتقابل الاثنان، فيقفان يتحدثان، ويترك كل منهما الحيوان الذي في يده، فيقترب الحيوانان من بعضهما، ويبدأ كل منهما في مسح رأسه في جسد الآخر، ثم يمسح جسده، والآخر يدور حوله يمسح جسده فيه أيضاً، وصاحبا الحيوانين ينظران إليهما في دهشة حتى يقفز حيوان منهما على الآخر، ويضاجعه ويقضمه بأسنانه قضمات هادئة، ويصدر كلاهما أو الأنثى منهما صوتاً مكتوماً باللذة أو الألم، لا تدري، لكن القضة لا تترك فيه أثراً. ثم يمشي الرجلان، كل منهما في طريقه بعد أن يأخذ الحيوان في يده. الأمر يتكرر حتى إذا قابل رجل امرأة يتحدثان، ويتركان الحيوانات تمارس الحب والجنس حتى ينتهي الحديث. نزل الليل على الجزيرة، فرأت الناس كلها تدخل بيوتها الخشبية، وتترك حيواناتها أمامها دون قيود، ويجلس الرجال مع النساء يضحكون، ويقبلون بعضهم قبلات طويلة، وينامون. سمعت امرأة تسأل رجلاً وهي تنام في حضنه "ما هذا الذي في الحيوانات، وليس عندنا؟" قال الرجل "كيف لا تعرفين؟ إنه عضو زائد عند الذكر، يضعه في فتحة للأنثى، وهي

تستمتع جدّاً” سألتُهُ “أعرف، لكن، ما هي فائدته؟” قال وهو يضحك “إنه طريقة التناسل عند الحيوانات. تتحدّثين كأنك من جزيرة أخرى” سألتُهُ “هل هذا معقول؟”. أجاب “لا تفسير غير ذلك، وإلّا كيف تحمل وتلد؟! هل نسيتي صديقنا “مرّحال” الذي تاه في البحر، فنزل بلدّاً، للرجال فيها كما الحيوانات أعضاء يضعونها في النساء، فتحمل وتلد؟ هذه الحيوانات مثلهم “شردت المرأة، وسألتُهُ “ولماذا نحن هنا لسنا كذلك؟” قال “حُكم الله. جعلنا بدون أعضاء. مجرّد فتحة للبول والفضلات في كلّ منّا، لا تتّسع، وأنعم علينا بالخلود، فلا حاجة للبنات والبنين. هذه جزيرة الشباب الأبدي”. شردت المرأة أكثر، ثمّ قالت “نفسي أتوه في البحر مثل مرّحال، وأرى هذه البلاد، وأجرب العضو الذي تتحدّث عنه. مؤكّد هو أحلى من القبلات التي نعيش عليها” قال ساخراً “أنتِ مجنونة. لو ذهبتِ إلى هناك، سيقولون عنك جيّنة، أتتْ لتُنهي على طاقتهم الجنسية. لن يتحوّلوا إليك، ولن تتحوّلي إليهم، وسيقتلونك. اسألي مرّحال. لقد حاول الهرب منهم حين سأل عمّا يفعلون. أمسكوا به، وأخذوه، ووضعوه في السجن، ولم يعرفوا مع مَنْ يسجنونه. مع النساء أم مع الرجال. احتاروا فيه، فحبسوه وحده حتّى مرّ حاكم البلاد، وقال لهم أطلقوا سراحه، وسأله كيف تعيش في بلد، ليس للرجال فيها أعضاء ذكورية، ولا للنساء أعضاء أنوثة؟! احتار مرّحال، لم يعرف كيف يردّ، فأمر الحاكم بإعطائه بعض أعضاء الرجال، ليعود بها إلينا. ولما سأله جنوده، هل يأتون بها من الموتى؟! قال لا، من المعارضين المعادين لحُكمي. أربعة أو خمسة كعيّنة، إذا أعجبتهم هناك يعود ونعطيه أكثر. أعطوا مرّحال خمسة أعضاء ملفوفة في موادّ حافظة من العفن. وركب سفينته، وعاد، لكن، في نصف الطريق، شمّ رائحة العفن منها، فألقى بها في الماء، فرأى زحاماً عليها من الأسماك، وظلّ طوال رحلته إلينا والأسماك تمشي جوار السفينة في انتظار أن يُلقى إليها بأعضاء أخرى. لقد عاد مرّحال شاردّاً، يخشى حتّى أن يقبّل زوجته، وتربيه دائماً جالساً واضعاً رأسه على كفّيه صامتاً. لم

يُصدِّقه أحد في الجزيرة التي لا تعرف الموت ولا الميلاد، والتي تسعد بالقبلات".

فتحتُ عينيَّها تضحك ممّا رأتُ، وتقول لنفسها لقد مشت الأسماك خلفه طوال الرحلة بعد أن ألقى إليها بأعضاء للرجال، فماذا لو كان ألقى إليها بأعضاء النساء؟! وانتثرتُ جالسة، وأسرعتُ إلى الموبايل، وفتحتُ صفحتها على الفيسبوك، وكتبتُ:

“يا أولاد. رأيتُ حلمًا غريبًا، ولا رحلات السندباد! ولا رحلة أوليس في عودته لإيثاكا! شيء لم يجده حتّى روبنسون كروزو ولا جاليفر. رأيتُ أنني في جزيرة يعيش فيها الرجال بدون أعضاء ذكورة، والنساء بلا فروج، ويمارسون الجنس بالقبلات، ولا يُنجبون، ويعيشون خالدين إلى الأبد، وكلهم شباب زيّ الفلّ”.

وتتالت التعليقات ضاحكة، وقال واحد منها “صاحبة هذا الحلم مسكينة، إمّا أنها امرأة عقيمة أو رجل غير قادر على الجنس ... إذا كنتَ رجلاً، يا أخ، فخذُ فياجرا، وبطلّ الأحلام دي، وإذا كنتِ امرأة، فاذهبي إلى الأقصر، واشتري لكِ تمثالاً لإله الخصوبة عند الفراعنة اتفرّجي عليه. إنه يجلب الخصوبة للنساء والرجال معاً. ويمكن لو كنتَ رجلاً أعزب - أو بنتاً عانساً - أن تذهب إلى معبد الكرنك، تلفّ سبع لفّات حول الجعران المقدّس، فتتزوّج، وتعيش في تبات ونبات”. وقال آخر “أيضاً إذا كنتِ امرأة عاقر، كُلّي سمكة الجرجار. هيّ سمكة وحشة، وطعمها وحش، بس بيقولوا في الأساطير الفرعونية إنها هي التي أكلت عضو أوزوريس الذكري بعد أن مزّقه أخوه إله الشّرّ ست إلى قِطَع، دفنها في أماكن بعيدة متفرّقة، وألقى بالعضو الذكري في النيل. إيزيس الله يرحمها أخته وحبيبته كانت عندها شهوة كبيرة لأخيها أوزوريس، فجمعتُ كل أجزاء جسمه، ولم تجد العضو الذكري، فنفختُ فيه من روحها، وخلّفتُ منه حورس. الذي أكل العضو الذكري هي سمكة الجرجار. علشان كذا النسوان الصعايدة يأكلونها لو تأخّرن في

الحَمْل. سهلة، يا ختشي!"

جلستُ تضحك. هذه والله معلومات جيّدة، تأتي إليها عن التاريخ. تعرف حكاية ايزيس وأوزوريس وست، لكنها لا تعرف حكاية العضو الذكري الضائع هذه. لكنها فوجئتُ بمنْ يكتب "الأخ بتاع (ونفختُ فيه من روحها، هذا كافر). أجل. أكيد بيلقّح بالكلام على سيّدنا عيسى، لأن ستنا مريم ما حدّش نام معاها، ربنا اللي نفخ فيها من روحه. يعني باختصار عايز يقول عيسى أسطورة زيّ حورس، ومالوش أصل في الواقع. حرام عليك، عيسى معترف بيه في الأناجيل كلها، وفي القرآن بتاع المسلمين. يعني كان حقيقة، وبلاش تلقيح، يا كافر".

أغمضتُ عينيّها تفكّر أنه لا بدّ لها من مسح البوست. كل شيء يُفسّده المصريون. كيف صاروا يترصّدون لبعضهم هكذا؟! أجل ستمسح البوست. مَنْ يدري؟! أمانة الشرطة لن تترك مكانها إلّا بعد وقت طويل، ولا بدّ ستفتّش الموبايل، كلّما مرّت أمامها. ستذهب إلى الجامعة كل يوم، وإذا وجدتُ أمانة الشرطة هذا الكلام، عليه العوض فيها! الضابط لن يقوم بخدمة لأبيها كل مرّة. لكنها قامت، وفتحت النافذة، تتفرّج على المطر الساقط من السماء فجأة. ما الذي يحدث في البلاد؟! نحنُ في منتصف أكتوبر. لماذا جاء الشتاء مبكّراً؟! على غير العادة، سمعتُ صوت الرعد، ورأتُ برقاً في السماء، ونزل المطر كثيفاً شديداً. رأتُ في الشارع ولداً وبناتاً يجريان. أين كانا يقفان حقّاً، والساعة الآن الثانية عشرة ليلاً، وليس موعد الخروج من المركز الثقافيّ الفرنسي الذي لا بدّ أغلق أبوابه؟! ضحكتُ وهي تغلق النافذة. هؤلاء هم الذين حمل الشارع معنى ما يفعلون من قبل ... دخلتُ تتمدّد على السرير. كانت الموسيقى تتهادى في الغرفة. لقد تغيّرتُ إلى موسيقى هادئة، فحملتها إلى النوم. ستنتهي وحدها، وسينغلق الموبايل وحده. هكذا قالتُ باسمه وهي تدخل في نوم عميق، وتدعو

الله أن تمرّ الليلة دون أحلام أو كوابيس.

رأتها أمُّها تدخل إلى المطبخ في الصباح بينما هي جالسة في الصالة، تشاهد قناة ميلودي للأفلام القديمة. سألتها أمُّها:

- ألن تذهبي إلى الكُليَّة اليوم أيضاً؟

- أجل. اليوم الثلاثاء محاضرة واحدة، والدكتور إجازة.

ودلفت إلى المطبخ، أعدت لنفسها كأساً من النسكافيه بالحليب، وضعت على صينية صغيرة، ومعه بعض أعواد من البقسماط، وعادت تجلس جوار أمِّها. فوجئت بفيلم "الآنسة حنفي" لإسماعيل ياسين.

ارتبكت. رأت الفيلم من قبل. فيه يتحوّل إسماعيل ياسين إلى امرأة. لم تشأ أن تُبدي ارتباكها، وجلست تتناول إفطارها البسيط. تعرف أن أمِّها تقضي وقتاً طويلاً مع الأفلام في التليفزيون، ويُحيرها أن أمِّها مغرمة بذلك، هي التي صارت متزمتة جداً في المعاملات معها أو مع أختها أو مع أبيها، ولا تترك القرآن من يدها. هذه الشيزوفرينيا لا تعرف لها سبباً. الأمُّ المغرمة بالأفلام القديمة تركت عملها، لأن المرأة مكانها البيت، لا العمل. وهكذا راحت تأكل وتبتسم شاردة عن الفيلم. سألتها أمُّها:

- عاحبك الفيلم. صح؟

هزت رأسها، لأن الطعام في فمها، ولم تقل إنها شاردة في حلمها الليلة الماضية.

سألتها أمُّها:

- أما آن وقت الحجاب؟! عمرك ثمانية عشر عاماً الآن. باباكي الراض للحجاب لكِ ولأختك ماشي على حَلِّ شَعْرِهِ، وأنا عارفة، لكن، مسليمة أمري لله.

تذكّرتُ حديث امرأة المترو لها في عربة النساء. أحسّْتُ بالضيق، ثمّ ابتسمتُ. هي لن تستطيع أن تفعل مع أمّها كما فعلتُ مع المرأة! لكنها فكّرتُ كم جميلة أمّها. عيناها عسلتان واسعتان. رموشها طويلة. حريصة على تهذيب حاجبيها. حتّى في البيت أحياناً حين لا يبدو أن أمّها وضعتُ حمّالات صدر، يبدو نهداها واقفَيْن قويَّين كإعلان للأنوثة. وسطها دقيق، وردفاها مستديران، كأنها نحتُ لفنان موهوب. لم يظهر لها كرش بعد رغم تقاعدها في البيت. قدّماها صغيرتان، وما يظهر من أسفل ساقَيْها وهي جالسة ينمُّ عن ساقَيْن مخروطَتَيْن بروعة. لقد رأتُ أمّها عارية صدفة أكثر من مرّة، لكنها لم تنتبه إلى جمال جسدها غير الآن رغم ما ترتديه من جلباب، ينزل كثيراً عن ركبتيها. هزّتُ رأسها، تُبعد هذه المشاعر العجيبة عنها، واستغفرتُ ربّها في سرّها، ثمّ قالتُ:

- ماما. هل ترينني أقوم بأيّ عمل غير أخلاقي أنا أو أختي مثلاً؟

- لا طبعاً، لكن، قلت لكِ كثيراً إن شَعْرَ رأس المرأة مغري للرجال.

- أنا أعرف كيف أَدافع عن نفسي. أيضاً المتحرّشون أكثر بالمتحرّجات، على أساس أنهنّ لن يتحدّثن. أنا لو تحرّش بي أحد، سأضربه في الشارع. أجل. أنا في قوّة رجل.

وأسفتُ على الجملة الأخيرة، فوضعتُ عينيها في الصيّنة التي عليها النسكافيه والبقسماط أمامها على المنضدة الصغيرة، وضاحتُ بالفيلم، فحملتُ طعامها، ودخلتُ به غرفتها.

سمعتُ أمَّها خلفها تقول:

- طيّبٌ، افطري وتعالى معي إلى السيِّدة زينب. سنصلِّي الظهر هناك، ونشتري كوارع. تمشي معي قليلاً ما دمتِ في البيت.

في غرفتها، أخذتُ تأكل في صمت، وضيق شديد على وجهها. تزيح بيدها خيالات تتكرَّر أمام عينيَّها لأُمِّها عارية أكثر من مرَّة. كل ما تراه في الواقع أو في الخيال يُذكِّرُها بأزمتها. تعمَّدتُ أن تتخيَّل الدكتورة بيدا عارية لتنسى أمَّها. رنَّ هاتفها برَّقَم غير مسجَّل اسمه.

- آلو.

- صباح الخير، أنا الدكتور بيداء.

كأنما استدعتُها من روحها. شعرتُ حقيقة بالفرح.

- أهلاً، يا دكتورة. أنا آسفة، لم أسجِّل رَقَم حضرتك رغم إنه معي في الكارت الذي أخذتُه منك.

- لماذا لم تأتِ إلى الكُليَّة أمس؟

- تعبانة قليلاً. حتَّى اليوم لم أذهب.

- طيّب. أنا يوم الخميس من كل أسبوع لا يكون لديَّ محاضرات. يعني يمكن أن تأتني إليَّ في البيت بالنهار، فيكون لدينا وقت أطول.

- حاضر. حضرتك وحشتيني جدًّا.

انتهت المكالمة وهي تسأل نفسها لماذا هذا الفرح حقاً بمكالمة أستاذتها؟ هل أدمنت السحاق من أول مرّة؟ لا. لا بدّ أنها ممارسة لرجولة مؤجلة. الآن فلتخرج مع أمّها. لا بأس أن ترى ميدان السيّدة زينب، وتصلّي معها في الجامع. ستكون دعواتها أن يعينها الله على كربها، ويلين قلب أمّها، لتُصدّقها، فلا يكفي رضاء أبيها. أو يغفر لها الله ما فعلته مع أستاذتها، ويفتح قلبها أن تساعدنا في حلّ مشكلتها. ومطّ شفتيّها. كيف حقاً تذهب إلى الجامع بعد أن فعلت ما فعلته؟ بسرعة وجدت الإجابة. كل الخطاة يذهبون إلى الجوامع كل يوم. شيزوفرنيا. ربّما. أو أجل. هي تعاني من شيزوفرنيا ماديّة، فلتكن روحية أيضاً.

لم تمضِ نصف ساعة وكانت مستعدّة للخروج، ترتدي البنطلون الجينز، وجاكت خفيفاً فوق البلوزة. أمطار الليل ربّما تبعها برد اليوم. برد حقيقي حتّى لو كان خفيفاً.

نزلت من البيت مع أمّها التي ترتدي الجلباب الواسع الغامق الأنيق رغم ذلك، وقد جعلت حول وجهها حجاباً أنيقاً أيضاً، فيه كثير من العناية. ما إن نزلتا من البيت حتّى قالت أمّها:

- الأفضل نركب العربة رغم أن المسافة ليست بعيدة. قد تُمطر من جديد.

كانت السيّارة قريبة على بُعد خطوات مركونة إلى الحائط عند نهاية الشارع الضيّق. بالضبط تحت اللافتة القديمة التي كانت مكتوبة بالطباشير باسم الشارع الغريب. مشيتا عدّة خطوات، وركبت أمّها العربة بعد أن نظرت إلى مكان اللافتة الذي صار خالياً إلّا من بقايا قليلة من الطباشير باهتة، لا توضح شيئاً. كان عليها أن تنتظر حتّى تدير أمّها العربة، وتبتعد بها عن الجدار حتّى يمكن أن تفتح الباب. حدث ذلك بسرعة، وما إن جلست جوار أمّها حتّى راودها الشيطان

أن تتخاثر على أمِّها، فابتسمتُ، وسألتُها:

- لماذا كنتِ تنظرين أعلى الحائط؟

قالت أمُّها بضيق:

- حدّ وسخ كان كاتب كلام وسخ، واتمّسح. خفتُ يكون انكتب من جديد. أنا كنتُ لا أستطيع ركن السيّارة هنا بسبب ذلك الكلام.

لم تستمرّ أو تسألها عن الكلام. سكّنتُ، فقالت أمُّها:

- أكيد رأيته؟

قالت وقد تظاهرتُ بالشرود:

- لا أتذكّر.

- لا. أكيد رأيته. عادي في أيّامنا السودا. الفيسبوك مليان بلاوي. أختك رانيا التي أرهقتُ عقلي وقلبي، أعلمها الدّين والقرآن، كتبتُ كلمة "بيضان" على صفحتها أمس.

ارتبكتُ جدّاً، واستمرّتُ أمُّها:

- الصراحة حلوة، يا لمياء. لن أكذب عليكِ وأتظاهر بالجهل عمّا حولي. المهمّ لا تندفعي في هذا الكلام. أختك أقسمتُ أنها لا تعرف معنى الكلمة، وتظاهرتُ أنني صدّقْتُها بعد أن صفعْتُها على وجهها.

قرّرتُ أن تحوّل الحديث بعيداً، فتساءلتُ:

- جميل أننا سنشتري كوارع. أنا منذُ وقت طويل نفسي في الفتّة.

- سأطهو الكوارع وفتّة وممبار، وكمان عكاوي، يمكن ربّنا يهديه.

سكتتُ. هي تعرف أن العكاوي يأكلها الرجال، لأنها تعطيهم طاقة جنسية. لم تُعلّق، ولم تتظاهر أنها لا تعرف ذلك، لأن أمّها لن تُصدّقها، لكن أمّها قالتُ منفعة واضحة:

- وسأشتري له أيضاً بيضان.

وضعتُ لمياء يدها على فمها تُوقِف ضحكها الذي كاد ينطلق، فقالت أمّها:

- مخاصي يعني. لا تندهشي من كلامي. أنا طهقتُ من أبيك.

سكتتا. هي لم تتعوّد أن تسمع شكوى من أمّها، ولا تحبُّ أن تدخل فيما بينهما من خلاف. هما حقيقة لا يبديان خلافاً أبداً أمامها أو أمام أختها. أمرُ أمّها اليوم غريب!

كانتا قد قطعتا الشارع، واستدارتُ أمّها مع سور سكة حديد المترو، ودخلتُ إلى شارع المبتديان، ومنه إلى ميدان السيّدة زينب. خمس دقائق فقط في الطريق، ووجدتُ أمّها مكاناً لركن السيّارة، ونزلتا معاً.

قالت الأم:

- لن ننتظر صلاة الظهر. سندخل الجامع الآن، نصلي ركعتين شكر، وندعو ربّنا يزيح عنا أيّ كرب. سأدعو ربّنا يهديك، ويزيح الأفكار السوداء عن عقلك، ويوعدك بابن الحلال، تنجيبين منه، وتعرفين أنكِ أنثى، يتمنّاها كل الرجال، ثمّ نشترى ما نريد، ونعود إلى البيت.

كادتُ تصرخ في وجه أمِّها أن تتركها تعود إلى البيت أو تذهب إلى أيِّ مقهى. ما دامتُ لا تنسى ما هي فيه، لماذا لا تساعدنا بدلاً من النصائح والأوامر الزائفة؟ لكنها تماسكتُ، وأغمضتُ عينيَّها، ومشيتُ معها.

عند باب المسجد، قالتُ لأمِّها:

- أنا آسفة، يا ماما. أنا لن أستطيع الدخول. ربِّنا لن يقبل صلاتي.

نظرتُ إليها أمُّها في دهشة، فقالتُ:

- عندي البيرود.

أغمضتُ أمُّها عينيَّها لحظة، ثمَّ قالتُ:

- لماذا لم تقولي ونحنُ في المنزل؟

- شعرتُ بها تنزل الآن. سأنتظركِ هنا أمام الباب.

- طيِّب، أنا لن أتأخَّر. لن أجلس. سأصليَّ بسرعة ركعتين، وأقف أدعو أمام السيِّت الطاهرة، وأرجع بسرعة. لا تتحرَّكي من مكانك. أو خُذي مفتاح السيَّارة، اجلسي فيها. ويمكن أن تشتري أولويز من أيِّ صيدلية، وتدخل في دورة مياه الحريم بالمسجد، تضعينه.

تناولتُ لمياء منها مفتاح السيَّارة، وقالتُ:

- عندي أولويز في البيت، لكن، لو احتجتُ، سأفعل. هما نقطتان، لكن، طبعاً في الدِّين نقطتان مثل عشرة.

تركها أمها بسرعة، ودلفت إلى الجامع. لا تعرف لماذا كذبت على أمها. أكبر خطأ أنها لم تذهب إلى الكليّة. في الحقيقة، خافت في عودتها أن تمر على أمانة الشرطة. قالت لنفسها بعد ثلاثة أيام ربّما تتغيّر وجهة نظرها عنها، إذا قابلتها أو تترك الأمانة مكانها. زحام الميدان ليس غريباً عليها. كم سهرت مع إحسان وأصحابه في مقهى “زهرة الميدان”. لكنها اشتاقت إلى المجانين. أجل. كثيراً ما وجدت هنا مجنوناً، يمشي صارخاً أو يحمل طائرة من ورق، لا تبتعد عنه أكثر من متر، يمسك بخيطها، ويهزّها يميناً وشمالاً أو يرفع علّم مصر ماشياً، ومؤخّره عارية. أمّا الشّحاذون، فهم لن ينتهوا، ولن تهتمّ بهم. فقط المجانين هم من يثيرونها. وضحكت. في مولد السيّدة زينب السابق، سهرت هنا مع أصدقائها من الحيّ. كان هناك رجل يخطب في الناس، ويحكي من سيرة النّبيّ عليه السلام، وبين حين وآخر، يُنشد في مدحه على موسيقى أغنية أمّ كلثوم “إنت عمري” والناس ترقص ممّا أضحكهم كثيراً. لكنّ ضحكهم فاق التّصوّر حين بدأ يحكي عن حديث الإفك وقصة السيّدة عائشة التي ذهبت تقضي حاجتها في الصحراء بعيداً عن القافلة التي فيها الرسول الكريم، والتي كانت عائدة إلى المدينة بعد إحدى الغزوات، ورحلوا دون أن يفتنوا أنها لم تعد إلى هودجها، ووجدها صفوان بن المعطلّ، فلاحق بهم وهي معه، فاثّهمت به، واعتزلها الرسول حتّى برّأها الله بآية من آيات القرآن. الضحك حدث حين حكى كيف ذهب الصحابي الجليل أبو بكر الصّدّيق والد عائشة يقول للرسول عليه السلام، وبدأ المنشد يُغني:

“يا خير الورى

البت صغيرة

ما تعرفش اللي جرى”

وبعيد ويزيد في الجملة الغنائية. ضحكوا كثيراً، وابتعدوا وموسيقى إنت عمري
تلاحقهم، وما إن جلسوا يأكلون كباباً في محلّ محمد الرّفاعي حتّى سألها
إحسان "تحبّ تاكلي مخاصي؟" وإذا بحامد أحد أصدقائهم يقول، وهو يهزّ كتفه
ساخراً من المغني: "يا خير الوري ... البنت صغيرة" وملؤوا المحلّ الصغير
بالضحك.

عادت من شرودها، لتجد يداً سوداء لذراع عارٍ مرفوعة أمامها، تحمل قطعة من
قصب السكّر. "يا ماما" قالت وتراجعت خطوة، لكنه ضحك. كان أحد المجانين،
وأسرع مبتعداً، ثمّ نظر خلفه، وعاد يجري. ابتسمت وضحكت، ثمّ توجّهت
لتجلس في السيّارة.

لم تتأخّر أمّها. عادت بسرعة، وأخذتها إلى محلّ في شارع السّدّ، تعودت أن
تشتري منه هذا النوع من اللحوم. كان هناك كالعادة باعة جالسون من الرجال
والنساء يبيعون الكوراع والفشة والممبار، لكن أمّها دائماً تقول إنهم يبيعون
كوارعاً وأحشاء حمير. المحلّ الذي تشتري منه مضمون. كانت أمّها تُسرّع في
شراء كل شيء، وقالت هي:

- على مهلك، يا ماما.

فردّت:

- كيف والنقطتان يمكن أن يُغرِقا الشارع بعد قليل. الأحسن نعود بسرعة.

ابتسمت هي ابتسامة لا معنى لها، وحملت عن أمّها شيئاً ممّا اشترت، وعادا
إلى السيّارة، ثمّ إلى البيت. أذهلها أنها في السيّارة، فاجأها البيروود بالفعل،
وشعرت بأن الدم تسلّل إلى المقعد، وجلست في رعب من أمّها. ما إن نزلت

من السَّيَّارَة بعد أُمِّهَا حتَّى رَأَتْ بَقْعَة صَغِيرَة من الدَّم مَكَانَهَا. لَمْ تُخَيِّرْ أُمُّهَا. قَالَتْ
إِنْ أُمُّهَا سَتَرْكَب السَّيَّارَة بعد أَيَّامٍ، قَدْ تَصَلَ إِلَى أَسْبُوعٍ، وَحِينَ تَكْتَشِفُهَا،
سَتَكُونُ جَفَّتْ، وَسَهَلَتْ إِزَالَتَهَا، وَسُتُخْبِرُهَا إِذَا أَثَبَّتْهَا أَنَّهَا لَمْ تَشْعُرْ بِزِيَادَةِ نَقْطِ
الدَّم، وَإِلَّا قَالَتْ لَهَا.

دَخَلْتُ إِلَى غُرْفَتِهَا، تَسْمَعُ أُمُّهَا تَقُولُ لَهَا:

- غَيْرِي هَدُومَكُ، وَتَعَالِي قَفِي مَعِي فِي الْمَطْبَخِ.

ابْتَسَمْتُ وَقَالْتُ فِي نَفْسِهَا لَا بَأْسَ. سَوْفَ تَضِيعُ وَقْتًا مِنْ يَوْمٍ طَوِيلٍ، يَبْدُو أَنَّهُ لَنْ
يَمُرَّ. أَحَسَّتُ أَنَّ أَبَاهَا كَانَ صَادِقًا. أُمُّهَا لَنْ تَصْبِرَ كُلَّ هَذَا الْوَقْتِ، إِذَا كَانَتْ قَدْ
عَرَفَتْ أَنَّهُ قُبِضَ عَلَيْهَا. ارْتَدَّتْ ثَوْبًا مَنْزِلِيًّا جَمِيلًا، وَدَلَفَتْ إِلَى الْمَطْبَخِ وَفِي يَدِهَا
الْمُوبَايِلُ مِمَّا جَعَلَ أُمُّهَا تَقُولُ فِي ضَيْقٍ:

- سَتَجْلِسِينَ لِلتَّسَالِي هُنَا؟ عِنْدَنَا شُغْلٌ.

ضَحَكْتُ، وَقَبَّلْتُ أُمُّهَا.

غَسَلْتُ مَا يُغْسَلُ، وَقَطَّعْتُ مَا يُقَطَّعُ، وَغَلْتُ مَا يُغْلَى مِنَ الْمَاءِ، وَجَهَّزْتُ مَا تَرِيدُهُ
أُمُّهَا مِنْ تَوَابِلٍ، وَكَانَتْ قَدْ تَرَكْتَ الْمُوبَايِلَ عَلَى مَنضَدَةٍ، وَلَمْ تَهْتَمَّ بِهِ حَتَّى رَنَّ بَعْدَ
حَوَالِي سَاعَةٍ، فَرَأْتُ اسْمَ إِحْسَانَ أَمَامَهَا. رَحَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ سَكَنْتُ دَقَائِقَ تَسْمَعُ،
وَأُمُّهَا تَنْظُرُ إِلَيْهَا بَيْنَمَا هِيَ مَبْتَسِمَةٌ حَتَّى قَالَتْ:

- طَيِّبٌ. وَلَا يَهْمُكَ. مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ تَرِيدَهُ مِنِّي؟ لَوْ طَلَبْتَنِي، سَأَرُدُّ عَلَيْهَا.

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى أُمِّهَا، وَقَالَتْ:

- إحسان يعتذر لي، لأنه أعطى رَقْمَ تليفوني لمرشدة سياحية، تجلس أحياناً على مقهى البستان، وتريد أن تتحدّث معي. لا أعرف بالضبط ماذا تريد.

تساءلتُ أمّها:

- هؤلاء هم الصيّع بتوع القهاوي. لولا ثقتي أنا وبابا وحبنا لإحسان، ما تركناكِ تخرجين أبداً. انتبهي. أنتِ في الجامعة الآن، والمستقبل انفتح أمامكِ.

ابتسمتُ وقالتُ:

- لا تخافي، يا ماما. إنتِ مخلّعة راجل!

انتبعتُ إلى ما قالتُهُ، ورأتُ عيني أمّها تتّسعان في دهشة، فأدركتُ ما تفكّر فيه، فقلتُ في انفعال مفاجئ:

- أجل. راجل، يا ماما. أنا كان قصدي أهزّر، لكنّ، هذه هي الحقيقة. إنتِ وبابا لا تصدّقاني. وعدني بابا بالعلاج، ولم أرَ أيّ خطوة. أنا أعرف ما أعانيه، ودخلت على الإنترنت، وفهمت كل حاجة. لا بدّ من زيارة لدكتور متخصص في أسرع وقت، وإلّا ممكن أنتحر.

انهارتُ أمّها جالسة تنظر إليها في حيرة وضيق كبيرين، واستطردتُ لمياء التي اندهشتُ من توتّرها المفاجئ هذا.

- هذه المسألة تزيدني كآبة كل يوم. حقّاً ستدفعني للانتحار. ماما. أنا سأقول لك شيئاً. أنا كنت في مديرية أمن الجيزة أوّل أمس. كان مقبوضاً عليّ. هل تعرفين لماذا؟

صرختُ أمُّها، وقالتُ:

- يالهوي. اسكتي حتّى لا يسمعنا أحد من الجيران. اسكتي. اذهبي إلى غرفتكِ.

وأغلقت الأم نافذة المطبخ المطلّة على منور، تطلّ عليه مطابخ المنزل كله، وقالتُ:

- سأحضر إلى غرفتكِ، نتكلّم في هدوء. أنا لا أصدّق ما أسمعه.

خرجتُ لمياء باكية، وارتمتُ فوق السرير. تركتُ أمّها كل شيء، ولحقتُ بها، وصرختُ فيها:

- اعتدلي، كلّميني.

جلستُ لمياء مقرّصة فوق السرير، فأمسكتُ أمّها بعنقها تهزّ فيها كمن ستخنقها.

- ماذا يعني القبض عليكِ؟ ماذا تفعلين من ورائنا؟

صرختُ فيها لمياء:

- لن تفهمي أبداً. أنا آسفة. أنتِ مصرّة على ذلك. سنوات وأنا أشكو لك ممّا أشعر. لم تدركي يوماً معنى التّشوّهات في جسدي. صدر ناشف وشعر بالذقن والشارب وفخذان ناشفان وزفت - وأشارتُ بين فخذيّها - يرتفع كل يوم، وميول منذ الطفولة للّعب مع الأولاد، وتحرش بالبنات والنساء. لم يكفك ما فعلته بنات المدرسة، واعتبرتِ جلوسي بالبيت حلاً. ماما. إذا اختفيتُ يوماً، لا تلومي إلّا نفسك وبابا. أجل. بابا الذي أخرجني من قسم البوليس، ولم يخبرك، ووعدني

أن يبدأ في علاجي، ولم يفعل شيئاً.

صرختُ فيها أمُّها:

- قولي لي ماذا فعلتِ؟! ولماذا تمَّ القبض عليكِ؟!

- اسألني نفسك. اسألني عن المرض الذي عندي أو اقرئي عنه. أليس حضرتك متعلِّمة وخريجة آداب قسم إنجليزي؟! طيِّب، تحيِّي أقول لك شيئاً؟! حضرتك ترانس جيندر.

سكتت الأمُّ في ذهول، وتساءلتُ:

- ماذا تقولين؟

- أجل، ما هو الفرق بين الشيزوفرينيا والترانس جيندر؟ الشيزوفرينيا نفسية، والترانس جيندر حالة مادِّيَّة، والأعراض واحدة. حضرتك متديِّنة جدًّا في حياتك، لكن، تفعلين كل ما تريدين. تخرجي وتحدَّثي في الموبايل وتتفرَّجي على أفلام، وحين يأتي أبي تصبحين الشيخة فاطمة.

صفعتها أمُّها صارخة:

- يا سافلة.

فصرختُ وهي تترك السرير، وتقف أمامها:

- هكذ الترانس جيندر. لو بنت مثلي تتصرَّف كما الرجال مع البنات، فيظنُّونها ليزبيان. ولو ولد يتصرَّف مثل البنات مع الأولاد، فيظنُّونه "جاي". ارتحتي. هل تعرفين ماذا كان يُرعبني بعد أن تمَّ القبض عليّ؟ أن يطول حبسي مع النساء،

فأتحرّش بهنّ. أو يعرفون ما أعانيه، فيحبسونني مع الأولاد، فيتحرّشون بي. أنا
لن أبقى معكم في هذا البيت.

وراحتْ تخلع ثيابها، وترتدي ملابس خروج، وأمّها وقفتْ أمام الباب بعد أن
أغلقتْهُ، لتمنعها من الخروج قائلة:

- لن تخرجي. سأكويكي بالنار، ولن تخرجي.

لكن رائحة شياطين جاءتْ من المطبخ قوية، فصرخت الأمّ:

- المطبخ سيحترق، والبيت سيولع.

خرجتْ مسرعة، فأسرعتْ لمياء في الانتهاء من ارتداء ملابس الخروج، واندفعتْ
جارية. استطاعتْ أن تفتح باب الشقّة، وتجري نازلة السُلّم.

لم يحترق المطبخ. أغلقت الأمّ كل مفاتيح الغاز للبوتاجاز، وفتحت النافذة،
وأدارتْ مروحة السقف، وأسهرتْ تلحق بها، فلم تجدها، فعادتْ إلى المطبخ،
وانهارتْ جالسة. كان ما وضعته من ماء مع الكوارع قد جفّ، وبدأتْ الكوارع تشيط
أيضاً. انهارتْ، ثمّ اندفعتْ في البكاء. سمعتْ باب الشقّة يفتح، فتخيّلتْ أنها
عادتْ، لكنها رانيا دخلتْ عليها الغرفة قائلة:

- رائحة الشياطين تملأ السُلّم والشقّة، يا ماما. خير، يا ربّ.

نظرتْ إليها والدمع في عينيها، وقالتْ:

- لمياء تركت البيت.

- يعني إيه؟

- أختك لازم تتعالج. إحنا فعلاً مقصّرين.

- يعني إيه برضه؟ مش فاهمة حاجة.

- لا شيء. اتّصلي بأبيكي، قولي له أن يأتي. لا تخبريه بشيء.

نهضت الأمُّ تاركة المطبخ إلى حجرة النوم، وتمدّدت على السرير باكية. لم تمضِ ساعة حتّى وصل الأب الذي دخل مندهشاً على وجهه علامات المفاجأة والذعر. كانت الأمُّ في حجرة النوم. دخل إليها، وجلس أمام السرير، فصرختُ فيه:

- بنتك يتقيضُ عليها، وتروح قسم البوليس، ولا تخبرني كيف. ألسْتُ أمّها؟

تلّغت حوله، وقال هامساً:

- اخفضي صوتك. لا أريد لرانيا أن تعرف.

- رانيا عرفتُ ما هو أكثر. لمياء هربتُ من البيت.

بدا عليه ذهول كبير، وقال شاردًا:

- ماذا يعني هذا؟

- يعني هربتُ من البيت خلاص. انظرُ إلى مَنْ ستذهب، وماذا ستفعل. سنُفاجأ بها في قضية كبيرة، ولن نستطيع أن ندافع عنها.

قال متعمّداً الهدوء:

- لمياء عاقلة، يا فاطمة، لا ترتكبْ جريمة. لمياء ستعود. لمياء قبضتُ عليها

أمنية شرطة، لم تفهم ما هو مكتوب على الفيسبوك، والضابط فهم أنه هَزَار، وبالصدفة كان يعرفني وأعرفه وأعرف والده. اتَّصل بي، ورحت أخذتها.

قالتُ في دهشة:

- فيسبوك؟! يعني إيه؟

- أحياناً يفتّشوا موبايلات الشباب، يشوفوا حدّ يقبضوا عليه. يعملوا شغل يعني!

- وماذا كانتُ قد كتبتُ؟

ابتسم، وقال:

- لأنني متأكّد من عودتها بالكثير بعد ساعة أو ساعتين، تجلس فيهما على مقهى مع أصحابها، وتنسى ما حدث، سأقول لك. كتبتُ أن هذا البلد ترانس جيندر. بلد غير معروف رجل أم امرأة. أمينة الشرطة قبضتُ عليها، لأنها لا تعرف معنى الكلمة. تصوّرتُ أنها من الإخوان المسلمين. الضابط الذي تمّ تحويلها إليه، قال لي إنهم فهموا أن معنى ترانس جيندر أنها بلد بين بين لا رجل ولا ست. خنثى يعني. لذلك اعتبروها ذمّ في البلد.

هزّتُ رأسها، وقالتُ:

- لا. ليس خنثى. الخنثى لا حلّ معها. ترانس جيندر يعني امرأة، لديها ميول وأعضاء ذكورة مخفّية، والعكس رجل، ولديه أعضاء أنوثة مخفّية، وبالعلاج بالهرمونات أو الجراحة يتحوّل. أجل. ترانس جيندر يعني المتحوّل. فهمتَ؟! هي تشعر هكذا، وأنا بدأتُ أصدّقها بعد السنوات الماضية التي كنّا نعتبر فيها تصرفاتها الذكورية أخطاء أخلاقية. لا بدّ أن تبحث عنها وتُعيدها ونعالجها. أجل. آن

الأوان أن نعتذر عن غبائنا.

سكت ووقف يدور بالحجرة الواسعة، لا يُصدّق ما يسمع، ثمّ قال:

- تعرفين الحقائق العلمية هذه وتعارضين ابتكّ طول الوقت. مِئِكَ للهِ. إنتِ
السبب لأيّ كارثة.

كانت رانيا تقف في الصالة، وتسمع كل هذا الكلام. دخلتُ إلى غرفتها، وانهارتُ
على السرير باكية، تعضُّ في الوسادة، وتضرب عليها بيديها، وتقول لنفسها
“كل هذا في بيتنا، ولا أعرف. يا ربّ”.

كانتُ لمياء قد أسرعْتُ في الشوارع. كانتُ تجري تقريباً بعد أن خرجتُ من
البيت. تردّدتُ بين الذهاب إلى مقهى البستان، حيثُ لا بدّ أن إحسان لا يزال
موجوداً أو إلى منزل أستاذتها بادية. أخذتُ طريقها إلى مقهى البستان، فهو
الأقرب. على الأقلّ ترتاح هناك قليلاً، ثمّ تذهب إلى أيّ مكان تريد. وكأنها كانتُ
تعرف أن هناك ستجد سناء التي ما إن رأتها مقبلة من شارع هدى شعراوي
حتّى ابتسمتُ في سعادة حقيقية. وقفتُ تحتضنها، وتقول “وحشتيني”.

وراحتُ تضمُّ لمياء بقوة كبيرة إلى صدرها بينما كانتُ لمياء تدور بعينيها بحثاً عن
إحسان. ثمّ استطردتُ سناء ولمياء تجلس:

- رغم أنني لم أرك منذُ يومين فقط، لكنّ، اشتقتُ إليك جدّاً.

جلستُ لمياء صامتة، وبعد دقائق سألتها سناء:

- ظاهر عليك التوتّر. وجهك مخطوف جدّاً، ماذا جرى؟

كانت لمياء لا تزال تدور بعينيها، علّها ترى إحسان. أدركت سناء ذلك، قالت:

- إحسان انصرف منذ قليل. المهمّ قلّ لي ماذا بكِ؟!

نظرت إليها لمياء نظرة تحدّي، وقالت:

- هربت من أهلي. عايزاني في أيّ حاجة تحت أمرك، لكن، الآن.

ارتبكت سناء لحظة، وتساءلت:

- هل تأتين معي إلى البيت؟

- لا. إلى الغردقة أو الأقصر. والآن.

نظرتُ إليها سناء باسمه. كانتُ نظرتها عميقة جدًّا، تشي أنها أخيراً فازتُ
بغريستها. ثمَّ قالتُ:

- إذن، فلنجلس بعيداً قليلاً عن الجالسين.

كالعادة لم يكن هناك من الأدباء والفنَّانين سوى عدد قليل مشغولين في لعب
الطاولة. لم ينتبه أحد إلى جلوس سناء بعيداً وحدها من قبل. في الحقيقة هي
لم تكن وحدها. كان معها كاتبان وأحد الشباب الكُتَّاب، انصرفوا قبل وصول لمياء
بدقائق. أخذتها سناء إلى آخر منضدة في شارع البستان السعيدى عند التقائه
بشارع هدى شعراوي، وجلستا.

قالتُ سنية:

- سأخذك اليوم إلى الغردقة. سننزل في منتجع مجاويش. شيء أجمل من
أوربا. لكن، لا بدَّ أن أتَّصل بمكتب حجز الأوتوبيسات. السفر بالطائرة مثلاً، لو
فكَّرنا فيه، لن يكون اليوم. ربَّما نجد في الأوتوبيسات فرصة اليوم، ولو متأخِّرة.

لم تردِّ لمياء، وإن هزَّتْ رأسها. كانتُ تفكِّر كيف حقًّا اندفعتُ هذا الاندفاع
الرُّجوليَّ للخروج من البيت! ما فعلته لا يفعله إلَّا شابُّ قوي. سواء في صرخاتها
أو الانتهاء بسرعة ودون تردُّد فيما تريد. كما أنها لم تتوقَّف لتحمل شيئاً من
ثيابها الدَّاخليَّة أو الخارجيَّة. لا يفعل ذلك أيضاً إلَّا شابُّ أو رجل غاضب. أحسَّتُ
أن الدمع يتفرَّق في عينيها، فمسحته بيدها، ولم تتركه ينزل. إنها بالكاد حملتُ
حقيبتها، لأن فيها أوراقها الشَّخصيَّة والموبايل. قالتُ سناء:

- اشربي أيّ شيء حتّى أنتهي.

وأشارت إلى الجرسون الذي جاء على الفور، فقالت لمياء:

- قهوة سادة، لو سمحت.

نظرت إليها سناء مبتسمة، ثمّ قالت:

- المفروض زيادة، لأن النهار ده حيبقى سكر.

لم تتجاوب لمياء حتّى بالابتسام. استطاعت سناء أن تفتح على الإنترنت بالموبايل صفحة حجز تذاكر الأوتوبيسات إلى الغردقة. بعد لحظات، قالت:

- لا يوجد اليوم إلّا العاشرة مساء. ما رأيك؟ أم نؤجلها لنركب الطائرة غداً أو بعد غد؟

أجابت لمياء:

- لا. اليوم.

حجزت سناء مقعدين، دفعت ثمنهما من الفيزا كارد الخاصّ بها. فعلت ذلك، والتفتت إلى لمياء التي كانت القهوة قد وصلت إليها، وتشربها على مهل وبتركيز. قالت سناء:

- أمامنا وقت طويل، وسيئ جداً أن نمضيه في الشارع. الساعة لم تصل إلى الثالثة. يمكن أن نذهب معاً إلى شقّتي التي هنا في القاهرة. هي في شارع الجيش قريبة جداً من العتبة.

قالت لمياء:

- هيا نذهب.

كانت دهشة سناء منها أنها متسرّعة جدّاً في الاستجابة إلى كل شيء. بدت لها كهاربة من أمر خطير. فلتصبر، وستعرف في البيت. أجل. ليس أفضل من العُري طريقاً للاعتراف بكل شيء، فما بالك أنه مشوب باللذّة الكونية؟! العُري يقهر أعتى الرجال، فما بالك بفتاة صغيرة مثل لمياء؟! لقد وافقت أن تكون سحاقية بسرعة، ويمكن لهذه الصغيرة التي لا تملك دهاء النساء بعد أن وقعت في فرائسها أن تكون طريقها إلى دخل ماليّ أكبر من السيّاح. سستتهافت أمام خبرتها في الجنس، وستجعلها تصل إلى السماء محلّقة كالطيور البريئة، وبعد ذلك، ستدعن لها، وتليّي لها كل طلباتها.

كانت سناء تقول لنفسها ذلك وهما تركبان في تاكسي. فضّلت سناء أن تجلس فيه جوار السائق، وليس جوار لمياء في الخلف حتّى يزداد ارتباكها، ولا تشعر مبكّراً بما ستفعله لها ومعها، فتكون المفاجأة أكبر بينما كانت لمياء تشعر بالرغبة تكاد تنفجر من كل جسمها حتّى لسانها يكاد يتحرّك طالباً من سناء أن تخلع ثيابها. لقد نسيّت ما جرى منذ الصباح، وتتمنّى أن ينتهي الطريق سريعاً، لتصل معها إلى البيت. إن شارع قصر النيل المتّجه إلى العتبة يخذلها بزحامه. لو تنهّد هذه العمارات على السيّارات الملاكّي والتاكسيّات والموتوسيكلات! راحت تتخيّل ذراعها يمتدّ من نافذة التاكسي إلى أعالي العمارات، ينزل بها أسفل الأرض عمارة بعد أخرى. رأت الناس يجرون إلى كل ناحية في فزع، ومن العمارات تخرج نساء عاريات ورجال عُراة، يجرون في رعب فظيع، يحاولون ستر عوراتهم. ابتسمت من هذه الخيالات الجبّارة في الخراب، إذ بدأت السيّارات تتحرّك. لكنها ستقف بعد قليل عند الإشارة. ليكن. المهمّ أنها تبتعد، ويمكن أن

تتخيّل مرّة أخرى أنها تهدم العمارات، وتستريح. لو يضع فيها الله هذه القوّة، لخطفت كل يوم امرأة من نافذة، وهي تطلُّ على شارع "الجنس" العجيب. تمارس معها الجنس بقوّة تُريك أيّ امرأة، ولا تُصدّق أن هناك فتاة فيها قوّة المُردة هذه، ثمّ تُلقِي بها من النافذة في الفضاء، فلا تنزل مرّة أخرى إلى الأرض، وتطلُّ سابحة في السماء، تتقابل مع غيرها ممّن ترميهنّ. يُشكّلن دائرة من الراقصات، يرقصن بالليل بالذات، فالنهار يخفي بنوره أجسادهنّ بعد أن صرّ عُرّةا بينما هي الأجساد نفسها تبرق بالنور بالليل. يخرج الرجال من منازلهم إلى الشرفات، يتفرّجون على راقصات السماء أو يصعدون على الأسطح أو ينزلون إلى الشوارع. تمُدُّ الراقصات الأسطوريات أيديهنّ، تحملن الرجال إليهنّ. تمتلئ السماء بالمضاجعات بين نائمين وواقفين حتّى يطلع النهار، فتُلقِي الراقصات بالرجال إلى الأرض، تجدهم النساء والأولاد ممدّدين متعبين على الأرصفة، وفي أنهار الطُّرق. تعمُّ البلاد الفوضى والرعب. يجتمع رجال الدّين، يُصدِّرون بيانات عن الفجور الذي تستجيب له السماء علامة على القيامة. الخبراء في الشاشات التّلفزيونيّة والإذاعات ينصحون النساء أن يربطن الرجال في الأسيرة بالليل بالسلاسل. علماء النّفْس ظهروا أيضاً يقولون إن ما يحدث ليس حقيقة، إنما هو رغبات مكبوتة عند الرجال، يحقّقونها أحلاماً وكوابيس. هذه الرغبات المكبوتة ليست من قلة الزواج، ولا تأخّر سنّ الزواج بسبب الفقر أو أن الدولة لا تهتمّ بالفقراء، وتبني المشروعات الجديدة، فيها الشقاق غالية الثمن، لا يقدر عليها إلّا الأغنياء جدّاً أو تجّار ومهرّبو الآثار والمخدّرات وغير ذلك من الكلام الفارغ الذي يرِدّده الإخوان المسلمون وإذاعات الدول المؤيِّدة لهم، والتي تريد الخراب لمصر. هذه أحلام مكبوتة، وهي بنت التّطوُّر الكبير الذي حدث للرجل المصري في طاقته الجنسية التي صارت مثل طاقة آلهة الجنس في الأساطير اليونانية أو الفرعونية، والرجل المصري مسالم، لا يقتل من أجل الجنس، كما يحدث في الأساطير القديمة، لكنه يتخيّل جنّة تحت السماء من

الراقصات، ويكتفي بهنّ، وأن لا أحد يرى الرجال مُلقَيْن على الأرصفة وفي الطُرُقَات في الصباح كما يقال. هذه كلها أوهام وأشباح رؤى من النساء والأطفال. وقال شيخ كبير بالمناسبة إن النساء قد صدّقن الرجال فيما يقولون عن خطفهم من النساء، ليس لأنه حقيقة، لكنّ، لأن النساء ناقصات عقل ودين، ولا بدّ أن نعترف بذلك، ولا تزعل منّا النساء. المهمّ، يا مصريات، رجالكنّ أصبحوا في فحولتهم بغالاً أو أقوى من البغال، وستحسدكم نساء العالمين.

لكنّها أفاقت على صوت انفجار مُدوّ، اهتزّ له الفضاء. توقّفت السيّارات، بل اصطدمت ببعضها، واهتزّ التاكسي الذي تركبانه بعد أن تجاوزا ميدان مصطفى كامل، ودخل في الأمتار الأخيرة من الشارع قبل العتبة. كان قد مرّ أمامهم شابّ يجري عابراً الشارع، لكن شيئاً انفجر فيه، فتطايرت أجزاؤه في كل مكان، وتوقّف الجميع في رعب. مَنْ حاول أن يهرب بسيّارته بسرعة، لم يستطع، إذ اصطدم بما أمامه. المارّة انفرطوا إلى كل مكان، وهم يرون قطعاً من النار تطير في كل ناحية، وقطعة كبيرة من جسد الشابّ تسقط مكانها ملفوفة بالنار.

لم يكن لسائق التاكسي أن يتحرّك من مكانه. لا هو ولا غيره. في الطريق المقابل، امتداد شارع 26 يوليو في اتّجاهه إلى عابدين، توقّفت أيضاً السيّارات. كثير من السائقين تركوها ووقفوا بعيداً على الأرصفة، وكل ركّاب التاكسيّات غادروها. ومثلهم فعلت سناء، إذ قالت:

- هيا بنا، يا لمياء، نجري من طريق آخر.

وسألت السائق:

- كم تريد حضرتك؟

أجاب:

- لا شيء. المهمّ انتبهها، ولينجكما الله. أنا مضطّرّ للبقاء خوفاً على عربتي. لا أحد يعرف ماذا سيحدث الآن.

نزلتُ سناء ومعها لمياء، وتراجعتا للخلف بعيداً عن زحام الناس والسيّارات حتّى دخلتا من شارع الشواربي إلى شارع عبد الخالق ثروت. من أحد ممّراته، وكانت السيّارات كلها متوقّفة فيه أيضاً، عبرتا إلى شارع عدلي. كانتا تسرعان. لمياء من الذعر، وسناء من الذعر والقلق أن تتردّد لمياء، وتعود إلى بيتها، فطريق العودة أكثر أماناً. من أحد ممّرات شارع عدلي أيضاً عبرتا إلى شارع 26 يوليو من منطقة أبعد ممّا كانتا فيه، ومنه دخلتا إلى أحد الأزقة التي أخذتهما إلى نهاية شارع كلوت بك. انحرفتا يميناً إلى العتبة التي لاحظتا أن كل محلاتها ما بين مَن أغلق أبوابه ومَن يغلقها بينما انصرف الباعة الجائلون ببضاعتهن أو ينصرف الباقون منهم. استطاعتا الوصول إلى شارع الجيش، ولم تكن شقّة سناء بعيدة، فسرعان ما صعدتا إليها. ما إن دخلتا حتّى قالت سناء وهي تنهّد:

- الحمد لله.

تھاوت الاثنتان على مقعدَيْن في الصالة الصغيرة. تنهّدتُ سناء من جديد، وقالت:

- أظنُّ أنكِ جائعة من الرعب، يا لمياء.

قالت:

- لا. أريد فقط أن أشرب ماء. أشرب كثيراً. حلقي جافٌ جدّاً. أنا مرعوبة.

- هل جرّبتِ الخمر قبل اليوم؟

- لا.

- إذن، نبدأ بالنبيذ الأحمر. ننسى ما حدث. نستعدُّ للسفر، كأن شيئاً لم يحدث.

لكنّ لمياء كانت قد فتحت الموبايل. وجدت عشرات المحاولات للاتّصال بها من أبيها وأمّها وأختها على الماسينجر، ولم تسمعها من الرعب. كان تركيزها كله في الهروب. ووجدت نفسها تتابع الحدث الرهيب:

“إرهابيُّ حاول تفجير نفسه في العتبة، لكنه انفجر في نهاية شارع قصر النيل قبل الوصول إلى التّجمُّع البشري في الميدان. توقّفت الطُّرُق حول الحادث كلها، ورجال الإسعاف وصلوا، ويجمعون أشلاء الإرهابي، وبدأت الطُّرُق تتحرّك.”

“لا ضحايا للانفجار إلّا الإرهابي نفسه حتّى الآن.”

“لا أثر عينيّ على هوية الإرهابي، لكن الناجين من الحدث قالوا إنه كان شابّاً صغيراً ربّما لا يتجاوز العشرين من العمر.”

وبينما تضع سناء كأسّي نبيذ أمامهما، وزجاجة نبيذ كاملة قد فتحتها، وقبلتها، كانت لمياء تقرأ:

“إلى كل الشباب رُؤاد مقاهي وسط البلد. عليكم مغادرة المقاهي الآن إلى بيوتكم بأسرع وقت. قوَّات الأمن ستقوم بتمشيط كل المقاهي في وسط البلد، ومنطقة معروف، وباب اللوق، ولا بدّ سيتمّ القبض على أعداد كبيرة، يتمّ الاشتباه بعلاقتها بالإرهابي.”

“اشتباه إيه، يا روح أمّك، ما تقول الحقيقة؟! حيمسكوا أيّ عدد من الناس،

يلبسوهم التهمة، وخلص. بتستعبط!"

تركت الموبايل من يدها وهي تقول "زفت" فاقتربتُ منها سناء وهي تقول
"اشربي، يا حبيبتى. بُق بُق كده على خفيف، علشان تتعوّدي".

تصوّرتُ لمياء أنها ستفعل كما رأْتُ في الأفلام حين تشرب المميّلة التي غرّرها
الممثّل الخمر لأوّل مرّة، وتجده مزراً أو حارقاً لحلقها، لكنها وجدتُ طعم النبيذ
مستساغاً وجميلاً. كيف حقّاً يقولون إنه من العنب بينما طعمه مثل البرقوق؟!
ابتسمتُ وهي تتذكّر أنه مصنوع تحت أقدام النساء. كم سمعتُ حكايات أبيها
عن أيّام زمان حين كان الطلّبة يسافرون إلى أوروبا في الصيف، يعملون في
مزارع العنب في صناعة النبيذ، وكيف أنه نادم على عدم السفر معهم. كانتُ
فرصة أن يتزوّج ويعيش هناك. يحكي ذلك ويشير إلى أمّها غامزاً بعينه لها
ولأختها، ويبدو التبرّم على وجه أمّها، فيقول بسرعة: "لكن، ربّنا كان قاسم لي
أجمل بنت في مصر" ويحيط الأمّ بذراعه، ويقبلها، فتُبّعده عنها قائلة "ما
تضحكش عليّ. خليك بعيد" فيضحك وتضحك هي وأختها. لماذا حقّاً لم تعد
تسمع عن هذه الأسفار الآن بين الطلّاب؟ وهل يمكن أن تفعلها هي؟ راحتُ
تتخيّل نفسها تعجن العنب بقَدَميها، ورأتُ سماتتي ساقِيها جميلَتَيْن مُلحمتَيْن.
لكنها تذكّرت أن هذه لوحة فنيّة، شاهدتها في أحد الكُتب القديمة، فساقاها
ليستا بساقي أنثى. وقبل أن تتجهم، رشفتُ جرعة ثانية من النبيذ، وتركتها
في فمها قليلاً تستطعمها. ما كادتُ تبلعها حتّى كانتُ شفتا سناء الممثلةَتَيْن
على شفتيها وهي تهمس:

- أعطني لسانك، أمصّ العسل منه.

تباعدتُ ضاحكة، وقالتُ:

- العسل أم النبيذ؟

- كله في فمك عسل. هكذا يكون الحب حين يمتزج بالنبيذ.

قالت سناء ذلك وهي تحتضنها، وتمشي بيدها على ساقَيْها. نغرت بساقَيْها،
وقالت:

- أنا عندي البيريود.

- ليس مهمًّا. خُذي حمامًا الآن.

تركت سناء ثُقْبِلَها في عنقها وفي خَدَّيْها، ولم تستطع أن تقاومَ، فراحت بدورها
ثُقْبِلَها، وصارت كلُّ منهما تخلع عن الأخرى ثيابها.

كم مضى من الوقت؟ لا تعرف. الموبايل في الصالة الصغيرة للشقَّة الصغيرة
التي لا تزيد عن غرفة نوم مع الصالة. تسمع من بعيد صوت تدفُّق الرسائل
والمكالمات في الموبايل، ولا تهتمُّ أن تعود إليه. هي على السرير بعد أن أخذت
حمامًا جميلًا، هَدَأ كثيرًا جدًّا من قلقها. هي الآن في عالم آخر. لقد قالت لها
سناء وهي تتَّجه لتستحمَّ ربَّنا كريم، حيمنع الدم إلى أن تنتهي! اندهشت هي
من إدخال اسم ربَّنا في كل شيء في هذه البلاد، لكنها وهي تستحمُّ لم تكن
هناك نقط دم كبيرة، فعرفت أن اليوم سيمرُّ بسلام. لقد تحقَّق دعاء سناء. لقد
عادت من الحمام عارية تمامًا، لا ترتدي حتَّى البُرنس الذي وجدته فيه. شعورها
أنها تستعرض فحولتها لا أنوثتها جعلها تفعل ذلك. هي تعرف أن الأنوثة لا تكتمل
إلَّا بشيء من الإخفاء. فحولة الرجل إعلان، وأنوثة المرأة سرٌّ رغم ما يبدو من
إعلان! وعادا إلى ما كانا فيه حتَّى دقَّ منبّه موبايل سناء دقَّات لا تتوقَّف، فقالت:

- أنا كنت ضبطت منبّه الموبايل على الساعة الثامنة حتَّى لا نتأخَّر.

لكنّ لمياء قالتُ وهي تتقلّب على السرير:

- أنا مبسوفة هنا، ولا أريد السفر. خليه بكرة.

ابتسمتُ سناء في فرح، وقالتُ:

- أنا أيضاً أفكر في ذلك. خليني أوجّل الحجز. سأجعله باكراً في أوّل أوتوبيس.
يكون عادة في السابعة صباحاً.

قالتُ لمياء وهي تفرد ذراعَيْها كَمَنْ تتشاءب، والحقيقة أنها كانت تشعر بمتعة
شديدة وجسدها يرتعش.

- ليتنا نذهب من هنا عاريتين. ملط.

راحتُ سناء تضحك، وتقرص فيها، ثمّ تعضُّ في كتفَيْها وعنقها، وتدغدغها في
فخذَيْها، ولمياء تضحك وتشعر أنها ستفقد الوعي، وفقدته فعلاً.

انشغلتُ عنها سناء بتجهيز العشاء في المطبخ بعد أن غيّرت موعد السفر.
ارتدتُ ثوباً، وخرجتُ تتحدّث في النافذة حريصة أن لا يصل صوتها لَلَمياء التي
يمكن أن تسمع وهي في فقدان وعي جميل. عادتُ إلى الصالة، وجلستُ،
قليلاً، ثمّ تناولت أمبوبة صغيرة من "نيس" به الأطباق جوار السفارة، ودلفتُ إلى
لمياء على أصابع قَدَمَيْها، فوجدتها نائمة. وقفتُ ممسكة بالموبايل، لتُصوّرَها،
لكنها تردّدتُ. هذه لمياء العذراء البريئة جاءتها بنفسها، ولا يجب أن تمارس معها
الابتزاز، كما فعلتُ من قبل مع نورا التي ما إن عرفتُ بما جرى حتّى انتحرتُ دون
أن تذكر السبب لأحد. لا يجب أن تكون سبباً في موت فتاة بين حين وآخر. لقد
أزالت صور نورا من الموبايل وقتها حتّى إذا عرف البوليس أنها كانت على علاقة
بها، فقد تكون الصور دليلاً على اتّهامها بالابتزاز الذي أدّى إلى انتحار نورا.

الحقيقة أنها أزالَت الصور حتَّى تنسى رغم أنها عرفتُ أن نورا كانتُ قد فقدتُ
عذريَّتها مع شابٍّ غدر بها، وأن هذا سبب انتحارها. ولا تنسى أنها حين أخبرتُ
نورا بالصور كانتُ تضحك وتقول لها هي حتَّى تكونين معي في غيابك. كانتُ
تضمر شرّاً حقّاً، لكنها كانتُ تؤجِّلُه، ونورا لم تنتظر، بسبب غدر حبيبها. لقد هوَّنتُ
هذا عليها كثيراً، وإن كثيراً أيضاً ما تتذكَّرها، فتشرد عمّا حولها. لمياء هذه سهلة
مثل الخاتم في إصبعها، لن تتردَّد فيما تريده منها. كما أنها ليست بالجمال
الكافي رغم جمال وجهها، فلا تديِّن أنثويَّين لديها، وساقاها متخشَّبتان، كما أن
هجومها عليها فيه قوَّة، ليستُ في النساء. هذه مريضة بمرض أشبه بالميل
إلى الرجال في الحركة والسلوك. يكفي أن تجربها. يكفي أن يأتي صديقها
القوَّاد، ويراهنا عارية حين تستيقظ، فتستسلم له فيما يريد. نفثتُ من أنبوبة
الغاز المخدِّر قليلاً أمام أنف لمياء التي شهقتُ شهقة صغيرة، ثم راحتُ في نوم
أعمق. وعادتُ سناء إلى الصالة، تتابع الأحداث في التليفزيون.

في المنزل، لم يتوقَّف القلق والرعب. لمياء لم تعد، ولقد حلَّ الليل. لم يتوقَّف
بكاء أمِّها، ولا أختها. لم يستطع الأب أن يجلس دقيقة واحدة في مكان. لم تردَّ
على أيِّ منهم حين طلبوها في الهاتف، وتكرَّر طلبهم. زاد انفجار شارع قصر
النيل من رعبهم. فجأة صرختُ أمِّها:

- إحسان قد يساعدا. كيف نسيْتُ ذلك؟

بسرعة اتَّصلتُ بأمِّ إحسان التي عرفتُ منها أنه في البيت، فطلبتُ أن يأتي
إليهم الآن لأمر مُهمِّ. إحسان الذي يسكن في الشارع الخلفي وصل بعد عشر
دقائق مضطرباً، فحكوا له ما جرى، وكيف لا يعرفون أين ذهبتُ لمياء، وأنهم

وجدوا بالصدفة على مكتبها الكارت الذي به رَقْم تليفون وعنوان أستاذتها،
فاتَّصلوا بها، فقالتُ إنها لم تأتِ إلى الكُلِّيَّة اليوم، كما لم تأتِ أمس، ولم ترها.
كيف يمكن أن يساعدهم إحسان؟ بدوره راح يطلبها من الموبايل، لكن، لارَدَّ.

سألتهُ أمُّها بينما الأب جالس في عجز عن التفكير تماماً:

- هل يمكن أن تكون في أحد المقاهي؟ هل يمكن أن ينزل يبحث عنها في
مقاهي وسط البلد؟

قال:

- لقد أغلق الأمن كل المقاهي بعد الحادثة بساعة واحدة. قبضوا على ناس
كثيرة من المقاهي، ثمَّ أغلقوها كلها.

لطمت الأمُّ:

- يعني ممكن يكون انقبض عليها، يا حسين!

كانتُ تخاطب زوجها الذي وقف يقول وهو يكظم غيظه "أنتِ السبب" ورفع يده
يكاد يهوي بها على وجهها إلَّا أنه أمسك بيده في غيظ. لم يضربها وهما
وحدهما ولا أمام ابنتيهما، فهل يضربها أمام إحسان الذي مهما كانت المحبَّة
بين الأسرتين ليس ابنتيهما؟! لكن إحسان قال:

- ثانية واحدة. مكالمة تليفونية قد تكون هي الحلُّ. معي رَقْم تليفون "عارف"
كبير جرسونات قهوة البستان، سأسأله هل رآها هناك اليوم؟

بحث عن رَقْم تليفون عارف في الموبايل، وطلبه. ما إن سألَه عنها حتَّى سكت
يسمع والقلق يكاد يبعثر أمُّها وأباها وأختها، ثمَّ قال:

- طيّب، يا عارف، الله يخلّيك، لا تتأخّر.

نظر إليهم وقد انتهت المكالمة، وقال:

- عارف قال لي إنها انصرفت مع سناء. سناء هذه مرشدة سياحية. وإنهما انصرفا قبل الحادثة بحوالي نصف ساعة. عارف سيسأل مرشداً سياحياً عن عنوان بيت سناء. ننتظر دقائق، وسنجدها، بإذن الله.

قالت الأم:

- طيّب، كنت أخذت منه تليفون سناء، وسألتها.

فكر إحسان قليلاً، ثم قال:

- صحيح. أنا مرتبك مثلكم. سأخذه منه حين يطلبني. لن يتأخّر، وإذا تأخّر، سأطلبه أنا.

جلسوا صامتين لدقائق، ورنّ تليفون إحسان، فنظر فيه بسرعة، وقال:

- هذا عارف.

وردّ عليه:

- خيراً، يا عارف. هل عرفت العنوان؟

وصمت قليلاً، ثم راح يقول معلّقاً على ما يقوله عارف على الناحية الأخرى:

- أوّل شارع الجيش من ناحية العتبة؟ ... لا تعرف رقم البيت؟ ... تحته محلّ فول

وطعمية؟ أولّ محلّ على اليمين؟

وسكت لحظات يسمع ويبدو القلق على وجهه، ثمّ قال:

- طيّب، يا ريت ترسل لي بالمرّة رَقْم تليفون سناء في رسالة.

قالت الأمُّ في رعب وانْهيار:

- طمّني، يا بني.

وبدأ القلق أكبر على وجه الأب بينما رانيا قد انصرفت من أمامهم إلى غرفتها
تبكي بحرقة كبيرة، وتكاد تفقد الوعي.

كان عارف قد طلب من إحسان أن يذهب إليها بسرعة. لم يشأ أن يقول ذلك
لأبي وأُمّ لمياء. عقد العزم على إنقاذها مهما كان الثمن، ثمّ وصلتْ رسالة برَقْم
سناء، فراح يطلبها، لكنها لم تردّ عليه. قال:

- لا بدّ من الذهاب.

قال الأب:

- انتظر. خذني معك.

قال إحسان:

- لا. سأجري، لأن السيّارات ستكون محلّ تفتيش في كل شارع وكل إشارة
مرور في وسط البلد اليوم. لا تقلقوا. لو رأيت بوليس أمامي في أيّ مكان،
سأدخل من زقاق، لا يروني فيه، فلن أتأخّر.

ونزل من البيت جاريًا بينما فقدت الأمُّ الوعيَ، وراح الأب يجري إلى غرفتهما،
يحضر كولونيا، ليفيقها.

دقّ تليفون سناء. نظرتُ في الموبايل، فرأتُ رَقْمَ واسم صديقها القوّاد الذي يعمل "خِرتي" مع السّيّاح، والذي طلبتُ حضوره. ما إن فتحتُ عليه لتردّ حتّى صرخ يقول:

- أنا مقبوض عليّ في عربة الترحيلات، وحيأخذوا الموبايل ...

ولم يُكْمِل ...

بهتَ وجهها، وأصابها الجمود. كيف حقّاً تمّ القبض عليه؟ إنه قوّاد معروف، يتخفّى خلف مهنة الخِرتي، والبوليس يعرفه جيّداً. لا بدّ أن حادثة التفجير لم تعطِ الفرصة لأحد للمشّي في الشوارع. ثمّ أصابها الفزع. ماذا لو رأوا رَقْمها الآن في هاتفه المحمول. آخر رَقْم اتّصل به، لا بدّ له معنى هامّ. لن يشفعَ لها في هذه الأيّام السوداء أنها عميلة للأمن. مضى وقت طويل لم تُقدِّم فيه تقريراً عن أحد. كل مَنْ عرفتهم في مقهى البستان قدّمتُ فيهم تقارير للأمن، لكن مراقبة الأمن لهم لم تستدعِ أيّ شخص منهم حتّى للسؤال. هؤلاء الأدباء نشاطهم لعب الطاولة، وكاميرات المقهى تصوّروهم أيضاً. كما أن قلّة السّيّاح جعلتها لا تجد صيداً من أيّ بلد. ماذا ستفعل الآن؟ البوليس بعد أن يرى اسمها في موبايل القوّاد كآخر مكالمة سيشكُّ فيها كثيراً، وهؤلاء ينسون خدمات مخبريهم بسرعة، وخاصّة في ظروف كهذه. أشعلتُ سيجارة، وبدتُ تشعر بالنبذ طيّباً في حلقها من جديد، ثمّ قالتُ في نفسها "فليحدث ما يحدث. فليأتِ البوليس، ويجد لمياء عارية، فلن يحدث شيء. ستكون دليلاً على أنها بعيدة عن أيّ شيء له علاقة بما جرى اليوم. امرأة سحاقية تحبُّ البنات. ما المشكلة؟ البوليس يعرف أنها على كل لون".

وراحتُ تشرب النبيذ. أَحسَّتْ بالجوع شديداً، فذهبتُ إلى المطبخ. أحضرتُ ما كانت طهنتُ من بيض مسلوق وبوم فريت، ومعه علبة تونة، فتحتُها، وجبن رومي وفلمنك وخبز، وعادتُ تجلس تأكل وتشرب أمام التليفزيون. وجدتُ نفسها بالجلباب الذي هو أشبه بالروب، تركتُ أزواره كلها مفتوحة، وتحت الكلوت والسوتيان، فوقفتُ، وخلعت الكيلوت والسوتيان وهي تقول “فلتكن تهمة السحاق حقيقية، فهي أفضل في هذه الأيام السوداء”، وغيَّرتُ قناة التليفزيون إلى قناة الجزيرة. راحتُ تسمع وترى صوراً لشوارع وسط البلد خالية من الناس، ومقاهٍ مغلقة وكمائن بوليس تتكرَّر في كل شارع، وأعداداً تزداد من المقبوض عليهم من البنات والشباب، وهاشتاج يتصدَّر موقع تويتر، تقرأ منه مذيعة:

“في انتظار معرفة مرتكب التفجير، تمَّ القبض على أكثر من مائة. الرجل انفجر بدري، ومات بالغلط، وما خدش حدَّ معاه، إيه ذنب اللي ماشيين يتقبض عليهم؟!”

كانت المذيعة التي تقرأ الهاشتاج جميلة بحقٍّ، لكنها لا تجيد نطق العامية المصرية، فبدأ اجتهداها في ذلك:

“الانفجار، يا جدعان، كَسِّم البلد كلها”.

المذيعة تعتذر وتقول إنها لا تعرف معنى “كَسِّم” هذه، وأنها تتركه للمصريين، فقالتُ سناء “كسمك، يا مذيعة”.

“تلميذة عندي اسمها رانيا ساكنة في شارع معهد الآثار الشرقيَّة جوار المركز الثقافيِّ الفرنسي اتَّصلتُ بي تقول إن أختها خرجتُ حوالي الساعة الثانية ظهراً، ولم تعد حتَّى الآن، وهي لا تعرف ماذا تفعل. أختها اسمها لمياء، وهي طالبة في كُليَّة الآداب بالسنة الأولى، ودي صورتها. اللي يشوفها، يا جماعة، أو

يعرف عنها شيئاً يتَّصل بي على تليفوني أو تليفون رانيا.”.

وقفتُ سناء مندهشة. إنها صورة لمياء، ولا بدَّ كما تقول المدرِّسة إن أختها هي رانيا حقًّا. إذن، لمياء في عُرف العائلة مختفية أو مخطوفة. يوم أغبر. لم تكن رغبة جنسية هي السبب. لا ينقصها إشباع الجنس، فكيف رماها سوء الحظِّ على لمياء التي ستصير الآن ضحية. لا بدَّ أن تنتهي من الموقف.

صَبَّتْ لنفسها كأس نبيذ آخر، وشربته دفعة واحدة، ثمَّ راحتْ تدفن في فمها قطعاً من الخبز المحشوة بقطع التونة، وخلفها البيضة المسلوقة سليمة، وهي لم تأكل قطُّ البيض مع التونة أو السمك من قبل. لقد فعلتْ ذلك، ليكون للمياء حُرِّيَّة الاختيار بين البيض والتونة واليوم فريت والجبن. راحتْ تحشو فمها وراء ذلك بأصابع اليوم فريت بلا عدد. ثمَّ راحتْ تقف في الغرفة، ترقص وتمثِّل أنها تلطم خَدَّيْها. “من سفر لبقاء لرعب من الاتِّهام بأيِّ شيء بعد أن قبضوا على صاحب عمرك الخرتي القوَّاد، وأنتِ المعلِّمة بتاعة المباحث. يالهوك! يا سناء! كله منك، يا بن الكلب” وراحتْ تضرب عانتها المنتوفة كلها بأصابعها، وتسمع صوت الطرقة، وتضحك.

سمعتُ صوت لمياء من الداخل ينادي مُرهقاً “بادية. يا أستاذة، إنتِ فين؟” تسمَّرتُ. “ما هذه البادية؟ البنت تنادي على الصحراء. يالهوي! لقد ضاعتُ تماماً. المهمُّ أنها فاقت وحدها وبسرعة. قوية. وربِّنا دي راجل”.

مشتُ إليها على مهل حتَّى دخلت الغرفة، واقتربتُ من السرير، وتمدَّدتُ جوارها، وأحاطتها بذراعها، وقالتُ:

- أنتِ مع سناء، وليس في الصحراء، يا قمر.

- سناء! سناء مَنْ؟ سناء نفخو أم بلالا يكا؟

راحتُ هي التي لا تفهم ما تقول لمياء تُرِيتُ على خَدَّيْهَا، لُتْسَاهِم في إيقاظها أكثر حتَّى انتبهتُ لمياء، ونظرتُ حولها، ورأتُ نفسها عارية، وسناء عارية إلَّا من الجلباب مفتوح كله من الأمام. مشتُ لمياء بيدها على صدر سناء، وهي تقول "الله. إنتِ حلوة أوي" لكن سناء قالت:

- إنتِ لازم تمشي الآن. لازم تعودى إلى البيت، يا لمياء. لا أحد يعرف ماذا سيحدث هذه الليلة.

سكتتُ لمياء كأنما تتذكّر. هل هي في حلم أم حقيقة؟ إذا كان حلمًا، فكيف لا تتذكّر منه أيّ شيء؟ ودقّ جرس الباب، فأصاب سناء الذعر. لم تتحرّك، فدقّ الجرس مرّة ثانية. تركتُ لمياء، واتّجهتُ إلى الباب. أمامه وقفتُ، فدقّ الجرس مرّة ثالثة دقّات طويلة. نظرتُ من العين السّخريّة، فرأتُ وجه إحسان. تنهّدتُ في راحة، وفتحتُ له، فارتبك حين رآها. لقد نسيّتُ إغلاق الجلباب، وبدا أمامه صدرها وبطنها وفخذاها. قال وهو ينظر إلى الأرض:

- آسف. سأقف هنا. إذا كانتُ لمياء عندك، اجعلها تخرج لي.

انتبهتُ، فتبسّمتُ، وقالتُ دون أن تغلقَ الروب:

- حدّ يشوف سناء، ويدوّر على لمياء؟ ادخل.

وجذبتهُ من قميصه، فلم يقاوم، ولم يشأ يرفع صوته، فيسمع الجيران، وتحدث مشكلة. لكنّ سناء سحبتهُ إلى السرير، حيثُ لمياء ممدّدة عارية قائلة:

- تعالَ نَم بيننا، واستمتع.

وألقت بنفسها جوار لمياء التي انتبهت ونظرت، فرأت إحسان واقفاً، فأصابها الرعب، وانتثرت واقفة جوار السرير، ثم مدّت يدها بسرعة إلى غطاء خفيف على طرفه، غطّت بها نفسها، وخرجت جارية. وقف إحسان يقول لسناء:

- إنتِ إنسانة سافلة لتخدعي بنت صغيرة مثل لمياء. والله لولا الفضيحة للمسكينة هذه، لكنت قتلتك أو أبلغت فيك البوليس.

في الحقيقة، كانت سناء في حالة سُكْر كبير ممّا جرّعته من النبيذ في وقت قصير، ولا تعرف ماذا تفعل. حين قال لها إحسان البوليس قالت "بوليس. بوليس إيه، يا روح أمّك. خليه ييجي وأنا احطّه هنا" وأشارت بين فخذيّها، ثمّ قالت "لمياء دي راجل مش بنت. راجل، وجربّ معاها كده، شوف حتقلبك، وتنام عليك من ورا ولّا لأ".

خرج إحسان مسرعاً إلى الصالة، فوجد لمياء متكومة في فزع على مقعد بين الغطاء، فقال:

- سأنتظرك في الشارع. ارتدي ملابسك، والحقي بي. الدنيا مقلوبة علشانك، وممكن يتمّ القبض عليك هنا.

خرج وظهرت سناء التي بدأت تشعر بشيء من العقل، فأغلقت بعض أزرار جلبابها، واقتربت من لمياء، وجلست جوارها تحتضنها، وتقول:

- سامحيني، يا لمياء. أنا فعلاً غلطانة أني سمحت لك تأتي هنا. أنا فقط طمعت أنام معك. لست لك وأنت لست لي. انزلي إلى إحسان، وانتبهّا عند عودتكما. البوليس في كل الشوارع.

بدأت لمياء ترتدي ثيابها وهي تبكي من صدمة أن رآها إحسان عارية. وقبل أن

تخرج من الباب، قالت لها سناء:

- أختك رانيا اتّصلت بمُدْرِسة لها، أخبرتها أنك مفقودة، والمدرّسة كتبتُ هذا على تويتر. بعد عودتك، اكتبني على تويتر أنك كنتِ عند صديقة، واشكري المدرّسة أو إذا لم تكن لكِ صفحة على تويتر، اجعلي رانيا تتّصل بالمدرّسة تُخبرها. التويّنة زمانها حصل لها رتويت ألف مرّة علشان صورتك حلوة، يا مضروبة!"

وقرصتها في خديّها، لكن لمياء لم تستجب، لا بالابتسام ولا بالاستنكار، وتركت الشّقة ذاهلة، لا تعرف كيف مرّ الوقت.

لم يكن ذلك هو ما جرى اليوم فقط. تناقلتُ مواقع الأخبار على الإنترنت خبراً غريباً عن قطّة صفراء اللون، بها خطوط سوداء في شعّرها صارت تدقُّ البيوت، وحين يفتح الناس يجدونها واقفة تضحك، ثمّ تنزل السُّلّم قافزة. يقولون إن ذلك حدث في عشرات المنازل، ومواقع الأخبار تقول كل دقيقة أنه ازدادت أعداد القطط السّخريّة التي تدقُّ على البيوت. وراحت الأخبار تزداد غرابة، فتحدّثوا عن إحالة قاضي في أميركا إلى المحكمة التّأديبيّة، لأنه في أثناء انعقاد الجلسة، ترك مكانه على المنصّة، ونزل إلى الحاضرين متّهمين ومُدّعين، وراح يُوزّع عليهم سجائر ملفوفة بالحشيش، ثمّ صعد إلى المنصّة، وقال استراحة عشر دقائق، بعدها ستجدون صورة لترامب أمام القاعة، اخرجوا كلكم، وتبولوا عليها. هذا الخبر نشرته مواقع التواصل الاجتماعي بشكل رهيب. تصدّر هشتاج #القاضي - المحشّش "تويتر، ودخل عليه المصريون يُعلّقون ضاحكين، ولا تبتعد تعليقاتهم عن "شفتوا الحرّية، يا اولاد الكلب، دا احنا عندنا بي فصلوا الموظّفين

اللي بيثبت أنهم بياخدوا مخدّرات بعد الأوامر العليّة بتحليل المخدّرات لكل العاملين". وتمّ القبض على عجز في إحدى عربات المترو وهو يوزّع منشوراً كُتبَ فيه "علشان نعلي ونعلي لازم نطاطي نطاطي نطاطي". وقيل إنه بعد أن تمّ القبض عليه، انتشرت منشورات أخرى هابطة من السماء، عليها بيت شِعْر واحد من هذه الأغنية القديمة لسيد درويش يقول "مهما تسمعوا تهجيص، اعملوا روحكم بلاليص" ونزلت إلى الميدان قوّات كبيرة من الأمن، تجمع المنشورات التي لا تتوقّف عن النزول من السماء، ولا يعرف أحد مصدرها. لكن أغرب الأخبار أيضاً كانت عن مظاهرة صغيرة من الشّواذ، ظهرت واختفت بسرعة في شارع شريف، جاي وليزيان ومتحوّلون، يرتدون قمصاناً في لون العَلَم الخاصّ بهم، قوس القزح، بألوانه السيّئة الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي. وتساءل أكثر من شخص كيف حقّاً يمشون بهذه القمصان في الطُّرقات؟! لم يصدّق أحد الخبر، واعتبروه من غرائب الميديا. لكن، من الأخبار التي صدّقها الناس قيام امرأة بدّبح أبنائها من زوجها، لأن ضرّتها الأكبر سنّاً، والتي تقوم بالصرف على البيت من أموالها، أقنعت زوجها أن يُجبرها على ذلك، وأن الزوج استطاع إقناعها، ولم يدّر أنها أيضاً وجدت في ذلك انتقاماً منه، كما فعلت ميديا بياسون في الأسطورة اليونانية حين أراد أن يتزوَّج بأخرى، فقدّمت له رؤوس أطفالهما الثلاثة هدية للزواج في علبة جميلة. كان هذا الحادث محلّ انقسام بين متابعي الميديا، فَمَنْ يقول إنها مجنونة، وتستحقّ القتل، إذ كيف تُوافق زوجها على قتل أبنائها، ومَنْ يقول إنها مسكينة، لا سند لها في الحياة، والقاتل هكذا هو زوجها. لكنّ هذه الحكاية ذكّرتهم بحكاية سابقة. حكاية شابّ ألقى بطفليّه في النيل في إحدى قرى محافظة الدلتا، وكيف قُبض عليه، فأنكر، وقيل إن مَنْ قتلهم هم مسؤولون كبار، كان يعمل معهم في تهريب الآثار، واتّهموه بسرقتهم، وهدّدوه، إذا اعترف عليهم، وأنه لا بدّ أن يعترف على نفسه، وإلّا قتلوا أيضاً أخاه وأخته وأُمّه وأولاد أخته. انقسم مَنْ قرؤوا

الخبر بين مقتنع بأن شخصاً يمكن أن يقتل طفليّه في هذا الزمن الصعب، لكنّ، أن يقتلها غيره، ويعترف هو خوفاً على نفسه أو أهله أمر من الصعب تصديقه. وهناك مَنْ أوجز ما حدث كله بأن المرأة قاتلة أطفالها وزوجها فقراء بينما الشّابّ قاتل أطفاله غنيّ، وهكذا صار قَتْلُ الأولاد قَدَرًا على المصريّين. لكنّ، هناك مَنْ دخل على مواقع الإنترنت يضحك ويقول "احمدوا ربّنا، لقد شاهدتُ فيلماً لا أذكر عنوانه لبراد بيت عن وباء نزل بأميركا، يجعل الناس وحوشاً، يأكلون بعضهم".

لم تجد سينمات وسط البلد زبائن في حفلات الساعة السادسة والساعة التاسعة، لأن المقاهي مغلقة، والنزول إلى وسط البلد مغامرة. لكنّ، فجأة امتلأت المقاهي بالشباب والفتيات، ونُشرت صورها على الميديا، وجرتُ سيّارات البوليس إلى المقاهي، فوجدتها خالية، ونُشرت صورها خالية أيضاً، ومغلقة بالفعل، ثمّ سرعان ما امتلأت من جديد، ولكنّ، كلّما حضرتُ قوَّات الشرطة صارتُ خالية، ولا أحد يعرف سرّ هذه الظاهرة. وكان إحسان في طريقه إلى البيت مع لمياء، وعرف أن المقاهي في منطقة معروف أمام سينما زاوية مفتوحة، لأنها في مكان متوارٍ عن غيره، فاقترح عليها أن يجلسا هناك، ويتحدّثا على راحتهما فيمَ جعلها تفعل ذلك اليوم؟! علّ ذلك يساعدها. كانتُ هي تريد أن تختفي من أمامه، فهي تكاد تموت، لأنه رآها عارية. لكنها طاوَعَتْهُ منهزمةً، وذهبا بالفعل، لكنّ، لم يجداً أحداً. وجدا مقهى واحداً فاتحاً أبوابه، وما إن جلسا حتّى جاءهما الجرسون، رجل عجوز في حوالي السبعين من عمره، سألهما ماذا يشربان؟ فطلبتُ لمياء عصير مانجو، لأنها جائعة، وطلب إحسان قهوة مضبوطة. قال لهما الرجل أرجو أن تشربا بسرعة، وتنصرفا، لأن دوريات من الشرطة تمرُّ وتشتبه في أيّ جالس بالمقهى. اندهشا كيف يقول ذلك، والمقهى مفتوح. كان جالسا قريباً منهما عجوزٌ آخر في حوالي السبعين أيضاً، ينظر إليهما، ويبتسم، فألقى عليه إحسان التّحيّة، فازدادت ابتسامته، وقال

لهما "اسمعا كلامه. سيتم القبض عليكما في أي لحظة" سأله إحسان كيف إذن يفتح المقهى أبوابه، ويقول لهما الجرسون ذلك؟ فقال لهما "هذا عمله. يفتح المقهى بأوامر البوليس، لكنه يرشد الناس إلى الهروب، فيرتاح ضميره، ولا يستطيع البوليس أن يجبره على الإبقاء على أحد" ظهر الخوف على وجه إحسان ولمياء التي كانت مرهقة جداً، فقالت "نقوم أحسن ونروح بسرعة" لكن إحسان سأل العجوز "طيب، وحضرتك كيف عرفت هذا كله؟" فابتسم وقال "أنا مخبر" ارتبك إحسان، ووقفت لمياء مذعورة، ووضع إحسان ورقة بعشرة جنيهاً على المنضدة، وأشار للجرسون أن يأخذها، ولا يأتي بالمشروبات، وانصرفا على عجل إلى شارع شامبليون، فوجدا تاكسياً خالياً، أشار إليه إحسان، وركباه، وصارت لمياء في ارتباك كبير، تقول يا رب، يا رب، يا رب، فانزعج السائق، وقال لها "مالك، يا مدموازيل؟ اهدئي، بالله خيليني أعرف أسوق" قال إحسان "مرعوبين والله، يا اسطى. يقولون إنهم يقبضون على الناس في وسط البلد منذ وقع الانفجار" فقال لهما "ضرب النار كان صباحاً، وكان بعيداً عند المنصة في مدينة نصر، والسادات انقتل خلاص، والناس كلها نازلة الشوارع تتمشى رغم حظر التجوال." أصابتهما دهشة كبيرة جداً، والتفت إحسان ينظر إلى لمياء الجالسة في الخلف، فقال السائق "اسمعوا. ها هي عربة مصلحة الاستعلامات ماشية تنادي على الناس. سامعين ما تقوله؟ أيها الشعب، إذا كان السادات قد مات، فكلنا أنور السادات. والناس ولا هي هنا هايسة في الشوارع رغم حظر التجوال، وبعد بكرة العيد الكبير، وكله محضر الذبيحة بتاعته، يا عم. هذا شعب ملعون، مالوش حل" لم يستطع إحسان أن يتوقف عن الضحك، ولمياء أيضاً ضحكت، وقال السائق "تضحكان عليّ؟! يعني أنثما لا تريان ما أراه. هذا عيبكم، يا شباب. لا تُصدّقون العجائز من أمثالي. خلاص أنا سأسمع وأشوف وحدي، لكن، أنت، يا أستاذ، شاور لي على الطريق، علشان أنا أصلاً ليس معي رخصة، ولا أريد أن أفقد الطريق، فأجد نفسي أمام البوليس. وعلى

أيّ حال خُد هذه، هي جريدة المساء اليوم. جريدة المساء كما تعرف تظهر صباحاً الساعة الحادية عشرة والجرائد الصّباحيّة تظهر الساعة الحادية عشرة أيضاً، لكنّ، بالليل قبل أن يبدأ يوم جديد. شوف جريدة المساء الكذّابة مثل غيرها ماذا قالت في الصفحة الأولى. "وكان قد مدّ يده إلى التابلوه أمامه، وأخذ من فوقه الجريدة مطويّة. تناولها إحسان، وفتحها. وجدها جديدة، لم يبدُ أنه قد مرّ عليها الزمن، وقرأ المانشيت "الرئيس السادات يحضر العرض العسكري بمناسبة نصر أكتوبر العظيم، ويعود إلى منزله" أصابه ارتباك شديد وهو ينظر إلى السائق الذي تخيّلته شبحاً عائداً من كهف قديم، وأصابه الرعب حقيقة، لكنّ، لم يكن أمامه غير أن يُكمِل معه. ستقابله الأشباح في كلّ مكان. أخذ يشير إلى السائق أن يعبر ميدان التحرير إلى الكورنيش إلى جاردن سيتي، ثمّ شارع القصر العيني، ثمّ يعود في اتّجاه التحرير، ويدخل يميناً من عند عمارات العرائس، ثمّ يميناً، ثمّ يساراً إلى شارع بيت لمياء، وبيته خلفه، ولا يُصدّق أن الرجل يستمع إليه، ويطيع إرشاداته. ترك الجريدة التي طواها على مقعده، ونزل ليحاسب الرجل. أعطاه عشر جنيهات، فقال الرجل "هذا كثير جدّاً. جنيه يكفي وزيادة. البنزين لسّه بخمسة قروش اللتر"، لم يجد إحسان شيئاً يقوله. ترك العشر جنيهات للرجل، ودخل بلمياء بيتها، وكانت هي تبكي، وتكاد تقع على السُّلّم حتّى صارا أمام باب الشّقّة. وجدا أمام باب الشّقّة القطّ الأصفر الذي تناقلت الأخبار خبر طرّقه على الأبواب، لكنهما لم يكونا من متابعي هذه الأخبار. أَرعَبهما القطُّ، إذ رَأَتْهُ لمياء يدقُّ بقَدَمه الصغيرة على باب شَقَّتْهم، وما إن أحسَّ بهما حتّى حيَّاهما بقَدَمه اليمنى باسمّاً، وقفز قفزة كبيرة، اختصر بها مسافة كبيرة من السُّلّم إلى الدور الأسفل، واختفى، وتهاوت لمياء إلى الأرض بهدوء، فأحاطها إحسان بذراعه اليسرى بينما دقّ الجرس بيده اليمنى، لكنّ أبا لمياء كان يفتح الباب بعد أن سمع دَقَّات القطّ، وما إن رأى المشهد حتّى صرخ "بنتي"، وحملها مع إحسان إلى الداخل.

اعتذرتُ لأستاذتها بادية عن عدم ذهابها إليها يوم الخميس، كما أنها لم تذهب إلى الكُليَّة غير اليوم الأحد. كانتُ سعادتها كبيرة بأن والدها قرَّر أن يأخذها إلى الدكتور مختار صابات في مصر الجديدة. المدهِش أنه حين اتَّصل ليحجز موعداً بالعيادة، لم يجد موعداً إلَّا بعد شهر. قال لها وقالتُ أمُّها أيضاً "المهمَّ أن نبدأ. وعليكُ نسيان كل ما جرى منَّا. سنقف معك ونواجه العالم كله"، وقالتُ رانيا ضاحكة وفي ذهول "يعني كذا حبيقي لي أخ. حاجة حلوة برضه" وضحكوا جميعاً. كان هذا بعد أن انصرف إحسان مشكوراً منهم جميعاً. كادتُ هي تقبِّله وهو ينصرف، ولم تفعل. أحاطوها بالشفقة، وقدَّموا لها طعاماً، كانتُ في حاجة إليه بعد أن أفاقوها بالكولونيا قريباً من أنفها، وتركوها لتنام مطمئنة بعد أن اتَّصل والدها بالعيادة التي حصل على رَقْمها من الإنترنت أمامها، وحجز الموعد في اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر القادم. نامتُ هي بعد أن تناولتُ طعامها نوماً عميقاً. حين استيقظتُ في الصباح قرَّرتُ أن تكون الأيام حتَّى يوم الأحد الذي ذهبتُ فيه إلى الكُليَّة خروجاً إلى المقاهي ولعب الطاولة مع إحسان أو غيره من الأصدقاء، لكنها لن تذهب إلى مقهى البستان، فلا تريد أن ترى سناء مرَّة أخرى. على الأقلِّ الآن. كان الذهاب معها أشبه بالكابوس، والعودة من عندها أشبه بحلم غريب، لا تُصدِّقه حتَّى الآن. صارتُ تضحك وهي تتناول إفطارها، وتذكَّر سائق التاكسي العجيب الذي عادتُ معه هي وإحسان. كانتُ أحياناً تضطرب حين تتذكَّر أن إحسان رآها عارية. لكنها أشفقتُ عليه في نفسها قائلة "أكيد شاف راجل".

أنفقت الصباح التالي لعودتها من عند سناء حتَّى الظهيرة مع أمِّها، وحين أرادت الخروج، قالتُ لها أمُّها:

- أخشى أن أطلب منك البقاء هنا اليوم أيضاً تتضايقين. لكن، ربّما تكون المقاهي مغلقة.

قالتُ هي:

- لن أتضايقَ. على العكس. أحتاج إلى مزيد من الراحة. سأمضي معكِ النهار في المطبخ، وسأساعدكِ في كل عمل، وغداً سأمضي معظم اليوم في الخارج. سأدخل سينما زاوية آخر النهار، لأجلس على المقاهي التي أمامها. سأصحب رانيا معي، وأرجو أن توافقي. هناك أسبوع لأفلام يوسف شاهين، وغداً فيلم “عودة الابن الضالّ”.

ابتسمتُ أمّها، وقالت:

- كنتُ أحبُّ أفلامه زمان رغم أنها كانت صعبة. رانيا لن تستوعب الفيلم، لكن، لا بأس، خذيها تؤنسك.

كان ما يشغلها هو أنها تريد أن تجلس على المقهى نفسه الذي جلستُ عليه مع إحسان لترى هل لا يزال الرجل العجوز الذي علّق على كلام الجرسون موجوداً أم لا؟! وهل هناك حقاً جرسون عجوز أيضاً كما رأيتُ وسمعتُ أم أن الأمر كله كان حلماً؟! سائق التاكسي الذي عادتُ وإحسان معه جعلها لا تُصدّق أيّ شيء. لكنها أيضاً اشتاقت إلى الكُليّة. ليس لِقَاء أستاذتها، فبيتها موجود، لكن، لِقَاء الطُّلاب الذين جلستُ معهم من قبل. عابدين ومُريد ومحسنة وسونيا رغم أنها لم تندمج معهم كثيراً. لقد وجدتُ على الفيس بوك طلب صداقة من عابدين ومُريد. لا يعرفان أن الـ “دودة وبتنقر” هي لمياء طبعاً. وكذلك وجدتُ طلباً من سونيا. وافقتُ على الطلبات، وأرسلتُ لكل منهم رسالة بأنها هي لمياء التي قابلتهم في الكُليّة. فرحوا بها، وأرسلوا إليها زهوراً ورموز محبة. سألتُها

سونيا لماذا لم تظهر؟ خافت أن يكونوا عرفوا أنه تم القبض عليها، لكنها أرسلت إليها قائلة "البيرود قوية وزائدة عن المعتاد" ردّت عليها سونيا قائلة " خلاص. سنسميك مادام إكس" ضحكت، ولمّا دخلت على صفحة عابدين، وجدت بوستا يقول:

"الطالب إسماعيل عبد الله الذي نسي موبايله على ماكينة الفحص في الكُليّة، وقبضوا عليه، بسبب ما وجدوه على الفيسبوك، لا يعرف أحد من أسرته أين هو الآن. اختفاء قسري لطالب من كُليّة الآداب بسبب الفيسبوك".

ارتبكت من البوست، وأرادت أن تخرج من الصفحة، فوجدت مُريد يُعلّق على البوست قائلاً:

"هو الثاني بعد الطالب أنور عبد العال الذي قبضوا عليه من بيته عند الفجر في اليوم الأسبق".

ووجدت تعليقاً من محسنة:

"لماذا تسكت الكُليّة والجامعة على القبض عن أيّ طالب منها؟ أليس من عملها أن تحمي طلابها؟"

هؤلاء الطُّلاب لم يظهروا كما هم على الفيسبوك حين قابلتهم. كانوا أقلّ غضباً، وكان اهتمامهم بالسياسة أشبه بحبّ الاستطلاع. الآن ترى أن الأمر يشغلهم جدّاً. هل وقعت بين مجموعة من الثوّار، ولا تعرف؟! هل تُلغي الصداقة معهم؟! لكنها تذكّرت أن محسنة لم ترسل إليها طلب صداقة، فأرسلت هي الطلب!

فجأة شردت لحظات، وأحسّت بشجاعة تنتشر في رأسها وجسدها، فكتبت بتركيز وقصد، لا تعرف ماذا تريد منه:

“قرأتُ أكثر من موضوع في الصحف المصرية عن الترانس جيندر. كله كلام لا أساس له من الصّحة. كما أنهم يسمّونهم المتحوّلون. والحقيقة أن الترجمة الأفضل هي العابرون. إنهم يعبرون من جنس إلى جنس، ولا يتحوّلون إليه، لأنهم يُولَدون وبهم خصائص واضحة لجنس ذكوري أو أنثوي بينما الخصائص غير الواضحة هي الأقوى لجنس آخر، وهي التي تُعَذِّبهم حتّى يعبروا إليها. إلى حقيقةهم. ليت الصحف المصرية تتوخّى الحذر في التعامل مع هذا الموضوع. وتُفرّق جيّداً بين المرض النّفسيّ والمرض العضوي. ميل الرجال إلى الرجال مثلاً أو النساء إلى النساء ليس علامة على الترانس جيندر. هذا أقرب إلى المرض النّفسيّ. باختصار الترانس جيندر هو عبور الرجل أو الأنثى إلى الجنس الآخر.

بالنسبة للرجال

M2F

أي

Male to Female

والعكس صحيح. ثمّ إن الترانس جيندر ليسوا مجرمين. ولا حتّى المرضى النّفسيّين من “الجاي” أو السُّحاقيّات. هؤلاء وأولئك يستحقّون الرعاية من المجتمع والناس. في البلاد المتقدّمة كثيرون منهم نجوم كبار. هل تحبّون أن أكتب لكم بعض الأسماء الشهيرة جدّاً. خذوا هذه الأسماء. ...”.

وانتقلتُ تبحث عن أسماء لمشاهير من الترانس جيندر على الإنترنت، وعادتُ بهذه الأسماء، كتبتُها في البوست قائلة “سأعطي لكم مجرد أمثلة، فالقائمة طويلة، ويوماً ما سأزيد فيها، وأحدّثكم عن الكثيرين والكثيرات، وعن السّياسيّين

أيضاً، وعن الترانس جيندر في التاريخ:

نساء كنّ رجالاً:

1 - كارمن كاريرا

Carmen Carrera

“ممثلة وعارضة أزياء”

2 - أماندا ليبور

Amanda Lepor

“ممثلة ومغنية”

3 - لافيرنا كوكس

Laverna Cox

“ممثلة في قناة نتفليكس”

4 - كارولين كوسي

Caroline Cossey

“موديل إنجليزية وممثلة، وظهرت مع جيمس بوند في فيلم

For Your Eyes Only

وكانت أول موديل من الترانس جيندر في مجلة البلاي بوي عام 1882

رجال كانوا نساء:

1 - تشاز بونو

Chaz Bono

“كاتب وموسيقيار ونجم البوب”

2 - راي سبون “موسيقيار ومؤلف لكتاب مع إيفان. أ. كويوت عن الجندر، عنوانه

Gender Failur“

3 - ريتشارد أوبريان

Richard O,Brian

“كاتب وممثل”

4 - إيان هارفي

Ian Harvie

“ممثّل كوميدى”

أحسّت بسعادة كبيرة، وبالقوة تدبّ في روحها. فكتبت:

“العبارات من الرجولة إلى الأنوثة هم الأكثر في العالم، لكنّ، في عالمنا العربي والإسلامي أزمتهنّ مرعبة، فالمجتمع لا يقبلهم، وربّما يوماً أكتب لكم تفاصيل

من هذه المأساة. كثير من الترانس جيندر في العالم صاروا نشطاء، يدافعون عن أصحاب هذا المرض، لكن، في بلادنا ينعدم الدفاع إلّا نادراً. ولا تلوموني أنا الذي أسميهم "بالعابرين" إذا قلتُ أحياناً "المتحوّلين" فالسائد يسبق إلى العقل، لكن، المهمّ أنها رحلة مضيئة. لا أريد أن أشغلکم بالنسبة المئوية للترانس جيندر في كل بلاد العالم، لأنها تزيد كل يوم. أريد فقط أن أذكّرکم بأنهم بشر مثلكم، ويستحقّون الرعاية والاهتمام، لا السخرية والمعاملة السيئة. لقد شاهدتُ حلقة تليفزيونية بشعة جدّاً على إحدى القنوات المصرية مع فتاتين عبرتا من الرجولة إلى الأنوثة، وراحت المذيعة تسخر منهما بطريقة رديئة، وبأحكام رجل متزمت على امرأة ضعيفة، وتتهمهما بأنهما اعترضتا على حكم الله، وأنهما ما زالت بهما آثار الرجولة، بينما كان واضحاً من كلام المذيعة وطريقتها أنها هي الخشنة السلوك، وهما بنتان لطيفتان، تعرفان رقة المرأة، وليس معنى أن مقياس قَدَم واحدة منهما 40 أو حتّى 41 كما قالت المذيعة أنهما رجُلان، فما أكثر النساء اللَّاتي أقدامهنّ على هذا المقياس وأكثر. مقياس القَدَم ليس مقياساً للرجولة ولا الأنوثة، إنما هو الطبع والرّقة والسلوك. للأسف، بدت المذيعة قاسية بينما بدت البنتان في رقة فاتن حمامة زمان. طبعاً قد يشغل أحدكم باله بما هي علاقتي بهذا الموضوع. ليس لي أيّ علاقة، لكني أعرف فتاة تعاني الأمرين، بسبب ميلها الرجولي، وقد أشرح لكم التفاصيل يوماً، إذا رأيْتُها مرّة أخرى. والآن أترككم مع ما يحدث في البلاد، فأنا لا أريد أن أعرفه".

قالتُ لنفسها هذه بدايات قوية لتواجه هذا العالم القاتل. رغم أنها تشاءمت من مشوارها مع سناء إلّا أنه فتح لها أبواب الأمل. لقد وضعتُ أباهَا وأمّها على الطريق الصحيح.

لأنها قرّرت أن تذهب مع أختها إلى سينما زاوية في حفلة الساعة الرابعة، تركت البيت في الساعة الثانية، ومعها أختها. قرّرت أن تجلس بالمقهى ساعة على الأقل قبل دخول السينما. قرّرت أيضاً أن تذهب مشياً إلى هناك رغم طول المسافة. تريد أن ترى الشوارع التي أحسّت بعد العودة مع سائق التاكسي الغريب أنها من عالم آخر. وصلت في حوالي الساعة الثانية والنصف. تعمّدت أن يكون زيها اليوم كامل الأنوثة في شكله. ليس إلا البنطلون فقط لم تشأ أن تُغيّره بفستان. لكنها ارتدت فوقه جاكيت خفيفاً أنيقاً، تحته بلوزة من الحرير، فيها ورود ورموز جميلة. الجاكيت قصير، والبلوزة تركتها فوق البنطلون بلونها الأرجواني، تجذب الناس لا بدّ من الخلف، وهي ترتخي على رديفها. ارتدت في يديها أكثر من غويشة من الأحجار الكريمة ممّا تحتفظ به أمّها التي اندهشت جدّاً من كونها تفعل ذلك، وهي التي كانت تعاف المظاهر الأنثوية من قبل. بل أكثر من ذلك، حرصت على أن لا يكون فوق شفتيها التي وضعت فوقهما روجاً أيّ أثر لشعر ينبت، ولا حول خديها ممّا بدا يزعجها فجأة، لأنها تعرف أن من سيراه، سيعتبرها فتاة قبيحة، وليست فتاة تعاني من هرمونات، تتوجّه بها إلى الذكورة، ولا تحتاج إلا إلى زيادة منها أو عملية جراحية. حين دخلت عليها أمّها الحجر، وجدتها تضع على أظافرها طلاء أظافر، تتعدّد ألوانه بشكل مثير. اندهشت أمّها أكثر، وسمعتها لمياء وهي خارجة تقول "لله في خلقه شؤون". لا تعرف أمّها لماذا قرّرت لمياء أن تبدو اليوم كأنتى مغرية. لقد قرّرت أن تدخل عالم النساء بقوة غير مكترثة بما تشعر به لتعرفه ولو لوقت قصير. ما الذي يمنعها أن تستمتع بحياتها كفتاة لبعض الوقت حتّى ترتدّ إلى أصلها المدفون في جسمها وروحها؟! حتّى لو ارتكبت خطايا، فسيكون الأمر مضحكاً جدّاً فيما بعد حين يقابلها شخص ما تعامل معها كأنتى، وقد تحوّلت إلى رجل. لا بدّ سيضحك، لكنه في نومه قد تأتيه الكوابيس. صارت تضحك وهي تمشي تفكّر في هذا الانتقام الذي تتوق إليه بعد أن استجاب أبوها وأمّها لصرخاتها. لا ذنب لأحد فيما

ستفعل، لكنها عرفت ممّا قرأته في الأساطير القديمة أو عنها أن المرأة أصل الخطيئة وأصل الحروب، ولقد جاء الوقت لتُجرّب ذلك ضامنة أنها ستخرج من هذا العالم الأنثوي. كانت أختها رانيا ترى بسمتها وهي تمشي ممسكة بيدها وتندهش حتّى قالت لها وهما يعبران ميدان طلعت حرب:

- فيمَ تفكّرين لتضحكي هكذا؟

زادت ابتسامتها، ولم تردّ عليها، وتوقّفت فقط عند محلّ فتحي إبراهيم للعاديات والدخان جوار مكتبة مدبولي، ودخلت اشترت دفتر ورق بافرة، وقليلًا من الدخان، وضعتُه في حقيبتها، ومشّت وأختها في ذهول:

- تُدخّنين، يا لمياء؟

- أحيانًا. حين أكون مبسوطة.

- لو ماما أو بابا عرفا سيقتلانك.

- ماما تدخّن، وإن ليس أماننا، وبابا حشّاش كبير.

- لمياء! لا يصحُّ هذا الكلام.

ضحكت وأحاطت كتف أختها بذراعها، وقالت:

- هزار، يا عبيطة.

ودخلتا من قبل مول طلعت حرب إلى سينما زاوية. وجدا أكثر من مقهى مفتوحاً، فوقفت لمياء تنظر حولها. تريد أن ترى الآن الجرسون العجوز أو الرجل العجوز الذي قال عن نفسه أنه مُخير. لم ترَ أيّاً منهما. راحت تدور بعينيها أكثر.

هل كانت هنا أول أمس حقاً أم في الناحية الأخرى من شارع قصر النيل في
مقاهي منطقة البورصة التي أغلقت من زمان وربما تكون انفتحت في الحلم أو
الكابوس؟ هنا، ولا يمكن أن تخطئ. على أي حال، كان المقهى أمام السينما.
أشارت لرانيا أن تجلس، وتقدمت إلى السينما. حُجزت تذكَرتين، وعادتُ إليها.
باغتتها رانيا قائلة:

- أنا جائعة.

- وأنا أيضاً.

- ما رأيك نديها كشري. محلّ أبو طارق قريب من هنا.

- ماشي. روجي اشترى علبتين صغيرتين، وأنا في انتظارك. لا تتأخري.

ثمّ فجأة أمسكت بيد رانيا، وسألتها:

- كيف عرفت أن (أبو طارق) قريب من هنا؟

ضحكت رانيا، وقالت:

- يا لمياء، أنا أعرف كل مكان في وسط البلد. هل تظنّيني من المدرسة للبيت،
ومن البيت للمدرسة؟! نحنُ نزوغ أيضاً من المدرسة كما الصبيان، ونأتي ندخل
سينما أوديون هنا.

ابتسمت وقالت:

- يا بنت الإيه. دا انا عمري ما عملتُ كدا.

- حتعملي يا اختي أكثر. كلها كم شهر وتصبحين رجلاً، ولا أحد يقدر عليكِ.

- امشي، يا مجرمة.

قالت لمياء ذلك ضاحكة، ومشّت رانيا من أمامها بسرعة وهي تضحك أيضاً. نظرت لمياء حولها أكثر من مرّة، ثمّ توقّفت. لا يجب أن تشغل نفسها بما حدث أمس. لعلّه بالفعل كان حلماً رائئاً بعد أن أغمي عليها أمام البيت. فتحت الموبايل على الفيسبوك كما تفعل عادة ويفعل الناس جميعاً الآن حين يجلسون في مقهى أو وسيلة مواصلات أو في البيوت. رأت تعليقات كثيرة جدّاً على ما كتبتّه عن الترانس جيندر أمس، قرّرت أن لا تهتمّ بها. وقبل أن تنتقل إلى الصفحة العامّة رأت أمامها فتاة تقف في يدها صينية من الألمونيوم صغيرة فارغة تسألها ماذا تشرب؟ اندهشت. الجرسون فتاة، وليس رجلاً. إذن، لم تجلس هنا أوّل أمس! إلى أين أخذها إحسان حقّاً؟ وجدت نفسها تسأل الفتاة التي تلفّ رأسها ووجهها بحجاب فوقه برنيطة صغيرة:

- حضرتك تشتغلي هنا من زمان؟

ابتسمت الفتاة، وقالت:

- منذُ شهر تقريباً. صاحب المقهى زهق من الرجال، وقلبها نسوان.

ضحكت وقالت:

- أنا أسألك بجد. أصل أوّل أمس جلست هنا، وكان الجرسون رجلاً.

- أوّل أمس؟ أوّل أمس كله كانت المقاهي مغلقة بسبب الحادثة الإرهابية في شارع قصر النيل.

سكتت لحظة، وقالت:

- طيّب. هاتي لي ليمون بالجنزبيل. قصدي قرفة بالنعناع. يوه. قصدي ليمون بالنعناع.

كانت مرتبكة بحقٍ. وانصرفت الفتاة ضاحكة، واتّجهت إلى مجموعة صغيرة من البنات والصبيان تقف أمامهم تسألهم عن طلباتهم، وتكتب في ورقة صغيرة معها، ثمّ اتّجهت داخل المقهى. كانت المجموعة الصغيرة تنظر إلى لمياء وهي ذاهلة عنهم لا تدري بوجودهم. بالصدفة وقع نظرها عليهم، فرأى أنهم زملاؤها بالكلية. عابدين ومُريد ومحسنة وسونيا. ابتسمت لهم، وضحكوا هم، وقالت سونيا:

- وحدك؟

وقفت، واتّجهت إليهم، وقالت:

- معي أختي الصغيرة. فرصة حلوة نقعد سوا. أنقذتوني.

جلست، فسألتها محسنة:

- ممّ أنقذناكِ؟

قالت سونيا ضاحكة:

- من الوحدة، يا ضنايا.

ضحكوا وضحكت، لكنها قالت:

- أنا أتكلّم جادّة. أنا محتارة جدّاً. أوّل أمس في المساء كنتُ هنا، وكان المقهى مفتوحاً بينما كل مقاهي وسط البلد مغلقة. وجدتُ الجرسون رجلاً عجوزاً، ووجدتُ رجلاً عجوزاً آخر يجلس هنا مكانكم. تكلّمتُ معهما وتكلّما معي، والآن الجرسونة تقول لي إن المقهى كان مغلقاً، وإنه لا يعمل بها جرسونات رجال أصلاً.

تبادلوا النظر مبتسمين، وقال عابدين:

- أنتِ لم تُكلمي شهر في قسم الفلسفة، ويحدث لكِ كل هذا الخيال. ماذا سيحدث حين تصلين إلى الصّفّ الرابع مثلنا؟

ضحكوا، وقالتُ محسنة:

- أعرف شخصاً يقول إنه أحياناً بالليل يرى القاهرة نفسها تمشي تذهب إلى الإسكندرية.

ضحكوا بصوت عالٍ، لفت نظر القليل من الجالسين، لكن سونيا قالت:

- لكنّ، أنتِ اليوم أجمل كثيراً.

وأمسكتُ أصابعها تنظر في طلاء أظافرها، وقالتُ:

- يا سلام على الجمال! حتّى أصابعك صارت أطرى!

كادتُ تشعر بالرضا، لكنّ، قال عابدين:

- بالمناسبة، يا لمياء، لماذا كتبتِ البوست الخاصّ بالترانسجيندر؟ هل يهمكِ الموضوع؟ هل تعرفين بنتاً هكذا حقّاً؟

لم تعرفُ ماذا تقول. هل تشكر سونيا على الإطراء أم تجيب عابدين على السؤال؟! ابتسمتُ وقالتُ بعد لحظة:

- الحقيقة أعرف. قابلْتُها مرَّة، لكنها اختفتُ من المقهى بعد ذلك. الموضوع قفز إلى ذهني بدون مبرر.

وظهرتُ رانيا قادمة تحمل علبتين من الكشري، فحمدت الله. ستنشغل عنهم لحظات بالأكل. كانت الفتاة الجرسون قد أقبلتُ بالطلبات، فطلبتُ لرانيا شاياً ولها أيضاً ستشربه بعد الأكل، وشربت الليمون في البداية، ثم بدأتُ تأكل في الكشري وهم يتحدثون.

لقد استقبلوا رانيا بالترحاب، وقالتُ سونيا عنها إنها جميلة جدًّا، واندعشا من خضرة عيونهما معاً بينما قرَّرتُ أن تشرد عن كلامهم حتَّى يأتي موعِد دخول قاعة السينما. نجحتُ أن تفعل هذا، ودخلوا القاعة جميعاً، فكان مقعدها وأختها في ناحية، وهم في الناحية الأخرى. لم يكن هناك كثيرون بالقاعة. ربَّما لا يزال الناس يخشون الجلوس بالمقهى أو الذهاب إلى السينمات. تركتُ نفسها للفيلم العجيب الذي رأيته وصبرتُ عليه كما لم يحدث من قبل حين رأيته في التلفزيون. حين انتهى الفيلم، وأضاءت الصالة، فوجئتُ بها ممتلئة عن آخرها. أين كان هؤلاء الناس؟ ودوى التصفيق عالياً تحية للفيلم وتحية ليوسف شاهين، وخرجتُ وأختها في يدها، وأشارتُ لأصحابها إشارة وداع، ومشيتُ تغني بصوت غير مسموع "الشارع لنا. احنا لوحدها. والناس التانيين دول مش منا" من أغنية ماجدة الرومي الجميلة في الفيلم، وإذا بأختها رانيا تسألها:

- معقول هشام سليم كان حلو كدا؟

فقلتُ لها:

- ما هو لَسَّه حلو، يا بَطَّة.

مرَّت الأيام ولمياء في تألُّق، تزداد عنايتها بأنوثتها كل يوم. كانت حين تندهش من ذلك تهزُّ رأسها، كأنها تُلقي عنه أيَّ وسواس. حرصتُ أن تلتقي بأستاذتها بادية يوم الخميس مبكراً عند الظهيرة في بيتها. تمضي معها أربع أو خمس ساعات فوق الخيال من المتعة. أدركتُ بادية أن تغييراً حدث في لمياء، فصارت أكثر رقة، ليزداد هجوم لمياء الذكوري عليها. لقد عرفتُ منها أن هناك موعداً مع الدكتور مختار صابات يقترب، وكانت تتخيل أنه مع اقتراب الموعد فإن لمياء ستُهمل أكثر مظاهر أنوثتها حتَّى تقترب نفسياً ممَّا يريد جسدها فيزيقياً، لكن ذلك لم يحدث. أدهشها ذلك، فسألتها:

- لقد أصبحتِ أكثر أنوثة. هل لديك تفسير؟

- أريد أن أعيش أنوثتي بعض الوقت قبل أن أفقدها.

سكتتُ بادية قليلاً، وقالتُ:

- لكن، هذا يرجِّح أن ميلك الذكوري نفسي أكثر منه طبيعي.

- أنا لا أعرف ماذا أفعل. صدِّقيني.

سكتت الدكتورة قليلاً، وقالتُ:

- هل يمكن أن يتطوَّر الأمر؟

- بمعنى؟

- بمعنى أن تمارسي الجنس مع صديق مثلاً.

- يمكن. لكنني لا أريد. لن أتحمل أسئلة من نوع لماذا صدرك صغير جداً، ويكاد يكون فلات. أنا أختار مَنْ أفعل معه ذلك. حتّى الآن حضرتك فقط، وفعلتها منذُ أيام مع مرشدة سياحية.

لم تُعلّق الدكتورة، فقالت لمياء:

- كان يوم أسود. ذهبتُ معها إلى شقّتها في شارع الجيش، فحدثتُ في الطريق الحادثة الإرهابية، وفي عودتي، فقدتُ الطريق. جلستُ على مقهى، اختفى بعد ذلك.

ابتسمت الدكتورة بادية، وقالت:

- خيالاتك كثيرة. كيف يختفي مقهى؟ لكن، لا بأس. يمكن أن تكتبي قصصاً.

وسكتا معاً. كانتا عاريتين فوق السرير. قالت الدكتورة بادية:

- هل حين تبدئين في العلاج ستستمرّين معي؟

- لو بدأ بهرمونات ذكورة حتّى أقوم بالجراحة. سيخرج المدفون داخلي. هل تكرهين أن أكون ذكرك؟ يا اخواتي!

قالت الكلمة الأخيرة بمتعة وفرح، فأخذتها الدكتورة في حضنها، ومدّت يدها بين فخذَيْها، وقالت:

- طيّب، اتركييني أبحث عنه.

ضحكا معاً، وقالتُ لمياء:

- خدي بالك، أنا مش ناقصة دم. كفاية الدم اللي في البلد.

كانتُ تقصد غشاء البكارة.

ونزلتُ لمياء من عند أستاذتها كما تنزل كل مرّة، وقد اتّسع بها العالم حتّى إنها لا ترى أحداً في الطريق.

في يوم واحد، تمّ القبض على مُريد وعابدين من بيتيّهما. لاحظتُ أن سونيا ومحسنة تجلسان وحدهما في الكافيتريا، وأنها حين اقتربتُ منهما لا يتحدّثان. سألتُهما لماذا تجاهلا الحديث معها فجأة هكذا؟! قالتُ سونيا:

- بعد القبض على عابدين ومُريد هناك من الطلّبة مَنْ يشكُّ فينا، لأننا أصدقاء عابدين ومُريد. سمعتُ طالباً يقول إن بين الطلّبة مخبرين، وكان ينظر إليّ.

سكتتُ هي تفكّر، وقد يكون صمتُهما لأنهما تشكّان فيها أيضاً. لكنها قالتُ:

- وأنا الذي فرحتُ باللقاء معكما، أفقد اثنتين، ويشكُّ الجميع في بعضهم. وماذا فعل مُريد وعابدين ليتمّ القبض عليهما أصلاً؟

قالت محسنة:

- الفيسبوك مراقب، وتويتر وكل الميديا. يقبضون على مَنْ ينتقد النظام بينما الإرهاب لا يزال في سيناء. يا ربّ، عابدين يظل يكلمهم عن زينون حتّى يطرده وكيل النيابة.

ابتسمت سونيا، لكنّ لمياء لم تضحك أو تبتسم. كانت تفكر كيف أن الناس تكتب على الفيسبوك آراءها، فيتم القبض عليها، فيحدث شك في الآخرين؟ أمر غريب. هل تحتاج الدولة الآن إلى مخبرين بحق، وهي ترى كل شيء على الإنترنت؟! بل إن جوجل يصور كل شيء. الموبايلات مفتوحة على التّجسس، تُصور أصحابها، وتُسجّل أحاديثهم أيضاً. عليها أن تنسى ما حولها، وتركّز في شهوتها التي تريد إشباعها كأنثى قبل أن تعبر إلى شاطئ الرجال، فبعده ستنال من الشهوة ما يفي رجال العالم كله. لن تترك امرأة دون أن تغريها بالنوم معها رغم أنها قرأت أنه من الصعب أن يكون للمرأة التي تتحوّل إلى رجل عضو ذكري كبير. يقولون على المواقع إنه قد لا يزيد عن خمسة سنتيمترات. بوصتان يعني. لكن، هناك من الأطباء من يقول إن صاحبه قد يصل إلى لحظة الأورجازم. وحتّى لو لم تصل لن تترك امرأة. ستعمل على الهجرة من البلاد حتّى لا يكون الأمر صعباً، كما هو في مصر. ستمارس حياتها مثل أستاذتها بادية وسافو التي تحبّها. سافو التي كانت من جزيرة ليزبوس في القرن السابع قبل الميلاد. والتي بحثت على الإنترنت، لتعرف عنها ما هو أكثر. الآن عرفت. يقولون إن كلمة ليزبيان تُنسب إلى ليزبوس موطن سافو. كما أن السحاق كلمة أصلها سَحَق المرأة لرفيقتها. كم سحقت أستاذتها وسحقتها. سافو التي خذلها زوجها الذي أصابه العجز الجنسي، وأقامت معهداً لتعليم الصبايا من الأسر الموسرة فنون الموسيقى والشعر والحب والحياة صرن هنّ عالمها، وتركت الرجال، كما تفعل بادية مع تلميذاتها. وكما تفعل هي الآن حتّى يأتي يوم تفعله كرجل مع النساء. المرأة لا تتغير رغم التاريخ. تُعيد تشكيل العالم من رغباتها. أشكال الجنس لا تتغير، وأشكال الحب أيضاً دائماً في غابة الجنون. "أتيس" اسم عشيقتها الأكثر خلوداً عن غيرها. سافو التي قالت "حين تمر، أيها الغريب بين المقابر، لا تقل هنا شاعرة ميتة، فلن يُشرق يوم أبداً إلّا وفيه اسم سافو" سافو التي قال عنها أفلاطون إن الموزيات ربّات الفنون لسنّ تسعة، فالعاشرة سافو. سخر منها

أوفيد حين قال: "ماذا علّمتُ سافو فتياتها إلّا أن يمزجنَ الحبَّ بالنبيد؟" وهل لم
تفعل ذلك، يا أوفيد؟! لقد فعلتهُ أنا مع سناء، وفعلتهُ مع بادية، وسأفعله دائماً.
هذا ما تعشقه النساء، وتعبرنَ به الزمان، فلماذا تحسدونهنَّ على هذا العشق؟
وراحتُ تتذكّر بالعربية بعضاً من أشعار سافو التي قرأتها بالإنجليزية ...

من السهل جدّاً أن يكونَ واضحاً للجميع
كيف أن هيلين التي فاق جمالها كل البشر
تخلّتُ عن أفضل الأزواج
وأبحرتُ إلى طروادة
دون أن تفكّر في طفلها
ولا في والدَيها
بعد نظرة واحدة تمّت فتنتها بها.

لساني يحتكُّ بفمي الجافّ
نارٌ تنتشرُ تحت بشرتي
عيناى لا تستطيعان الرؤية
وأذناى تتألّمان

بالزئير يتردد في متاهة داخل كليهما.

في الحب تكمن القوة

التي لا يستطيع أحد أن يقاومها

ومن ثم، فيقيني أنه لا مفر أن أتبع

حبيبي في الطرقات

إن بريق ضحكها يعطيني الفرحة الأعظم.

من كل الفرسان الأبطال المدججين بالملابس البرونزية.

أحبك، يا آتيس، أنت وحدك منذ زمن بعيد

فأنت أفروديت التي صنعتها بيدي

ملكة الحب الوحيدة

من الذهب الذي تلمع خيوطه أمامي

تشعل العقل بالنار

فيخضع على ركبتيه.

قلْ لكل الناس

إنني اليوم. الآن

سأُغْنِي من كل قلبي

من أجل متعة أصدقائي

ما أجملك، يا سافو ...

في البيت، دخلتُ غرفَتها، وتمدّدتُ فوق السرير مبتهجة، فدخلتُ عليها رانيا
فجأة مكسورة الروح هشة، تكاد تقع وهي تُغمض عينيها حتّى إنها جلستُ
أمامها فوق السرير، واندفعتُ تبكي:

- مالك، يا حبيبتى؟

واعتدلتُ تأخذها في حضنها.

قالتُ رانيا:

- أنا خائفة.

- ممّ؟

- الإحساس الذي عندك بالرجولة متى ظهر؟

نظرتُ إليها بدهشة كبيرة، وسألتُها:

- منذُ الطفولة. أكيدِ إنتِ فاكِرة كيف كنتُ أحبُّ اللعب مع الأولاد أكثر من البنات.

وسكتتُ رانيا، فاستطردت لمياء:

- قولي، يا حبيبتي. تكلمي، لا تخافي.

- هل يمكن أن يكون وراثياً؟

مالتُ لمياء برأسها إلى الخلف، إذ أدركتُ ما تفكّر فيه أختها، وأخذتها في حضنها
تضحك وتقول:

- أنتِ زيّ القمر، وممكن فقط أن تتحوّلي إلى عروسة البحر.

صارتُ رانيا تبكي وتضحك، ومسحتُ هي لها دموعها بورق الكلينكس القريب
منها، وقالتُ:

- إياكي أن تسألني ماما عن ذلك. ستقوم حريقة في البيت، ويمكن يتوقّفوا عن
علاجي.

ثمّ سكتتُ لحظة، وقالتُ:

- بصراحة كان مفروضاً ألاّ تعرفي شيئاً عنيّ، لكنّ الخلافات جعلتكِ تعرفين. حقّك
عليّ.

قالتُ رانيا:

- كدا كدا، كنتُ حاعر ف برضه.

وقفتُ لمياء، وقالتُ:

- هَيَّا بنا، نتفرَّج على التليفزيون. مسرحية “الزعيم” لعادل أمام سنُّذاع بعد قليل. هَيَّا، نضحك بعد أن رأينا الفيلم الصعب ليوسف شاهين!

لم تنتبه لمياء إلى رسائل إحسان لها في الفيسبوك إلا وهي تشرب القهوة بكافتيريا الكليَّة. كان عابدين ومُريد قد أطلق سراحهما بعد أيَّام قليلة، وتجمَّعوا معاً من جديد. عابدين يضحك وهو يحكي عن المساجين الذين كانوا معه في قسم البوليس التابع له. قسم الدُّقِّي. بينما كان مُريد شاردًا يهزُّ بين حين وحين رأسه غير مُصدِّق ما رأى. وحين سأله هل ضربوك؟ قال لا. لكن، كان معه رجل مُسنٌّ، قُبض على ابنه من قبل بتهمة الانتماء لجماعة إرهابية، ولا يعرف له مكاناً منذ ستَّة أشهر حتَّى قبضوا عليه هو. في أثناء عرضه على النيابة، عرف من محاميه أن ابنه ظهر أخيراً في نيابة أمن الدولة. الرجل من فرحته مات. دمعتُ عيون البنات الثلاثة. وقال مُريد:

- الإفراج عنَّا أمر مفرح حقًّا، ليس لسوء الحبس أو السجن، لكن، مؤكَّد أن القصص التي كنَّا سنقابلها في السجون لا تُحتمَل.

قالتُ محسنة:

- نريد أن ننسى ونحتفل بكما. نشاهد فيلماً أو مسرحية، وليتكما تُقِلَّان من الكلام في السياسة على الفيسبوك، ما دام وراءه مصيبة هكذا. أحسن شيء نفعله هو أن نصبر إلى أن ننتهي من التعليم، ونهاجر أوروبا.

قال عابدين:

- أنا فعلاً أفكِّر أن أدرس لغة فرنسية أو ألمانية أو أيّ لغة في مركز ثقافي

أجنبي، لأتعرّف على بنت أجنبية، وأسافر معها. يقولون إن الذي يتزوَّج أجنبية يحصل على إقامة، وإذا أنجب منها، يحصل على الجنسية.

نظرتُ إليه سونيا، وقالتُ:

- طيّبٌ، نحنُ البنات، ماذا نفعل؟

ضحكوا. قال مُريد:

- تتزوَّجنَ من أجنبي. سهلة جدًّا.

قال عابدين ضاحكًا:

- لكنّ، أنا أسمع أن الرجال الأجانب غير مختونين.

حطّ عليهم الصمت والدهشة حتّى قالتُ سونيا:

- الله ياخذك، يا شيخ.

فانطلقوا ضاحكين.

كانتُ لمياء وسط كل ذلك ذاهلة عنهم، تقرأ رسائل إحسان. عشر رسائل يقول إنه لا ينتظر ردًّا على أيِّ منها.

رسالة رَقْم (1)

لا تندهشي، لمياء، أني أكتب إليك رسائل هنا رغم أني يمكن أن أراك كل يوم. ما يحدث هو أنك عندما تغيبين عني، أشعر أنك في بلد بعيد.

رسالة (2)

لا تقولي عني مجنون، لأنني أستطيع أن أقول لك هذا الكلام مباشرة. لكن، مَنْ يستطيع أن يقول ما يريد لمن يحبها دون أن يتلعثم في الحديث. الرسائل "سفينة" لا يُوقِفها موج.

رسالة (3)

لا تسألني كيف لم أُعير لك عن ذلك من قبل. فأنا كنتُ مشغولاً لعامين كاملين برسم صور لك. قبل أن أنام، أتأملها كل يوم. ولما كدتُ أعتبرها الحقيقة، قرّرتُ أخرج من الوهم، وأحدّثك.

رسالة (4)

لا أعرف سرّ اضطرابك في الأيام الماضية. ولا أرسل الرسائل لأخفّف عنك ما لا أعرفه. لكن، لأنني صرتُ مضطرباً أيضاً، قرّرتُ أن أصارحك بحبي، لعلنا نعود إلى ثباتنا معاً.

رسالة (5)

أصبحتُ أذهب إلى عملي في مركز الفنون مبكراً جداً كل يوم، أنا المشهور بالغياب والكسل، وحين يسألونني ماذا جرى؟! أضحك، ولا أقول الحقيقة، وهي أنني أسمع صوتك كل يوم مع الفجر يناديني من خلف النافذة.

رسالة (6)

هذا الحب أفهمه جيّداً. قلتُ لنفسني أوّل مرّة أشعر به منذُ عامين أنه بسبب لقاء أمّي وأميّ وحضورنا معهما معظم اللقاءات. وقلتُ لنفسني إنه بسبب جرأتك

في الخروج معي أكثر من غيري، كأني سند لك، لكنني اكتشفت أنه ليس ابن التَّعوْد، بل ابن الرسائل غير المكتوبة التي يرسلها لي كيوبيد من قلبك مشاعر تصيبني بالفرح.

رسالة (7)

سامحيني إذا كنتُ اعتذرتُ لك يوماً عن اللقاء في المقهى. كان السبب أنك في غرفتي نائمة.

رسالة (8)

هل تعرفين لماذا رسائلتي قصيرة؟ ليس لأنني كنتُ أودُّ أن أكون شاعراً. لكن، أودُّ أن يكون لديَّ أسرع الشهود على حيي، وهو مارك زوكينبرج ورجاله، فلا أرهقهم بالحديث الطويل.

رسالة (9)

هل يكون مناسباً أن أتقدّم إلى خطوبتك الآن؟

رسالة (10)

سأترك هذه الرسالة خالية. إذا وجدتَ فيها دماً، فلا تهدريه. أعيديه إلى قلبي بلقاء اليوم الساعة الثالثة في مقهى الهناجر بالأوبرا بعيداً عن صخب القاهرة.

أضفتُ إليها الرسائل همّاً، لم تكن تتوقّعه هي التي أرادتُ أن تستمتع بالنساء دائماً. هل حين رآها إحسان عارية رآها أنثى حقّاً؟ كم شعرتُ بالميل إلى

إحسان من قبل، لكنَّ ميلها إلى الذكور كان يُرعبها. ماذا يمكن أن تفعل الآن؟

تركتُ زملاءها دون حديث، ومشيتُ صامتةً إلى مكتبة الكُليَّة. لن تحضر اليوم المحاضرة الأخيرة التي ستكون في الساعة الثالثة. لا معنى أن تترك إحسان يبني قصوراً في الهواء. لكن، هل حقاً تستطيع أن تحدّثه عن حالتها، وما تعانيه؟ سيُصدِّقها بلا شكٍّ. لكن، كيف ستكون الصدمة عليه، وهو يكتشف أنه عشق رجلاً لا امرأة؟! كيف يمكن أن يتحوَّل الأمر إلى حكاية ساخرة حتّى ينجو إحسان من هول الصدمة؟! ستذهب إلى المكتبة، وتستعير أيَّ كتاب، وتجلس لتقرأه بعيدة عن الحديث مع أيِّ أحد. وستكتب له رسالة طويلة بما تعانيه، وما ينتظرها عند الدكتور مختار صابات الذي اقرب موعده. أجل. لا تستطيع أن تواجهه مباشرة بالحقيقة. هي لا تخجل حقاً. لكنَّ الأمر أكبر من قدرتها. وتساءلتُ هل يكرهها القدر وهو يفاجئها بهذا الحبِّ، في وقت تستعدُّ فيه للهروب من عالم النساء، حوريات الجنَّة التعساء على الأرض؟! ودخلتُ إلى المكتبة، واستعارتُ مجلِّداً إنجليزياً عن سافو التي عشقْتُها، وجلستُ تقرأ فيه.

لم تستطع أن تقرأ بتوحد عن سافو أو شِعْرها. أربكها أنها تريد أن تكتب إلى إحسان. فتحت الموبايل على الفيسبوك، وكتبتُ له رسالة:

“هل يمكن أن نؤجِّل اللقاء حتّى أجمع دمي الذي تبعثر في الطُرقات.”

لم تكن تكذب، لكنها كانتُ تشعر بعمق المأساة أن يحبَّها شخص كل هذا الحبِّ، وهي على وشك الخروج من كوكب النساء. ما هذه الحياة التي تمشي بنا عكس الاتجاه دائماً؟!

ودقَّ موبايل طالب من الجالسين بالمكتبة، فتردَّد مقطع من أغنية "حاجة غريبة"
لعبد الحليم حافظ وشادية:

يقول عبد الحليم:

"إحساس غريب قبل النهار ده ما جرّبتوش"

وتردُّ شادية:

"وشعور جميل عمري فى حياتي ما عرفتوش"

ثمَّ الاثنان معاً:

"إيه اللي جرى لنا، احنا بنحلم ولا بنحلم!"

كلّمني قول!"

وقبل أن تقول في نفسك "ماذا يفعل هذا المجنون؟! هل يعرف برسائل

إحسان؟! ردَّ الطالب على مَنْ تطلبه، وقال:

- اتركيّني الآن. أنا مشغول في المكتبة. لو لم تأتِ لأقابلك اليوم بالليل، فعلاقتنا

تكون انتهت!

تجهّمت، ثمَّ ابتسمتُ في ذهول. أعادت الكتاب، وانصرفتُ من المكتبة.

هل هذا حقيقي في بلادنا؟! كانت تسأل نفسها بعد اللقاء مع الدكتور مختار صابات. يمكن أن يقوم بالعملية الجراحية دون فترة تأهيل طويلة، لأن الجينات الذكورية لديها أكبر، وتكاد تنفجر، ممّا سيُسبّب لها مشاكل عديدة، إذا لم يتمّ استئصال المظاهر النسويّة، وخاصّة الفرج والمهبل والرحم. لكن العملية الجراحية ستتكلّف على الأقلّ نصف مليون جنيه. كان السؤال: وهل هناك خطر؟ لا. صارت عادية جدّاً. ولديه في مستشفى الخاصة اثنان سيتحوّلان إلى جنس النساء، وثلاثة سيتحوّلن إلى جنس الرجال. المهمّ أن الأمر لن يتمّ بقرار منهم ومنه، بل بقرار من هيئة من الأطباء بوزارة الصّحة وموافقة الأزهر. لماذا؟ لأن الله خلقها على هيئة جنس معيّن، وتحويلها إلى غيره تدخّل في شرع الله، ومن ثمّ، لا بدّ من موافقة الأزهر. الأزهر هو الوكالة الدّينيّة. وهل سيوافق الأزهر؟ طبعاً، وهذا أمر عاديّ، فلا داعي للقلق.

عاد الأب والأمُّ ولمياء من عند الدكتور صابات صامتين. الأب يفكّر في النصف مليون جنيه، والأمُّ تفكّر فيها أيضاً، لكنّ، أكثر في فرصة النجاة لابنتها. هي كانت صامته، لا تتخيّل وقع الصدمة على مَنْ يعرفها. ماذا سيفعل إحسان الذي اكتفت برسالتها إليه، ولم تقابله؟! وماذا ستفعل أستاذتها بيداء وهي ترى أنثاها ذكراً؟! هل ستنظر في وجهها مرّة أخرى؟ هل ستستدعيها في شقّتها من جديد؟ بل هل ستتحملّ أنها تعرّت وأظهرت كل جسمها لولد قام بعمل كل شيء، بل لَحَسَ كل مكان فيها؟ هذه الأستاذة التي لا يعرف عنها أحد إلّا الشرف والنزاهة، والتي تختار شريكاتها من فتيات ضائعات أمينات، لا يكشفن سراً أبداً، وإلّا كانت شهرتها في ذلك قد عُرفت. هذه الأستاذة ماذا ستفعل؟ قالت وهي تنفض ذلك كله عن رأسها "وأنا مالي؟!" وابتسمت، لكنها أيضاً قرّرت

أن تُحوّل نفسها من قسم الفلسفة إلى قسم اللغة العربية أو الآثار أو اللغة الإنجليزية. ستختار أبعد قسم عن قسم الفلسفة في المكان، فلا تقابلها مرّة أخرى، ولا تسبّب لها أيّ حرج. لكنها اشتاقت إلى أستاذتها، وقرّرت أن تقابلها المقابلة الأخيرة. ابتسمت من جديد وهي ترى نفسها مثل إلهة للشّر الخفي.

قالت الأمّ فجأة:

- الأفضل بعد العملية أن نترك البيت إلى حيّ آخر. ولو استطعنا أن ننقل إلى بلد آخر مثل الإسكندرية، يكون أفضل. أجل. يجب أن ينسانا أصحابنا وجيراننا.

لكن الأب هزّ رأسه ساخرًا، وقال:

- الخبر سينتشر في كل الدنيا. يمكن جدًّا أن يعرف به طالب في كُليّة الإعلام، فيُسرّبه إلى الصحف كلها. بل ويمكن أن تكون البرامج التلفزيونية على اتّصال بالدكتور صابات، وتعرف منه الجديد في عملياته، ويقومون بعمل حوار مع مرضاه. المهمّ أننا لا نرتكب جريمة. ثمّ إننا كنّا نحلم بولد ذكر، وها هو الله سيمنّ به علينا بعد ثمانية عشر عامًا.

قال ذلك، وأخذ لمياء في حضنه، يقبلها على خديّها بينما كانت دموعها تتسرّب من عينيّها. لكن الأمّ قالت:

- طيّب. المهمّ أن يوفّقها الله في التوافق النّفسي مع عالم الذكور بعد العملية.

ضحكت رانيا، وقالت:

- أيّ توافق؟ لمياء بمائة رجل. دا أنا كل ما اسلّم عليها حتكسر إيدي.

ضحكوا، وانصرف كلّ إلى حجرته. ذهبت هي إلى سريرها غير مصدّقة أنّها

ستنتقل. ستعبر إلى شاطئ الرجال بهذه السرعة. أفضل شيء أن تكتب على صفحتها على الفيسبوك ما يشجعها ويلهيها عن أيّ خوف أو قلق من العملية الجراحية. وكتبت:

“انشغلتُ هذه الأيام عن الفيسبوك إلى حدٍّ ما. طبعاً كانت أكثر تعليقات على ما كتبتُه من قبل عن الترانسجيندر، وأهمّها لماذا أهتمُّ بهذا الموضوع؟! اهتمامي ليس جديداً. إنه أسبق من الفتاة التي قلتُ من قبل إنني أعرفها. اهتمامي منذُ عرفتُ مرّةً أن فتاة اسمها سالي رياض كانتُ عابرةً من الرجولة إلى الأنوثة، وكانتُ تظهر بمقهى البستان. ولأن الحديث كان فجأةً بين بعض الشباب، يسألون عنها، وكيف اختفتُ، وعرفتُ أنه تمَّ عمل مسلسل تليفزيوني مستوحى من حكايتها. طبعاً باعتباري خريجةً مدارس أجنبية، وأقرأ جيّداً بالإنجليزية، قرأتُ شيئاً من الأدب والنقد، وأعرف أن المسلسل لا بدّ أن يكون فيه خيال. وأن الأدب والفنَّ عموماً ليسا هما الحقيقة. لكنهما صورة من صور الجمال. لكنني وجدتُ نفسي لا أعرف لماذا أبحث في التاريخ عن بعض المشاهير. العابرون الآن كثيرون جدّاً، وكما كتبتُ من قبل هم مشهورون في مجالات كثيرة، وبصفة خاصةً الفنون والآداب. إنهم يواجهون في أميركا مشكلة الآن، حيثُ إن الرئيس ترامب استطاع إقناع القيادات العسكرية أن لا يسمحوا لهم بالخدمة في الجيش. قال في تغريدة له إن الدولة غير مستعدةً أن تتحمّل نفقات العمل ونفقات المرض إذا اعتبرناه مرضاً. قال بالضبط “جيشنا يجب أن يركّز على النصر الحاسم والساحق، ولا يمكن أن يتمَّ إثقاله بالتكاليف الطيّبة الهائلة والتعطيل الذي يحدث قبل انضمام العابرين للجنس إلى الجيش” وهو يقصد هنا طبعاً العمليات الجراحية والعلاج الذي يجب أن يتمَّ قبل أن يأخذ الشخص دوره في التجنيد. أنا لا أعرف هل التجنيد إجباري أم اختياري في أميركا؟! ولا يهمني في هذا الموضوع كله غير التمييز السخيف الذي فعله أو

يفعله ترامب بينما سابقه باراك أوباما كان قد أنهى هذا الموضوع لصالح انضمام العابرين. هذا التمييز لا يجب أن تقع فيه دولة مثل أميركا، وكان يمكن لترامب أن يقول إن عددنا كبير وماجتش على دول! على الطريقة المصرية يعني. كان أريح. ليس هذا هو المهمّ. سأطيل عليكم الكلام. سامحوني. أو سأجعله في أكثر من بوست. وهنا ينتهي هذا البوست”.

لكنها توقّفتُ. وجدتُ أنه لا حاجة لأن تتكلّم كثيراً في المسألة. ما دامتُ لا تستطيع الآن أن تعبّر عن فرحتها، فلتسكت. راحتُ تقرأ في الصفحة العامّة بوستات مَنْ لهم صداقة معها:

“قرأتُ قصّة قصيرة لكاتب يصف فيها شخصاً عائداً إلى البيت آخر النهار. فجأة وجد أن النهار قد اختفى، ولم يأتِ الليل .. القصّة أرعبتني جدّاً”.

لم تُكْمِلْ قراءة البوستات. أصابها الرعب أيضاً.

صار إحسان يظهر كثيراً في المقاهي. بعد رسالتها الوحيدة له التي أرجأت فيها الإجابة على رسائله، لم تعد تردُّ على مكالماته. طلبها على الموبايل مرّتين، ولم تردّ، فلم يشأ الاستمرار. لا معنى للاتّصال، ولا بدّ سيعرف الإجابة الفاصلة يوماً.

صار يجلس في مقهى الحُرّيّة أكثر ممّا يجلس في مقهى البستان الآن. الحُرّيّة واسعة وكبيرة، وفيها جزء لشرب البيرة، بالإضافة إلى إمكانية شربها في الجزء الآخر. إحسان في الخامسة والعشرين من عمره. قويّ البنية. أنيق في ملبسه. يترك شَعْرَه في ضفيرة طويلة وراء رأسه على طريقة بعض الفنّانين.

عيناه سوداوان واسعتان مثيرتان في الحقيقة. ترك ذقنه كثيفة وشاربه. هو فنّان تشكيلي، ويعمل في متحف الفنون بالأوبرا، ويستعدُّ ليوم، يقيم لنفسه معرضاً تشكيليّاً. ليس بمتعجّل. يريد حين يقيم معرضاً أن يكتب عنه النُّقاد ما يجعله شهيراً، وما يجعل لوحاته مطمَّعاً للجاليريهات الخاصّة. يعرف أنه سيحظى يوماً بمال كبير رغم عدم حاجة أسرته إلى المال. لقد كان الأوّل على دفعته منذ ثلاث سنوات. ورغم أنه لا يوجد عمل الآن بوزارات الدولة، لكن وزير الثقافة الذي كان في لجنة الامتحانات في آخر سنة له بكليّة الفنون، باعتباره أستاذاً للفنون، ولا يزال قرّر أن يستثنيه ويضمّه للعمل. وحين قال إنه لا يحتاج إلى العمل، فلدى أمّه جاليري في جاردن سيتي وهو يساعدها في العمل فيه، ويمكن أن يتفرّغ للعمل به، أقنعه الوزير بالعمل الحكومي الذي لن يعطّله عن العمل الخاصّ، وسيفتح له طُرُق السفر إلى الخارج في معارض دولية. هذا الوزير ترك الوزارة الآن، وإحسان حريص على أن يحضر أيّ ندوة، يعرف أنه يساهم فيها تقديراً لما فعله معه. كما أنه يُعجّب دائماً بحديثه عن الفنون. في آخر لقاء، وكان ذلك منذ شهر، قال له الأفضل لك أن تجد طريقة للسفر إلى فرنسا، والدراسة في السوربون. كاد يطلب منه أن يساعده في ذلك، لكنه أدرك أن الوقت قد جاء ليصارع لمياء بحبّه. أحسّ أنه صار ضعيفاً هشّاً، إلى درجة أنه يضحّي بمستقبله ليتزوَّجها. الآن لا يتراجع. بل يشعر أنها "تقل" عليه فقط. لكن الأيام تمرّ. إنه ينظر إلى نفسه كل صباح، ويتأكّد له جماله وقوّته. يعرف أنه وأسرته يشرفون أيّ عائلة. أخوه خبير في الأعمال البنكية في دبي، وأبوه أحد أعضاء مجلس إدارة البنك الأهلي، وأمّه صاحبة جاليري شهير في جاردن سيتي. ليس فيه ما يجعل أيّ فتاة تتردّد. لماذا تفعل لمياء ذلك؟ لو أن في الأسرة ضغطاً عليها من أجل شخص آخر، كان يمكن أن تقول له. ولو أن لمياء متعلّقة بغيره كان سيعرف. هو من بين الأصدقاء مَنْ كانت تحدّثه بالهاتف المحمول كل يوم تقريباً. ومن بين كل الأصدقاء، تذهب معه إلى المقاهي، وتلعب معه الطاولة، وتتناول معه

الطعام في المطاعم. لا يستطيع أن يعرف السِّرَّ، فلماذا لا يجرّب الذهاب إلى البيت والحديث مع أمِّها؟! الأمُّ مدخل أفضل من الأب الآن. سيذهب لأنه لا يريد أن يظلَّ الحبيب الرومانسيّ الصابر الذي يغني مع عبد الوهاب "وعشق الروح مالوش آخر، لكن عشق الجسد فاني".

لم يطل الوقت، وكان يقرع جرس شقّة أسرة لمياء. رأته أمُّها من العين السّخريّة، ففتحت الباب مرعوبة، تقول:

- هل حدث مكروه للمياء؟

ارتبك، ثمّ قال:

- أنا لم أرها.

- طيّب، تفضّل، يا إحسان. شفتك لوحذك، قلت ربّما قابلت لمياء، وحدث لها شيء سيّئ، وجئت تقول لي.

سكت، ومشى خطوات قليلة، ثمّ جلس في الصالة الواسعة التي فيها أكثر من مكان للجلوس. قالت الأمُّ:

- أريد أن أشرب قهوة. هل تشربها معي؟

ابتسم وهزّ رأسه موافقاً يقول:

- أجل.

دخلت الأمُّ المطبخ، وهو راودته فكرة شيطانية. ماذا يحدث لو دخل غرفة لمياء بسرعة، يُلقي نظرة عليها؟! ابتسم. لا معنى لهذا. ليس لأن الأمّ لن تطيل في

عمل القهوة، لكن، كيف حقاً يقتحم حصون الناس؟!

كانت الساعة حوالي الثانية ظهراً. اندهش من كون رانيا غير موجودة. طبعاً هو يعرف أن الأب يتأخر في محلّه، وأن لمياء لا بدّ في الكليّة. لكن رانيا طالبة الثانوي لماذا تتأخر هكذا؟

سأل الأم:

- أين رانيا؟

- عندها دَرس بعد المدرسة في اللغة الألمانية. غاوية ألماني، وتقول إنها لازم تهاجر في يوم من الأيام، وإن الهجرة لألمانيا أسهل من كثير من الدول.

ابتسم وقال:

- وحضرتك وباباها موافقين على الهجرة؟

قالت باسمّة:

- نحنُ نوافقها على الكلام، لكن، حين تكبر أكثر سيضع ربنا في طريقها ابن الحلال، وستتزوّجه وتبقى في مصر.

وسكتت الأم لحظة، بدأت فيها تحتسي القهوة، ثمّ سألتها، إذ رأته مطرقاً، ينظر إلى الأرض:

- لكنك لم تقل لي. لماذا أتيت الآن في هذا الوقت. هل هناك شيء هامّ؟

قال باسمّاً:

- أنتهي من القهوة، وأقول لحضرتك.

سكتا. كان وجه الأمّ قد بدأ يشتعل بالاحمرار. ليس خجلاً، لكن، انتظاراً لمفاجأة تستحق أن يأتيَ بها إحسان في وسط النهار، وهو يعلم أن لا أحد في البيت غيرها.

انتهيا من القهوة معاً، وسألها:

- لن أطيلَ عليكِ، يا تانت. أريد أن أتزوَّج لمياء.

تهلّل وجه الأمّ بالفرح. لكنها أدركتُ وضع لمياء، فخيّم اليأس عليها. راحتُ تهزُّ رأسها في أسف، وتضغط شفّتيها في بعضهما. لم تعرف هل تنفجر باكية أم تضحك وتُخبره أن لمياء ما هي إلّا أيّام وتدخل في طابور الرجال؟!

قال:

- أنا أحبّ لمياء جدّاً. بصراحة منذُ عامين، وأنا أحبُّها. تأكّدتُ الآن أنني لا يمكن أن أحبّ غيرها، وأن مصيري مرتبط بها.

ظلتُ صامتة تفكّر. أرادتُ أن تجد لها مخرجاً، فسألتُ:

- هل بابا وماما يعرفان؟

- أجل.

كذب عليها حتّى لا تقول له خذ رأيهما أولاً، ولأنه يعرف أنهما لن يمانعا. وهي ارتبكتُ أكثر، واهتزّ رأسها، ثمّ عادتُ للسكوت، ولمّا طال الصمت، سألتها:

- هل أطلب شيئاً مستحيلاً، يا تانت؟

- لا، أبداً. أجمل طلب، يا إحسان. أنت جميل مثل مامتك وباباك وأخوك. أنت ابن عائلة جميلة، تتمناها أيُّ أسرة.

سكت لحظة خجلان من الحديث الطيّب، ثم قال:

- سأقول لحضرتك سرّاً. لقد أرسلتُ إليها أطلب خطوبتها، فردّت أنها ستُحدّثني قريباً، ثمّ لم تتحدّث. أكثر من أسبوعين الآن. لم تعد حتّى تتّصل بي.

سألته:

- هل أرسلتَ إليها رسالة بذلك؟

- عشر رسائل على الإن بوكس في الفيس بوك.

نظرتُ إليه مندهشة في ابتسام، فقال:

- ورسمتُ لها بورتريهات في البيت دون أن تكون أمامي، أحتفظ بها، وأتفرّج عليها كل يوم قبل أن أنام.

طالتُ نظرتها المندehشة إليه، فقال:

- آه والله.

وضعتُ رأسها على كفّها الأيسر لحظة، ثمّ قالت:

- دعني أنا أعرف لماذا تأخّرتُ في الرّدّ عليك. دعني أمهّد الطريق. لمياء ليس لها غيرك.

وقف سعيداً، لا يُصدِّق. صافحها، وقبلها على وجنتيها، كما يتعوّد أحياناً حين يكون سعيداً باللقاءات العائلية معهم، ثمّ خرج. أغلقتُ هي الباب، واستدارتُ، وجلستُ على أوّل مقعد منفجرة في بكاء المقهور.

لم يكن إجراء العملية الجراحية ليتمَّ بسرعة. احتاج إلى شهر آخر حتَّى يحصل الدكتور مختار صابات على موافقة اللجنة الطَّيِّبة وموافقة الأزهر. كلَّما مرَّ الوقت، كانتُ لمياء تزداد جمالاً، وتنغمس أكثر في شهوتها مع أستاذتها بادية التي ظهرت في آخر لقاء متردِّدة، كأنما تفكِّر كيف ستري لمياء شاباً بعد ذلك. أحسَّت لمياء بما عليه الأستاذة من ارتباك، فقرَّرتُ أن لا تذهب إليها من جديد. صارتُ تذهب إلى الكُلِّيَّة، لا تُكَلِّم أحداً ممَّن يقابلونها، وإذا دخلت الكافتيريا، ورأت زملاءها السابقين، لا تُقبل عليهم، ولا تتحدَّث معهم. أثار ذلك فضولهم، لكن محسنة وسونيا طلبتا من زملائهما عابدين ومُريد أن لا يهتمَّا. قالتُ سونيا "قد يكون هناك ما يشغلها، ثمَّ إنه لم يطل الوقت بها معنا، ولم تتطوَّر الصداقة على أيِّ حال".

كان شهر ديسمبر يتقدَّم، ومعه أخذ الطقس يميل إلى البرد، فتغيَّرت ثياب الجميع. لم تعد ثيابا صيفية ولا شتوية بعد، لكنها بين بين. ظهرت كوفيات على أكتاف البنات والصبيان وجواكت أو سويترات خفيفة. فكَّرتُ لمياء أنه من الأفضل أن تقابل إحسان، وأن تشرح له أزمته المقرَّر عبورها قريباً. لقد طال الوقت الذي أهملتهُ فيه، وليس هكذا تكون العلاقة بينهما، فالصداقة راسخة، وإن لم يصل الحبُّ إلى قلبها نتيجة هواجسها التي لازمتهُ منذ سنوات عن جنسها. إذن، فلتقابله غداً بعد صلاة الظهر، فهو يوم الجمعة، يمضيه كله جالساً مع مجموعة من الفنَّانين الشباب في مقهى الحميدية أو الحُرِّيَّة. هم يتنقَّلون بينهما على أيِّ حال. لن ترسل إليه رسالة، ولن تهاتفه. ستفاجئه بين أصحابه، وتأخذه بعيداً، تذهب به إلى حديقة الأوبرا، ويجلسان في كافتيريا الهناجر، حيثُ يمكن أن ينغردا بنفسيهما رغم تردُّد الفنَّانين والكتَّاب ممَّن يعرفهم إحسان على

المكان.

في المساء بعد أن انفردتُ بنفسها في غرفتها مع الفيسبوك، قرأتُ على أكثر من صفحة خبر القبض على مجموعة من رواد أحد مقاهي وسط البلد بتهمة الشذوذ والدعارة. رأتُ بعض أسماء المقبوض عليهم، فوجدتُ بينهم إحسان. أجل هو إحسان علّام الحسيني. لا أحد غيره يحمل هذا الاسم. شحب وجهها، وأحسّتُ به يزداد شحوباً حتّى يكاد يتلاشى. كانت الساعة الثانية عشرة مساءً. هل تتّصل بأُمّه التي معها رُفم تليفونها، تتأكّد من الخبر. لكن، لماذا لا تتّصل به هو؟ طلبتُ هاتفه، فوجدته مغلقاً أو خارج الخدمة. بدا قلبها يسقط في قَدَمَيْها. وقفتُ تدور في الغرفة. ما علاقة إحسان بما يقولون؟! ثم إن هذا المقهى يجلس عليه كُتّاب وأدباء وفنّانون شباب من الجنسين، فكيف يقولون عنهم شواذّاً وسحاقيين حتّى لو كان بينهم مَنْ هم كذلك؟! ماذا تريد هذه الدولة من الناس؟! أين هي السجون التي ستتحملّ هذا كله؟! لقد قرأتُ أنه تمّ بناء ثمانية عشر سجنًا في السنوات السبع الأخيرة. وتقرأ عن أعداد المسجونين بسبب السياسة الذين تقول تقديرات كثيرة، لم تكن تهتمّ بها أو تقف عندها أنهم يصلون إلى ستّين ألفاً. الآن بدأتُ تتذكّر هذا كله ممّا كانت تعتبره من مظاهر الحرب على الدولة. دخلتُ على صفحات بعض المحامين كانتُ تمرُّ بها بسرعة حين يشارك أحد أصدقائها بوستاتهم، فتظهر عندها. لم تتابع أيّ صفحة من هذه الصفحات من قبل. ابتعدتُ بذهنها عن السياسة حتّى بعد القبض الهزلي عليها، بسبب بوست غير مفهوم لأحد ممّن قبضوا عليها. قاومت الرغبة في المتابعة السّياسيّة، فلا عمرها ولا أزمتها يناسبان ذلك. تذكّرتُ كيف قيل منذُ عامين عن شابٍّ فجر نفسه أمام كنيسة صغيرة في أعياد الميلاد المسيحية إنه كان مسجوناً ظلماً لمُدّة ستة أشهر حتّى حصل على البراءة. وأن مَنْ يعرفه يعرف أنه لا علاقة له بالسياسة من قريب أو بعيد. هو حقّاً

من مدينة الفيوم التي يُقال إن بها كثيراً من الإخوان المسلمين. المدينة التي شهدت أكثر من مرة اعتداء على كمائن البوليس، لكن، لا هو ولا عائلته لهم علاقة بالإخوان المسلمين. لقد خرج من السجن، ليقوم بعملية إرهابية، وينتحر في سبيل الله آخذاً أرواح المسيحيين معه. ما الذي حوَّله إلى إرهابي غير السجن؟! هكذا قرأت وقتها على الفيسبوك وهي في سنٍّ أصغر، لا يستوعب هذا الكلام الذي بدأت تستوعبه الآن. لقد غيَّب عقله الإرهابيون الحقيقيون المسجونون معه، وصار آلة في ترس الإرهاب. السجنون هي مصنع الإرهاب الأول، كما يقول الكثيرون على الفيسبوك حقاً. قالت ذلك وهي تضرب بيدها بقوة على المكتب، ثم انهارت جالسة خلفه، تقول لنفسها ما الذي تقولينه، يا لمياء؟ المهم أن يخرج إحسان. أن يعرف أهله قبل أن يُقال عنه إنه اختفى قسرياً، كما يقال عن غيره. ليس أمامها إلا أن تُخبر أمَّه مهما كان الوقت متأخراً. ستخرج إلى الصالة في نيتها أن تفعل أمَّها ذلك. هي لا تدري الطريقة التي تبليغ بها أمَّه، فلا تسقط ميتة من الصدمة. ربَّما يكون لأُمِّها طريقة ما. لكنها لم تستطع القيام من وراء المكتب، ووضعت رأسها بين ذراعيها المعقودين فوقه، وتركت دموعها.

في الصباح، أخذت أمَّها، وذهبت إلى شقَّة أسرة إحسان في الشارع الخلفي لهم. لقد أيقظت أمَّها أمس بالليل من النوم، وأخذتها إلى الصالة، وأخبرتها، فانهارت أمَّها حزينة على أحد المقاعد، وبعد لحظات أيقظت الأمُّ الأب، وأخبرته أيضاً. اجتمع الثلاثة في حيرة وقلق، لا يعرفون ماذا يفعلون. قال الأب للأمِّ "مهما كان الوقت، من المهم أن تتصلي بأمِّه. لا بد أن تعرف" اتَّصلت الأمُّ مترددة من تليفون البيت بأمِّ إحسان، فجاءها صوتها باكياً تقول: "لقد عرفنا، يا فاطمة، ولقد

نزل أبوه إلى مديرية أمن القاهرة، ليعرف ما الذي جرى، وأين إحسان". كانت تبكي، وقالت لها أن لا تُتعبَ نفسها بالذهاب إليها في هذا الوقت. غداً يتقابلان. أنهت الأم المكالمة تتساءل كيف ستنام أم إحسان الليلة؟! بل كيف ستقضي ليلتها وسط هذا الرعب؟! وكأنما السؤال موجّه إلى لمياء التي دخلت غرفتها، لا تعرف هل حقاً يمكن أن تنام؟!

حين ذهبت في العاشرة صباحاً إلى بيت أسرة إحسان، وجدت جيراناً وأقارب كلهم عرفوا عن طريق أبنائهم من صفحات الفيسبوك ما جرى لإحسان. وعرفوا من الأم أن إحسان استطاع أن يتّصل بأبيه، ويقول بسرعة إنهم قبضوا عليه، وسيأخذون الموبايل، وإنه في عربة الترحيلات، لا يعرف إلى أين. جلست صامتة بين الجالسين. ساعة وانصرفت أم لمياء تقول لأم إحسان إن الأمر لن يطول. المهم أن الأب عرف مكانه في قسم الأزيكية، وأنه سيُعرض على النيابة غداً السبت في الصباح الباكر. تركت لمياء أمّها قائلة إنها تحتاج إلى الذهاب قليلاً إلى مقهى البستان أو الحرّية، فلا بدّ أن الخبر منتشر هناك، وستعرف شيئاً من الحقيقة. همست لها أمّها، ترجوها أن لا تفعل ذلك، فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث لها، وكل من يعرفها يعرف أنها صديقة لإحسان، والحقيقة أن إحسان محبوس، وليس مهمّاً الأسباب. لكنها تركت أمّها، وانصرفت في عزم وتصميم. لم تكن تريد الذهاب إلى مقاهي وسط البلد. أخذت طريقها إلى قسم الأزيكية. لا بدّ أن ترى إحسان.

وقفت أمام الضابط الذي دخلت غرفته، وطلبت منه أن تقابل إحسان علّام الحسيني، فنظر إليها مندهشاً، وسألها:

- هل أنت محامية؟

- لا؟

- إذن، لماذا تريد أن تقابليه؟

- أنا خطيبته.

ابتسم الضابط ساخرًا، وقال:

- وهل لمثل هؤلاء خطيبات؟ هل يتزوجون أصلاً؟

- يا افندم، أرجوك، لا تُصدِّقْ ما يقال لك. إحسان فنّان، ويعمل في وزارة الثقافة، ومن عائلة محترمة، ولا بدّ أنه جلس بهذا المقهى لأن بعض الفنّانين يجلسون به، ولا علاقة له بأيّ من هؤلاء الشّواذّ المساكين!

نظر إليها الضابط في دهشة، وكاد يضحك. قال لها:

- اجلسي.

كانت واقفة، فجلست. قال:

- تقولين المساكين؟

- طبعاً. هذا النوع من البشر لا حيلة له فيما يعاينه، وهو عادة ضحية نفسية.

قال ساخرًا:

- عشنا وشفنا البنات تدافع عن الخولات!

قالت متوتّرة:

- أرجوكَ. لا.

قال لها:

- نعم، يا اختي! هاتي بطاقتك. رقمك القومي.

ارتبكتُ، وأخرجت البطاقة من حافظة صغيرة داخل حقيبتها. تأمَّل البطاقة،
وسألها:

- هل معك ما يُثبِتُ أنك خطيبته؟

- لا طبعاً. الخطوبة لا ورق رسمي عليها.

ضغط على زرّ جرس مُثبَّت أعلى مكتبه، فدخل أمين شرطة، فقال له:

- افحص هذا الرِّقْم القومي في الكمبيوتر.

ثمَّ نظر إليها، وقال:

- نحنُ لم نقبِضُ على شواذٍّ فقط، لكنْ، أيضاً على سحاقيات.

فكَّرتُ أنه يهدِّدها. ارتبكتُ جدّاً خوفاً أن يظهر في الكمبيوتر أنه قد سبق وقُبِضَ عليها. لم تكن تعرف أن ما يتمّ تسجيله في الكمبيوتر هو القضايا النافذة أو الأحكام التي صدرت ولم تُنفَّذ بعد. عاد أمين الشرطة بعد دقائق، مضتُ عليها في رعب، وقَدِّم البطاقة إلى الضابط قائلاً:

- لم نجد شيئاً، يا افندم.

قال لها الضابط:

- رغم قرفي من كلامك، فلا تأتِ هنا مرّةً أخرى، إلّا مع أحد من أهله أو محامي.

وترك لها البطاقة في لامبالاة على طرف المكتب ناحيتها، فمدّت يدها، تناولتها وتماسكت، ثمّ قالت:

- طيّب. هل يمكن أن أعرف ماذا يمكن أن أقدمه له من أكل أو شرب مثلاً، وتوافقوني عليه؟

هزّ رأسه نافياً، وقال:

- الأفضل أن تخرجي من هنا بسرعة. جلوسكٍ معي أصلاً غير قانوني. تستطيعين رؤيته غداً في مجمع المحاكم. ليس بعيداً عن هنا.

قامت، لا تستطيع أن تتحرّك، لكنها تحرّكت في بطاء حتّى خرجت، وتماسكت من الانهيار أكثر من مرّة حتّى صارت في الشارع، فأشارت إلى تاكسي، يحملها إلى البيت. ما إن دخلت غرفتها حتّى انهارت على السرير.

كيف سيمرُّ عليها هذا اليوم؟! وهل تغامر بالذهاب إليه غداً في النيابة في مجمع المحاكم في شارع الجلاء، لتراه حتّى ولو من بعيد؟! أجل. لا بدّ أن يراها إحسان، ويعرف أنها تبادله الحبّ، وأن ما منعها عنه قدر صعب، لا تستطيع مقاومته؟! لكنّ، كيف صار عليها أن تكون رجلاً في يوم قريب هي التي تشعر بكل هذا الحبّ ناحية إحسان؟ هل تساوي الرجولة المرتقبة كل هذا الحبّ الذي يتفجّر في روحها الآن؟

وغلّبها النوم بعد ليلة سابقة، لم تنم فيها، فغيّرت ثيابها وهي تتشاءب، وبدأ السرير بعيداً جدّاً حتّى إنها ألقت بنفسها عليه، كأنما سيهرب منها. نامت وسمعت في البداية صوت شجرة الإرهاق، ثمّ لم تعد تسمع شيئاً. وأحسّت

بنفسها تبتسم!

عوّامة من البلاستيك على شكل بطّة، تجلس بينها، وتوجّه رأسها، رأس البطّة، إلى الشاطئ، لكن الموج يحملها بعيداً إلى الخلف. لا ترتبك، فالعوّامة كبيرة، تعطيك فرصة الاسترخاء، وهي ترتدي المايوه الذي يعطي ما يظهر من جسمها فرصة الاستمتاع تحت الشمس، وفرصة أن يتلوّن جلدها بالسمرة الجميلة التي تليق بالرجال! لكنها تستفيق، وقد صارت بعيدة جداً، إلى درجة أنها لا ترى الشاطئ. فَقَدَتْ أَيَّ علامة تجعلها تحاول العودة. بل بدت العودة مستحيلة الآن. المدهش أنها لم ترتبك، بل وقفت وسط العوّامة، تضع النظّارة المُكَبَّرة على عينيها، تحاول أن ترى شيئاً حولها، ولا شيء تراه. أَحَسَّتْ بالجوع، فوجدت معها قليلاً من الفاكهة بينها تفّاحة، راحتْ تقضم منها، ولمّا أَحَسَّتْ بالعطش، وجدت معها زجاجة مياه، فشربتْ منها قليلاً، فليس معها غير زجاجة واحدة. انتبهتْ أنها في تيه كبير، وجلستْ منهارة مقرّفة ضامّة ركبتيها بذراعيها تاركة دموعها تسقط. مَنْ فعل بها هذا؟

رأتْ حول العوّامة الكبيرة أسماكاً تقفز واقفة، وتنزل إلى الماء، كأنما تطلُّ عليها. وبعد أن تختفي لا تلبث أن تعود تطلُّ عليها، وتنزل إلى الماء من جديد. لاحتْ لها على البُعد سفينة، فوقفتْ صارخة، ترفع ذراعيها "أنا هنا ... أنا هنا" لكن السفينة الضخمة المحمّلة بالبضائع لم يصل إليها أيُّ صوت، واستمرّتْ في طريقها في عرض البحر تبعد حتّى تختفي. كم يوماً مرّ عليها هنا؟ ثلاثة أيّام، وانتهى الطعام القليل من الفاكهة، وفرغتْ زجاجة المياه الوحيدة، وأحسّتْ بالإعياء الذي أدركتْ أنه بداية للموت. لكنها لن تستسلم. دبّتْ فيها القوّة، ووقفتْ تؤكّد لنفسها أنها قادرة على أن تعيش، لكن سمكة ضخمة دفعتْ

بالعوامة من ناحية، لتنقلب بها، وتصير هي في الماء. حاولت أن تسبح، لكن شيئاً احتضنها، ونزل بها إلى بعيد في الأعماق، وسمعتُ صوته “لا تخافي، يا أميرة الأرض” صارتُ تضحك مبتهجة، وهو يتجاوز بها الماء إلى مغارة أسفل القاع، دخل بها، ووضعها أمامه، فرأته شيخاً، يشبه بابا نويل، ورأت المغارة كلها مليئة بالأطفال ذوي الأجنحة، كأنهم منسوخون من كيوبيد، ورأت النساء يرتدين زيَّ سافو الشاعرة التي تحبُّها بادية. جانب من صدورهنَّ ظاهر فيه ثديٌّ منطلقٌ، وجانب خفي، وصدور يظهر فيها الثديان، كأنهما فوق العرش، والرداء طويل إلى الأقدام، والرموش طويلة، والحواجب مثيرة، والكحل ألوان في العيون الواسعة، والنباتات والأشجار البحريَّة تملأ الأرض، والجدران مختلفة ألوانها مبهجة، كأنما هي حديقة الأورمان في الربيع. راحتُ تدور أمامهم سعيدة مبتسمة، ويقول لها بابا نويل “ليس لكِ مكان بين البشر، نحنُ هنا منذُ آلاف السنين، نأكل من هذه النباتات التي تملأُ جنتنا. هذه النباتات التي تعيش على فضلات الحيتان، فتنمو، وتتنفَّس من ثاني أكسيد الكربون، وتعيده أكسجيناً، يصعد إليكم، ينقي فضاءكم رغم أنكم تقتلون الحيتان. حتَّى فوق الأرض التي تركناها لكم تهنؤون بها، تقطعون الأشجار التي تتنفَّس من ثاني أكسيد الكربون، وتعطيكم الأكسجين، بل وتردمون البحيرات العظمى التي نباتاتها في الماء تفعل ما تفعله النباتات في فضاءكم فوق الأرض. تقولون إن ذكاءكم هو ما يميِّزكم عن بقية الكائنات، ونحن لم نرَ أغبى من الإنسان. نطهو النباتات على نار، سترينها الآن حين تهَيَّئ لكِ هذه النساء طعاماً، ونأكل بعضها نيئة. النبات الذي نقطعه ينبت أكثر منه، ينظر إلينا ضاحكاً. وهؤلاء الأطفال لا يتوقَّفون عن اللعب مع الأسماك، فيخرجون بين الحين والحين، يعودون إلينا منها ببعض الأسماك التي تقدِّم لنا نفسها طواعية، لنأكلها، ونسمع صوتها وهي تفتح فمها أكثر من مرَّة، تبارِك لنا في حياتنا هنا. سنعطيكِ بعض قشر السمك الذي لدينا هدية، ونترككِ تصعدين، وسيقودكِ الأطفال إلى الشاطئ، لأننا لم نرَ فوق الماء

مثل هذا الجمال إلّا إذا أردتِ أن تبقي معنا. قالتُ أنا أريد أن أبقى معكم، لكن أهلي لا بدّ سيكون غيابي الآن. أحضر لي أبي وأُمِّي وأختي. قال هذا صعب. نحنُ لا نخرج إلى الأرض، فنحن كما ترين لسنا من أهل الشر. أرضنا هنا. لقد أتينا بكِ، لأنكِ كنتِ ضائعة فوق الماء، مقرّرين أن نعيدكِ. قالتُ إذنُ أعود، لكن، مَنْ يضمن لي رحلتي؟ قال هؤلاء. وأشار للأطفال وهو يقول “أعلى الماء، أمسكي بقوة بالمخللة التي ستعودين بها إلى البيت. قشر السمك الذي فيها لا تسقطيه في الطريق. احرصى على هدايانا، فَمَنْ يضيّعها، لا يجد هدية أبداً في حياته.”

ما كادتُ تمسك بالمخللة المغلقة حتّى رفعها الأطفال صاعدين بين الماء، تسبح بهم أجنحتهم حتّى إذا وصلوا أعلى الماء، قذفوها عالياً، فصارتُ لها أجنحة، ووجدتُ نفسها وسط غرفتها تفتح المخللة، فرأتها قد امتلأت بقطع الذهب. استيقظتُ تنثاءب، لا تُصدِّقُ، متجمّدة في جلستها فوق السرير شاخصة إلى الأمام، ثمّ تركتُ بهدوء، تبحث عن نفسها جالسة مع المخللة حتّى انتبهتُ إلى أنها كانتُ تحلم، فتمدّدتُ على السرير من جديد، تنظر إلى أعلى، تقول لنفسها كل هذا الذهب سيأتي إليّ. كنتُ أخشى من كابوس. كيف لهذا الحلم الجميل أن يحدث وسط كل هذا الرعب والقلق؟ راحتُ تتقلّب على السرير في سعادة، تريد أن تنام مرّة أخرى، علّها تجد الذهب الحقيقي، لكنها نامتُ موقنة أن إحسان في طريقه إلى الحُرّيّة. إحسان هو الذهب، وإن كانتُ ستفارقه فيما بعد.

قامتُ في الصباح مبتسمة متفائلة، راحتُ تقصُّ على أمِّها رؤيتها. كانتُ أمُّها لا تزال مرتبكة ممَّا جرى لإحسان، واندَهشتُ من سعادة ابنتها، لكنها حين قصَّتُ عليها الحلم ابتسمتُ في دهشة، وقالتُ:

- لعلَّ الله يدرِّ لكِ أمراً جميلاً.

لكنَّ لمياء كانتُ تتناول إفطارها بسرعة، فسألْتُها أمُّها:

- لماذا تتناولين إفطاركِ بسرعة هكذا؟

أجابتُ:

- سأذهب إلى النيابة.

- هل أنتِ مجنونة؟

- أنا التي عدتُ من البحر بمخلاة الذهب، سأعود بإحسان.

وحملتُ ما تبقى من الطعام والأطباق إلى المطبخ، فقالتُ أمُّها:

- بابا سيذهب. خرج مبكراً، ليفتح المحلَّ، ثمَّ سيذهب إلى النيابة. يكفي بابا.

أدخلتُ ما تحمله إلى المطبخ، وعادتُ في طريقها إلى حجرتها، تقول لأمِّها:

- بابا لن يتضايق من ذهابي. وستعرفين أنني على حقٍّ حين أعود وإحسان معي.

سكتت أمها. كادت تقول لها ما كل هذا الحبّ وأنت ستفارقين عالم الحور العين؟! ما هذه القصص التي تؤلّفينها؟! وما جدواها؟! لكنها شعرت بالأسف أن لا تكون ابنتها حقاً زوجة لإحسان. سألت نفسها فجأة هل يمكن أن يتحوّل إحسان إلى فتاة، وتنتهي قصّة الحبّ نهاية سعيدة؟! اندهشت من سؤالها، وقالت في نفسها "أستغفر الله العظيم" وفتحت التليفزيون تتسلّى برؤية أيّ فيلم، فوجدت أمامها فيلم "الفكّ المفترس" فقالت هكذا في الصباح الباكر تعيدون هذا الفيلم المخيف الفظيع! لكنها تركته، فسيحملها إلى أحداث تُنسيها ما حولها، ورأت لمياء خارجة من الحجرة أجمل من كل وقت، فقالت لها:

- احرصي على أن تسمعي الموبايل. أريد أن أطمئنّ عليكِ بين حين وحين.

النيابة التي في شارع الجلاء زحام مرعب.

قَبَلَتْهَا لمياء، وخرجت.

قطعت الخطوات القليلة في الشارع، ووجدت نفسها تنظر إلى مكان الكتابة القديمة باسم الشارع الذي كتبه ابن حرام، وتبتسم، وعرجت يساراً إلى شارع المبتديان، فوجدته شبه خالٍ، وأدركت أن اليوم السبت والشوراع ليست مزدحمة، فأشارت إلى تاكسي ركبته.

لثلاث ساعات بين زحام في طريقة كبيرة تقف ولا ترى أباهها ولا أبا إحسان ولا أمّه. لم تكن تعرف أن المحامي الذي طلب منه أبو إحسان حضور التحقيق قد أخذهم إلى غرفة المحاماة، ينتظرون أن يقترب دور إحسان أمام النيابة. لم تفكّر أن تتصل بأبيها، لتعرف أين هو، ولا بأُمّ إحسان التي معها رقم تليفونها أيضاً. أثارها زحام الناس في الطريقة الكبيرة. رجال من مختلف الأعمار يرتدون بدلاً وكرافاتٍ، يسرعون، تعرف من هيئاتهم أنهم محامون، ورجال يرتدون نفس

الملابس، يقفون في حيرة مرتكنين على جدار الطرقة الطويلة التي تشغل جانبها مكاتب النيابة، ورجال يرتدون الجلابيب، ونساء من كل عمر، وبكل زيّ، وجنود يأتون بمتّهمين في كلابشات، بعضهم مقيدّ وحده، وبعضهم مع زميله، وأكثرهم شباب، لكن ثيابهم تختلف بين ثياب تنمُّ عن طبقة ميسورة وثياب الفقراء الممزّقة، ووجوه جميلة ووجوه بها آثار جروح من معارك بالبشلة أو الكاتر، وحفاة ومَن يرتدون أحذية متنوّعة القيمة، ونساء أيضاً يرتدين ملابس سوداء أو بيضاء، لا تعرف من أين يأتون، فهي لا تعرف ملابس السجون، وحين تمّ حبسها في مديرية أمن الجيزة، كانت النساء في ملابسهنّ العادية، لم يرتدين ملابس السجون بعد. بين المارة من المقيدين كثيراً ما كانت ترى أمين شرطة يضرب أحدهم على قفاه، فينظر له ويضحك أو ينظر إليه مكشّراً، ثمّ لا يأتي بردّ فعل، ويستمرّ مُجبراً إلى الأمام. كانوا يختفون بهم في الغرف، ورأت شابّين قريّين منها يرتديان ملابس أنيقة، يتبادلان النظر إليها، فخفضت رأسها متعجّبة، لكن أحدهما قال لها:

- لا تندهشي من ضرب المتّهمين على القفا. هؤلاء المتّهمون في الغالب أخذوا داخل القسم حبواً مخدّرة، ستروكس أو ترامادول، فلا يشعرون بما يحدث لهم.

لم تردّ، لكنّ من كلّما سألها:

- حضرتك لك متّهم هنا؟

سكتت لحظة ثمّ، قالت:

- أكيد. وإلّا لماذا سأحضر؟

- حضرتك محامية؟

- لا. أنا ... قرييته.

كادتُ تقول خطييته، لكنها لا تعرفهما، وقد يعرفان أنه متَّهم بالشذوذ، ولا تدري
ماذا سيكون ردُّ فعلهما تجاهها.

قال الثاني:

- نحنُ محاميان مع أستاذ كبير لم يحضر بعد، ويمكن أن نفيديك.

تردَّدتُ لحظة، ثمَّ قالتُ وهي تبتسم:

- شكرًا. معنا محامي.

قالتُ ذلك لتُنهي الحوار. كان الشَّابَّان من الأدب حتَّى إنهما تركا مكانهما،
وابتعدا. ارتاحتُ لذلك جدًّا. لا يزال في مصر محترمون.

رأتُ إحسان قادمًا وحده من ناحية مقيَّد اليدين، ومعه شرطي يسحبه من
ذراعه، فهتفتُ "إحسان" فتوقَّف، وتوقَّف الشرطيُّ في غيظ يقول:

- ما فيش وقوف.

وسحب إحسان الذي قال بصوت عالٍ لها:

- لا تخافي ولا تقلقي. بابا هنا والمحامي.

لكنها مشتٌ خلفه بسرعة، يعطِّلها الزحام الذي يفسح أصحابه الطريق
للشرطي والمتَّهمين، ولا يفسحون لغيرهم بسهولة. هي لا تريد أن تحتكَّ
بأحد. لا تعرف ماذا سيحدث لها في هذا اليوم. رأتُ أباهما وأبا إحسان ومعهما

محام تجاوز الثلاثين قادمين من الناحية الأخرى، ودخل الشرطيُّ بإحسان غرفة النيابة، وخلفه المحامي بينما وقف أبوها وأبوه أمام الباب. رآها أبوها تقترب منه منادية:

- بابا.

اندهش لمرآها، وارتبك لا يعرف ماذا يقول، لكن أبا إحسان قال:

- لماذا، يا لمياء، يا بنتي، تَعَبَّتي نفسك؟ المكان دا وحش، رَّبِّنا ما يكتبه على حَدِّ.

قالتْ كطفلة حقيقية:

- إحسان حيطلع، يا عَمُّو. ورَبِّنا حيطلع. أنا طول الليل أحلم أنه معانا.

ارتبك والدها، لكنه ابتسم دون أن يفتح شَفَتَيْهِ بينما تهلَّل وجه أبي إحسان، وقال:

- إن شاء الله، يا لمياء. رَّبِّنا يسعدكم.

هنا ارتبكتُ. الكل يتهيَّأ لزواجهما، ولا أحد يعرف القادم من الأيام. ثمَّ قال أبو إحسان لأبيها:

- ليتك تأخذ لمياء، وتجلسان في الكافيتريا حتَّى تنتهيَ جلسة التحقيق. سأحضر إليكما بعدها.

وجد أبوها أن هذا حلُّ طيِّب، لكنْ، سأله؟

- ألن تأتي معنا؟

- قلقان. لن أستطيع الجلوس بعيداً. سأتحمل ساعة. لا أعتقد أن التحقيق سيتجاوز الساعة.

كادتُ هي تقول لأبيها أن يتركها أيضاً. هي في الحقيقة تريد أن تظلّ تنظر في وجوه المتّهمين ووجوه الحاضرين. ما هذا العالم الغريب؟ لكنها ذهبتُ مع أبيها إلى الكافتيريا التي وجدتها مزدحمة جدّاً، والوجوه نفسها مقسمة بين أغنياء، وفقراء والملابس لا تختلف عمّا رأت من قبل.

قالتُ لنفسها ساخرة: “دي مصر، يا عبلة” متذكّرة الفيلم القديم عن الجاسوسية والجاسوسة المصرية هبة سليم، والتي صار اسمها في الفيلم “عبلة كامل” والتي كانت تعمل لصالح إسرائيل، والتي خطفتها المخابرات المصرية من أوروبا، لتُعيدّها إلى مصر، والتي قامتُ بدورها مديحة كامل، وقال لها محمود ياسين في الطائرة فوق الأهرامات “دي مصر، يا عبلة”. كم كانتُ مديحة كامل التي لعبت دور الجاسوسة جميلة! وكم كان محمود ياسين رجل المخابرات أخاذاً! وكم كان الحديث له معنى! كيف صارت الأمور هكذا في بلادنا؟ وهل صارتُ مثل مَنْ يفعلون ذلك على الفيس بوك هي التي تحبّ الوطن؟ لا بدّ أنهم أيضاً يحبّون الوطن، لكنها روح الفكاهة عند المصريّين. لا تريد أن تذهب بعقلها أبعد من ذلك رغم ما تراه أمامها من بؤس، ورغم أن إحسان مقبوض عليه، ورغم أنها رأت الحبس بسبب عبارة كتبتها على الفيس بوك، ولم يفهمها أحد. سيخرج إحسان اليوم، وستنتصر، وتتحولّ إلى رجل غداً.

تساءلتُ هل تحكي لأبيها عن رؤيتها؟ وأجابتُ نفسها لا. مَنْ يحكي الحلم لا يتحقّق. لقد أخطأت حين حكته لأُمّها.

هذه الأسطورة قرأتُ عنها يوماً في حكايات المصريين الشعبيّة. وتجهّمتُ لحظة.
لو كانت الحياة تحقّقها الأحلام ما كانت هذه أحوال الناس. ثمّ سألتُ أباهما:

- لماذا ظهر إحسان وحده، وليس معه أحد ممّن تم القبض عليهم معه؟

قال:

- سيأتون بعده. كلهم في غرفة الانتظار.

لكنها تذكّرت أنها رأت أحياناً أكثر من متّهم مقيدّين مع بعضهم، فلماذا كان
إحسان وحده حقّاً؟ هل أفرج عنهم وأثّمهم هو وحده؟ لم تسأل. كيف لأبيها أن
يعرف؟ هذا عالم غريب، وقاها الله شرّه، والحمد لله أن الضابط أفرج عنها يوم
قُبض عليها في المترو، ولم تتحوّل إلى النيابة.

ظهر أكثر من شحاذ وشحّاذة يدور على الجالسين في الكافتيريا الواسعة ممّا
أدهشها جدّاً. انحنّت تقترب بوجهها من أبيها، وسألته:

- هل يدخل الشحّاذون هنا؟

سكت لحظة، وقال:

- كلنا هنا شحّاذون، ننتظر الكرم.

لكن رجلاً بسيطاً في زيّ فلاح اقترب من أبيها، وسأله:

- حضرتك تبدو رجلاً محترماً. هل حضرتك محامي؟

- لا.

- طيّب، هل يمكن أن تساعدني وتجد لي محامياً، لا يطلب منّي نقوداً. يتطوّع يعني. ابني مقبوض عليه منذ شهر، وأنا لا أعرف أين هو.

ارتبك أبوها، وقال:

- منذ شهر! إذن تمّ عرضه على النيابة. المهمّ تعرف أيّ نيابة، وتبحث عن مصيره في الأوراق. لماذا تأخّرت عليه؟

- بحثتُ عنه في نيابات القاهرة كلها.

لكنّ شابّاً من بين ثلاثة شباب قريين واضح من زيّهم، البدلة والكرافتة، أنهم محامون، سأله:

- هل أنتَ من القاهرة، يا حاجّ؟

- لا، يا بني. أنا من القليوبية.

- طيّب، لماذا لم تبحثُ عنه هناك؟

- بحثتُ هناك، ولم أصل إلى شيء.

- ما هي تهمة ابنك، يا حاجّ؟

- يقولون سياسة. حين قبضوا عليه من البيت في الفجر، أخذوا كُتباً من عنده. هو طالب في كُليّة الحقوق هنا في القاهرة، يسافر ويعود إليها كل يوم.

- سياسة! إذن، نيابة أمن الدولة، يا حاجّ.

ارتبك الرجل، وقال:

- ماذا تعني؟ أليست كلها نيابات الدولة؟

- لا، يا حاجّ. هذه نيابة، وتلك نيابة أخرى.

سكت الرجل لحظة، ثمّ قال:

- والنيابة التي تتحدّث عنها هذه كيف نذهب إليها؟

- تعالَ هنا، يا حاجّ. نحنُ سنساعدك.

- ربّنا يخليّكم، يا ولادي.

تقدّم منهم الرجل يحييهم بيديّه أكثر من مرّة، ولم تعد لمياء تسمع حوارهم بينهم
بينما أحدهم يفتح مفكّرة، يكتب فيها ما يقوله الرجل.

قام الرجل بعد أن انتهى الحديث الذي تراقبه من بعيد، وصافحهم، وانحنى يقبّل
أياديهم واحداً بعد الآخر، فسحبوها منه، وخرج وفي عينيّه دموع.

جاءت نظرتها في عين أحدهم، فقال لها:

- نحنُ محامون في مكتب مجّاني لخدمة المظلومين، وسنساعدك. سنحاول أن
نعرف أين ابنه.

سكتت، وهمس لها أبوها أن لا تتحدّث مع أحد. ثمّ سألتها ماذا تشرب؟ فقالت
“لا شيء” وطلب هو لنفسه قهوة مضبوطة.

هل لا بدّ من الحسم؟ هل لا بدّ لهذه الأحلام أن تتوقّف؟ هل عليها أن تبدأ أولى
خطوات عالمها الجديد؟ لكنّ، كان عليهم الانتظار إلى آخر النهار حتّى يصدر قرار

النيابة لكثرة عدد المتَّهمين ممَّن يعرفهم إحسان أو لا يعرفهم. حصل إحسان على الإفراج، وشمل القرار أصدقاءه الذين كانوا معه. اندفعتْ تقبُّل أباها وأبا إحسان بفرحة عارمة، وكان عليهم الانصراف حتَّى يتمَّ الإفراج عن إحسان من قسم البوليس. طمأنهم المحامي أنه سيكون الليلة، وسيتابع الأمر بنفسه.

كان ما يشغل إحسان هو أن يعود إلى بيته بسرعة، ليتَّصل بلمياء. لقد تمَّ الإفراج عنه من قسم البوليس في منتصف الليل. وكانتْ هي وأبوها قد عادا إلى بيتهما فرحَيْن بعد صدور القرار. كذلك فعل أبو إحسان، ولم يبقَ مع المحامي حتَّى يشجَّعهما على العودة. كانتْ قوَّة كبيرة قد شملتْ إحسان، ولم يعد في حاجة إلى النوم رغم أنه لم ينمَّ أمس. كانتْ غرفة الاحتجاز في قسم البوليس ممتلئة بالمتَّهمين، فناموا في زنقة كبيرة، رؤوس بعضهم إلى ناحية ورؤوس الآخرين إلى ناحية أخرى، وعلى جوانبهم، فمساحة الأرض لا تسمح حتَّى بالتَّقلُّب. لذلك لم ينم، ولم يكن ممكناً أن ينام. حين أسرع إلى البيت، لم يكن لينام. لكن، ليوظ لمياء إذا كانتْ نائمة، ويخبرها أنه في البيت، وأنها لو تستطيع أن تراه الآن بعد منتصف الليل، سيخرج يقابلها في بيتهم. حان الوقت ليرتبط بها ارتباطاً يتمنَّاه ويحلم به. لقد جاءتْ إلى النيابة، ولم تُهمله. لكنها كانتْ قد نامتْ مرهقة، وأغلقتْ تليفونها. ففي الغد، ستذهب إلى الدكتور مختار صابات الذي سيبدأ مسيرة العلاج معها. كانتْ على يقين منذُ انتهى التحقيق وقبل قرار الإفراج أنه سيتمَّ الإفراج عنه من حديث أبيه وحديث محاميه الذي قال إن المحقِّق كان متجواباً معه، وإنه في نهاية أسئلته، قال كلمة بشَّرته بالخير، إذ نصح المحقِّق إحسان أن لا يذهب إلى هذه الأماكن المشبوهة مرَّة أخرى، وكان هذا وحده يكفي أن يشير إلى أن الإفراج في الطريق، لكنها كانتْ متفائلة أكثر برويتها التي لن تخيبَ.

الآن جاء وقت قطع طريق الحبّ. لا قطع الصداقة. كل ما حاولتُ به أن تسترجع أنوثتها كان يقظة متأخّرة لا معنى ولا قيمة لها. حتّى لو طلبها إحسان أكثر من مرّة لن تردّ عليه. ستتركه يعرف حين تختفي في المستشفى. من أمّها أو من أبيها أو ممّن يمكن أن يسرّب الخبر من المستشفى إلى الصحف. "فتاة جديدة تنضمّ إلى فئة المتحوّلين" يمكن جدّاً أن يكون هذا عنوان الصحف. ولم تشأ أن تدخل إلى الفيس بوك هذه الليلة. لتذهب في طريق الخلاء الواسع، لتصل إلى نهايته التي لن تكون سراباً. ستكون حقيقة مهما كانت صادمة لمن حولها. وهي الحقيقة التي تتمنّاها وتشعر أنها ضاغطة عليها.

ظلّ إحسان اليوم التالي يرسل رسائل على الفيسبوك، ولا ردّ. ترك بيته، وجاء إلى بيتهم، فلم يجد أحداً يفتح الباب. وجد القطّ الأصفر الذي رآه حين عاد بها من قبل من عند سناء يقف ينظر إليه ويبتسم. ثمّ تركه القطّ، وصعد في هدوء إلى الدور الثاني. ذهب إلى محلّ والدها في منطقة معروف، فقال له أحد العاملين إنه ترك المحلّ منذُ الصباح، ولم يعد. سيعود آخر النهار. مشي في شوارع وسط البلد لا يُصدّق ما يحدث. التقى مع أحد أصدقائه من الذين قبض عليهم معه، فذهبا إلى مقهى الحميدية. قال لصديقه:

- ما يحيرني أني كنتُ أعرف أن من يتردّدون على المقهى الذي قبض علينا فيه، ليسوا أسوياء. أجل. جلستُ فيها مرّة، ورأيتُ الجرسون الأنيق جدّاً يقبل الفتيات والفتيان ويضحك معهم ويضحكون معه، ورأيتُ طريقة كلام الأولاد تنمّ عن ميوعة حقّاً، وكذلك البنات. إنه مكان عجيب للعواطف المترهّلة. أعرف ذلك، ولا أدري لماذا اقترحتُ عليكم أن نذهب إليه.

أجاب صديقه:

- حتّى يتمّ القبض علينا، ونخوض تجربة.

ضحكا، ثمّ أضاف صديقه:

- هل تعرف أنني سمعتُ من أحد المثقّفين الكبار أنهم زمان أيّام عبد الناصر والسادات كانوا يشكّون في كل مثقّف لم يتمّ القبض عليه، ويعتبرونه مخبراً عليهم.

- سمعتُ ذلك أيضاً من أحدهم. وأن مَنْ كان يتمّ القبض عليه كان يحصل على وسام الشرف بينهم.

- إذن، نحنُ شرفاء، يا عليّ.

ضحكا بصوت عالٍ. عليّ هو شكري سرحان ضابط الجيش في فيلم رُدّ قلبي. مقولة "أنتَ من الأحرار، يا عليّ" التي قالها له الممثّل كمال ياسين ضابط الجيش الذي كان منتمياً لتنظيم الضباط الأحرار الذي انقلب فيما بعد على الملك فاروق، وبهذه الجملة ضمّه إلى التنظيم. هي مقولة تتردّد على السنة الشباب على الفيسبوك من باب السخرية والضحك تماماً مثل كثير من الجمل السينمائية المشهورة التي قيلت في مواقف جادّة!

لم تكن جلسته في مقهى الحميدية خالصة، ليرى مَنْ حوله رغم أن بعضهم ممّن يعرفونه هتّؤوه بالإفراج. كان دائم التّطلّع إلى صفحته على الفيس بوك ربّما يجد رسالة من لمياء. ولما فاض به اليأس، وفي اللحظة التي كاد فيها أن ينهض ويترك المكان عائداً إلى بيته، لينام النوم الذي أجّله رأى "بوست" كتبته لمياء على صفحتها:

" لا تنتظروني، فلن أعود. سيعود إليكم شخص آخر، أحبه".

القسم الثاني

-1-

قرّر حمزة قبل الدخول إلى قاعة المحاضرات أن يلتقيَ بزملائه عابدين ومُريد ومحسنة وسونيا. أجل. ستكون دهشة أو صدمة يتعوّد على رؤيتها بعد ذلك دون ارتباك في وجوه الناس. التجربة مع هذا العدد الصغير ستُعينه.

حين اقترب منهم وهم يجلسون، كانوا يحملقون فيه بعمق، فالوجه ليس غريباً عليهم. هو الآن يرتدي بدلة أنيقة، وجعل شَعْرهُ على طريقة لاعب الكرة محمّد صلاح، وترك ذقنه تنمو وشاربه. لقد غاب عنهم بقية نصف العام الأوّل والإجازة، وها هو يبدأ الدراسة مع نصف العام الثاني. لقد أنفق الأيّام الثلاثة الماضية في المنزل، في جمع كل ما يدلُّ على الماضي من أزياء، وعرضها على رانيا، تأخذ المناسب لها منها، ومن ملابس داخلية كذلك، أمّا ما لم يكن صالحاً لrania شكلاً ولا مقاساً، فقد تمّ جمعه في حقيبة، وقالت أمّه إنها ستعطيه للخادمة التي تأتي لتنظيف الشقّة وابنتها. أيضاً أمضى وقتاً في جمع صوره القديمة، ووضعها في مظروف كبير، وضعه في أحد أدراج دولاب الملابس للذكرى يوماً ما، ولم يتخلّص منها. كانت بينها صور كثيرة له - أو لها - وهو طفل في الحداثق مع أمّه وأبيه ومع رانيا، وصور على شواطئ الإسكندرية ومرسي مطروح، وصور في المدارس، نظر إليها كثيراً، لا يُصدّق، لكنه وضعها في المظروف مبتسماً، يقول لنفسه لم يكن الماضي سيئاً أبداً، على أيّ حال.

- صباح الخير.

كانت سونيا تدقّق فيه جدّاً، وكان هو قد جلس ضاحكاً يقول:

- استعدُّوا للصدمة.

راحوا ينظرون إليه حائرين، وسألته سونيا:

- هل أنتَ معنا في الكُليَّة، في قسم الفلسفة أقصد؟

- تقريباً، ولا أعرف هل سأستمرُّ معكم أم أتحوَّل إلى قسم آخر؟!

سأله عابدين:

- نحنُ لم نركَ أبداً من قبل. أين كنتَ؟

وقالتُ محسنة:

- شكلكَ ليس غريباً عَنَّا، لكنْ، طبعاً يخلق من الشبه أربعين.

اندفعتُ سونيا تقول:

- صحيح. أنتَ شبيه لبنت زميلتنا اختفتُ، كان اسمها لمياء.

نظر إلى أسفل باسماء، ثمَّ رفع رأسه إليهم قائلاً:

- أنا لمياء.

انطلقوا يضحكون. وقالتُ سونيا:

- يا بنت الإيه. ما الذي تفعلينه بنفسك؟

وقالتُ محسنة وهي تضحك:

- هكذا يمكن أن يتم القبض عليك. آه والله.

وظلُّوا يتبادلون النظر في حيرة ودهشة، ثم انطلقوا يضحكون ويضربون أكفَّهم في بعضها، ويتراجعون بظهورهم على المقاعد، ويعودون، فقال:

- سأظلُّ هكذا دائماً.

تساءل مُريد:

- ماذا تقصدين؟

قال مبتسماً:

- أرجوكم، لا تخاطبوني باعتباري لمياء. خاطبوني باعتباري حمزة.

صفَّقوا في دهشة وهم يضحكون، وقالت سونيا:

- ماذا يحدث، يا ولاد؟ لمياء اتجنّنت.

قال بهدوء:

- أرجوكم. قليلاً من الهدوء. سأشرح لكم.

وراح يحكي قصّته وما حدث له من إجراء عملية جراحية، وكيف صار "حمزة" بعد أن كان لمياء، والوقت الذي اعتزل فيه الناس كفترة نقاهة في المستشفى أو في البيت، وكيف أنه لا يزال كذلك، لكن، يمكنه الحركة أكثر يوماً بعد يوم، وكيف أن الأوراق الرسمية لتغيير الاسم لم تنتهِ بعد. وبينما يحكي كادت سونيا تفقد وعيها بينما كانت محسنة تكاد تبول على نفسها حتّى إنها وقفت وقالت "أنا

لازم أروح الحمّام بسرعة" فضحكوا وظلّوا ينظرون إلى بعضهم والحيرة تزداد حتّى قال عابدين:

- لمياء.

فقاطعه بالنظر إليه معاتباً، فاستطرد:

- حمزة. إذا كنتَ تفعل ذلك من باب الكوميديا أو المسخرة يعني فانتبه. من الصعب جدّاً أن تُصدِّقَكَ. ولو عرف الناس بما تقول لطلبوا سيارة إسعاف تنقلَكَ إلى مستشفى المجانين. أجل. لن تُصدِّقَكَ أو يُصدِّقَكَ أحد.

وقال مُريد:

- لكنها مسرحية لطيفة، الحقيقة لم أسمعُ بمثلها من قبل.

سكت حمزة واضعاً رأسه إلى أسفل محملاً في المنضدة، وقال:

- إذن، لم يصدّمكم الأمر كثيراً. هذا يسعدني. سأشرب قهوة معكم، وأدخل مع سونيا إلى المحاضرة الثانية حتّى لا ينتبه أحد إلى هذا الطالب الغريب. لقد ضاع عليّ التيرم الأوّل. سأُنهي التيرم الثاني، وأُعيد العام الدراسي بعد ذلك. كان يمكن أن لا أحضر التيرم الثاني أيضاً، ما دمتُ سأعيد العام الدراسي، لكن حضوري سيُشجّعني على تقبل الوضع الجديد. يا جماعة، أنا تحوّلتُ. لم أعد ترانسجيندر، أصبحت جيندر ذكوري، وخلص.

وكانتُ محسنة قد عادتُ وجلستُ وهي تقول:

- هل صدّقْتُم كلام هذه المجنونة؟ أنا كدتُ أبول على نفسي.

ضحكوا بينما ابتسم حمزة، وقال:

- سوف أبدأ آخذ حظّي في معاكسة البنات.

راحوا يضربون كفاً بكفٍّ من جديد، فأخرج من جيب جاكيت البدلة الداخليّ مطروفاً صغيراً، أخرج منه ورقة، قدّمها إلى عابدين ليقرأها لهم. نظر عابدين إلى الورقة، يقرأ بلا صوت، ثمّ قدّمها إلى مُريد الذي فعل مثله، فهتفتُ سونيا:

- ماذا في الورقة يجعلكما تصمتان؟

لم يردّ أحد، وقال حمزة:

- إقرار من المستشفى معتمد من وزارة الصّحة بما حدث لي، أستخدمه حتّى يتمّ تغيير كل أوراق الرّسميّة. أظنّكم عرفتم الآن لماذا كنتُ أكتب على صفحتي في الفيسبوك عن الترانسجيندر.

حطّ صمت عميق جدّاً عليهم بينما قدّم مُريد الورقة إلى سونيا التي قرأتها، فصارتُ ذاهلة، وقدّمتهَا إلى محسنة التي صارتُ أكثر ذهولاً حتّى وقفتُ وقالتُ:

- التواليت تاني.

أسرعتُ، ولم يضحك أحد هذه المرّة، لكن عابدين وقف وقال:

- بالحضن، يا حمزة.

وقف حمزة، واحتضنه عابدين وهو يقول:

- هذا حضن، كان نفسي آخذه من لمياء وربّنا، لكنني كنتُ خائفاً منها.

ضحكوا، ووقف مُريد يحتضن حمزة بينما ظلَّت سونيا جالسة لا تُصدِّق ما يحدث أمامها، فقال لها حمزة:

- وأنتِ، أ لن تحضنيني؟

- ضيَّعت الفرصة على نفسك.

ضحكوا، وعادت محسنة. صارت الجلسة نقاشات فيما يمكن أن يحدث مع حمزة في الأيام القادمة. أبدى لهم استعداده لتحمل صدمات الآخرين. قالت محسنة:

- لا صدمات ولا غيره، هوَّ انتِ تحوَّلتِ إلى قرد مثلاً. ثمَّ إنكِ لستِ أوَّل فتاة تتحوَّل لولد. ومن الآخر مَنْ سيصدم آخرته يروح دورة المياه!

انطلقوا يضحكون، ثمَّ قال لها عابدين:

- قولي له أنتَ لو سمحتي وليس أنتِ. نحنُ معنا حمزة الآن.

وقال مُريد:

- ما رأيكم أن نترك الكُليَّة جميعاً إلى مقهى في الدَّقِّي، نشيِّش بأه، ونحتفل بحمزة. نجلس معه أطول وقت حتَّى نتعوَّد عليه.

قال حمزة:

- كم أشتاق إلى ذلك. وحشتني المقاهي، وإن كانت ستختلف الآن.

أصابت إحسان حالة من الضحك الهستيري. لقد عرف كل شيء، وعرفت أمه وأبوه. كانت دهشة الأب أن بداية دخول لمياء المستشفى كانت في اليوم التالي لعرض إحسان على النيابة والإفراج عنه، وكيف كانت متلهفة على براءته، وكيف كان ذلك دليلاً على حبها العظيم له. كيف جاءت إلى النيابة وهي تعرف أن قصة الحب ستنتهي بعد أسابيع ستختفي هي فيها؟ لم تجد الأسرة سوى التسليم بما حدث. تردّد الأب في زيارة أسرة حمزة، ليعبر لهم عن سعادته بنجاح العملية، لكن أم إحسان وجدت أنه من الضروري أن تذهب. في المسافة القليلة إلى البيت، كانت تفكر كيف سيكون شعورها وهي ترى لمياء في ملابس الرجال ومظهر الرجال في وجهها وشعرها؟! وهل ستستوعب الأمر بسهولة؟! صحيح أن صوت لمياء كان خشناً وصدرها كان صغير النهدين، لكنها كانت أنثى. حين جلست مع أم حمزة ورأته مقبلاً، وجدت نفسها تقف تقول "ما شاء الله" ولم تتردد أن تأخذه في حضنها، وثقله. أحست أنها لم تجد تغييراً يستحق الصدمة. ليس لأن الأمر لا يعنيها، ولكن، لأن الأمر أكبر من قدرتها على التّصوّر. تحوّلت الجلسة إلى ضحك وثناء لإحسان التي قالت أمه إنها ستستطيع إقناعه بالرضا. هو ليس ساخطاً، لكنه لا يكف عن الضحك. حدّثهم عن صور لمياء السابقة التي رسمها إحسان، وعلّق منها اثنتين على الحائط في بروازين جميلين، وكيف رفض إنزالهما، وقال لها "سأرسم حمزة، وأعلّق صورته هنا، بل سأجمع الصورتين في صورة واحدة".

صاروا يضحكون بينما رانيا تضحك أكثر منهم، وتقول "مش عارفة أقول حمزة" وتقول لها أمها "حتتعوّدي" فقالت رانيا ضاحكة "خايفة أنزل أروح مشوار مع حمزة تفكرونني ماشية مع ولد من وراكم". انطلقوا يضحكون وحمزة يقول "مش حاقدر

أضربك زيّ الأوّل".

كان في الحقيقية شاحباً مرهقاً، فالعملية الجراحية ليست بالأمر السهل. نزف فيها دمّاً كثيراً، وحصل على دم كثير. مضى عليه أسبوعان بالمستشفى بعد العملية قبل أن يستقرّ في البيت، لكن الشحوب كبير. وقالت أم حمزة:

- لقد أخفينا أمر العملية حتّى أمس بعد أن ذهب حمزة إلى الكليّة لنطمئنّ. أمامنا مشوار كبير في الأجهزة الرّسميّة. قضية في المحكمة لاستخراج شهادة ميلاد، ثمّ استخراج بطاقة هوية جديدة وتغيير الاسم في الكليّة، ويا ربّ، الموظّفين ما يقرّفوناش.

قالت لها أمّ إحسان:

- إن شاء الله أبو حمزة يقدر بمعارفه ينهي كل الإجراءات بسرعة، وإذا احتاج أيّ مساعدة، فأبو إحسان جاهز. كل كبراء البلد لهم حسابات في البنك الأهلي.

تركّتهم ونزلت بينما كان أبو حمزة يذبح عجلًا في شارع شامبليون أمام دكانه، يوزّعه على المحتاجين من البوّابين والسّمكريّة، ويعلن بكل فخر أن ابنته لمياء تحوّلت إلى شابّ اسمه حمزة، وعبر فترة النقاهة، وسيبدأ في ممارسة حياته. كان من بين الجالسين على مقهى التّكعيبة عدد من الصّحفيّين، ما إن عرفوا حتّى أسرعوا إليه يسألونه عن صحّة الكلام. لم يتردّد، وأعلن الخبر قائلاً لنفسه قد يساعده هذا في إنهاء تغيير الأوراق. نُشر الخبر بعد دقائق على أكثر من موقع إلكتروني، وهكذا صار حديث الفيسبوك. ارتبك حمزة بعد أن رأى ذلك، فقالت له أمّه بعد تفكير قليل:

- وضعنا أبوك في قلب العاصفة، لكنّ، لعلّه خيرًا. تقول إن أصحابك ارتبكوا حين

عرفوا. الآن عرف الجميع، وستدخل المدرّج قوياً، لا تنتظر ارتباكاً ولا صدمة من أحد، ولا شرحاً منك ولا تفسيراً، غايته أن ينظر اليك الجميع ويشهقون، وربما يكون الطُّلاب أكثر شجاعة، فيصفّقون لك عند دخولك المدرّج.

لكن حمزة قرّر أن يتأخّر لعدة أيّام عن الذهاب إلى الكُليّة مرّة أخرى. هو الذي يشعر بالارتباك الآن. كيف يخرج منه؟ اتّصل بإحسان متمنياً أن لا يردّ، لكن إحسان ردّ على الفور.

- آلو. لمياء. قصدي حمزة.

- ولا يهمّك، يا إحسان. ستتعوّد. أريد أن أراك.

- فوراً. أين يمكن أن نلتقي؟

- ما رأيك في كافيتريا الهناجر؟

- لا. الأفضل في قهوة البستان، حيثُ يعرفك الجميع. ستتعوّد على دهشة الناس.

سكت حمزة قليلاً، وقال:

- وهو كذلك. نلتقي اليوم في السادسة مساءً. سأمشي وحدي في الشارع حتّى ألقاك. أريد أن أرى بنات وسط البلد بعين أخرى.

ضحك إحسان بقوة للحظات بدا أنها لن تنتهي، وقال:

- وهو كذلك. هناك ماتش لليغربول مع يوفينتوس. تشجّع صلاح براحتك، ولا يندهش أحد من صوتك العالي.

ضحك حمزة، وتمدد على السرير. راح يكتب على صفحته التي لم يُغيّرْها على الفيسبوك.

“ما نشرته المواقع الإلكترونية اليوم عني صحيح. لقد عبرتُ أو تحوّلتُ. عبرتُ من جنس الإناث إلى جنس الذكور، فهل أخطأتُ في شيء؟ لم ارتكبُ جريمة، وسعيد جداً بجنسي الجديد، فهو أقلُّ تكلفة. ملابس الرجال أرخص، ولا يحتاجون إلى ماكياج أو موادّ تجميل. أقصاها زجاجة كولونيا أو بارفان. وداعاً للكحل والكريمات والألوان والكوافيرات الغالية. الحلّاق الرجالي عمره ما يأخذ أكثر من خمسين جنيه، كما كنتُ أسمع الشباب. وداعاً للكعب العالي اللي بيوجع الظهر وللتحرّش المنحطّ في الطرقات، وأهلاً بالفول والطعمية والبصل، وسأبحث عن جيم لتنمية عضلاتي، لكن، ليس الآن. بعد وقت أستعيد فيه صحّتي. في اليوم الذي سأتخرّج فيه في الجامعة، سأجد شابةً أجنبية فرنسية بالذات أتزوّجها وأترك هذه البلاد “الترانسجيندر” وأذهب إلى بلاد يتساوى فيها الجميع، وتعرف أهدافها، ويمكن أن أكون فيها رئيس وزراء أو رئيس جمهورية”.

وتوقّف عن الكتابة قائلاً لنفسه “ترانسجيندر ثاني، يا حمزة!” ارتبك لحظات، لكنه ابتسم. أنت الآن ولدٌ، فمّمّ تخاف. “كليك” وترك البوست يظهر على صفحته، ثمّ أضاف إليه:

“من اليوم سأدافع عن هؤلاء الذين بعد أن يقوموا بالعلاجات والجراحات الصعبة يختفون من أمام الناس رغم أن الله يتقبّل منهم ذلك، وإلّا ما جعل ما يفعلونه يتكلّل بالنجاح. أجل، سأكون محامياً عنهم حتّى ترسو البلاد على شاطئ أو على جيندر بين الدول. الديموقراطية وحرّية الاختيار في الحياة”.

ثمّ ضحك يقول لنفسه “حتروح في داهية، يا حمزة”.

ترك الشُّقَّة وهو يعرف أن بعضاً من السُّكَّان صاروا إذا شعروا بحركة على السُّلَّم يفتحون الأبواب في هدوء، ويختلسون النظر له - أو لها - في هيئته الجديدة رغم أنهم تقريباً جاءوا كلهم يُهَيِّئونُ أمَّه بهدوء، ويعودون كأنهم في حلم، ورغم أنهم صافحوه، وكاد الرجال يحتضنونه، لولا شيء من التَّردُّد. رغم ذلك يعرف أنهم يتلصَّصون عليه. بل إن بعضهم يدخل مسرعاً، يفتح النافذة ليراه يمشي في الطريق. سيتعوَّدون، يا حمزة. وتمنَّى لو حدثتُ بينه وبين أيِّ شخص خناقة، ليضربهُ بقوة أمام الجميع، ويتأكَّد لهم أنه رجل. لكن، ليس الآن. بعد أن تعود إليه قوَّته.

مشى قليلاً قبل أن يأخذ طريقه إلى شارع المبتديان. عند مدخل المركز الثقافيِّ الفرنسي وجد نفسه يتطلَّع إلى الحائط، وتذكَّر ما كان مكتوباً عليه. يضحك ويفكِّر فجأة أن يعيد هو كتابته. ظلَّ يمشي ضاحكاً في شارع حلوان جوراً سور المترو حتَّى وصل إلى شارع المبتديان آخذاً طريقه إلى مقهى البستان. سيمشي الآن ينظر حوله، ولا بدَّ أنه سيرى الأماكن كما لم يرها من قبل. عبر شارع المبتديان، ولم يشأ أن يمشي في شارع منصور الذي غالباً ما يكون خالياً من الناس. أخذ طريقه إلى شارع نوبار القريب على يمينه مقهى، يفترش الرصيف بها كثير من الرجال والشباب والمدارس الثلاثة، المبتديان، والخديوية، والدواوين، مغلقة. أضواء الشارع القليلة تراه أن بالشارع تقريباً تنعدم النساء. تقدَّم ليعبر سوق شارع إسماعيل أباطة الممتدَّ على الناحيتين. قبل السوق عربات تبيع الفاكهة وحولها عدد قليل من الناس. نساء قليلات ورجال أقلّ. لن يدخل السوق المزدهم، وسيستمرُّ. مسافة قليلة لم يرَ فيها إلَّا ولدَيْن وبنَتَيْن يأكلان ساندوتشات واقفين عند محلّ "مشتهري". عبر ميدان لاطوغلي. لم يكن

إِلَّا سِيَّارَاتٍ وَشَخْصٌ يَعْبُرُ مِثْلَهُ. أَشَارَ إِلَيْهِ شَابٌّ أَنْ يَحْدِثَهُ فَتَوَقَّفَ. قَالَ لَهُ إِنَّهُ مِنَ
الْمَحَلَّةِ الْكُبْرَى، وَسُرِقَتْ مَحْفَظَتُهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ أَيُّ نَقُودٍ لِيَسَافِرَ بِهَا. اعْتَذَرَ لَهُ
بِاسْمٍ، وَاسْتَمَرَ يَمْشِي. سَمِعَ بِهَذِهِ الْقِصَصِ كَثِيرًا، وَالشَّابُّ يَرْتَدِي بِنُطْلُونِ جِينَز
وَسُوَيْتِرَ لَا بَأْسَ بِهِمَا. يَبْدُو أَنَّ الزَّيَّ النَّظِيفَ مُنَاسِبٌ لِيُؤَكِّدَ كَلَامَهُ. اسْتَمَرَ فِي
شَارِعِ نَوْبَار. وَزَارَةُ الدَّاخِلِيَّةِ عَلَى يَسَارِهِ الْآنَ، وَأَمَامَهَا كَالْعَادَةِ الْحَوَاجِزُ الْخَرَسَانِيَّةُ
الْعَالِيَةُ الَّتِي وُضِعَتْ مِنْذُ حَدَثَتْ ثَوْرَةٌ يَنَازِرُ مِنْذُ سَبْعِ سَنَوَاتٍ. تَمَامًا كَمَا رَأَى
الْحَوَاجِزَ نَفْسَهَا عَلَى يَسَارِهِ مِنْ قَبْلِ بَعْدِ مِيدَانِ لَاطُوعْلِي أَمَامَ وَزَارَةِ الْعَدْلِ. لَقَدْ
أَغْلَقَ هَذَا الشَّارِعَ كَثِيرًا عَلَى الْمَارَّةِ وَقْتُ الثَّوْرَةِ، وَلَأكْثَرَ مِنْ عَامَيْنِ بَعْدَهَا. يَعْرِفُ
أَنَّ وَزَارَةَ الدَّاخِلِيَّةِ انْتَقَلَتْ مِنْ هُنَا، وَلَا بَدَّ أَنَّ هَذَا سَبَبُ قَلَّةِ الْحِرَاسَةِ، فَلَمْ تَقَابَلْهُ
غَيْرُ عَرَبَةٍ شَرْطَةٍ وَاحِدَةٍ، يَجْلِسُ جَوَارِهَا ضَابِطُ شَابٍّ وَأَمِينُ شَرْطَةٍ فِي الْمَقْهَى
عَلَى الرِّصِيفِ، يَشْرَبَانِ الشَّيْشَةَ. عَبَرَ شَارِعَ الشَّيْخِ رِيحَانٍ. هُنَا بَدَأَ الزَّحَامُ،
وَتَوَافَدَتْ مِنْ وَإِلَى كُلِّ طَرِيقِ الْبَنَاتِ وَالشَّبَابِ، وَظَهَرَتْ سِيَّارَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَوَقِّفَةٌ فِي
الْإِشَارَاتِ. رَاحَتْ عَيْنَاهُ عَلَى الْبَنَاتِ وَأَزْيَائِهِنَّ، وَانْتَبَهَ كَأَنَّهُ يَرَى ذَلِكَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَوْ لَمْ
يَفْتَنِهِ مِنْ قَبْلٍ. كَيْفَ أَنَّ كُلَّ الْبَنَطْلُونَاتِ ضَيِّقَةٌ، تُبْرِزُ اسْتِدَارَةَ الْأَفْخَاذِ وَكُلَّ
السُّتَرَاتِ الْعُلُويَّةِ ضَيِّقَةٌ، تَبْرِزُ نَهَادَةَ النُّهُودِ. حِينَ كَانَ يَرَى ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ، لَمْ يَكُنْ
يَشْعُرُ بِالْغَيْرَةِ كَمَا قَدْ يَحْدُثُ مَعَ بَعْضِ الْإِنَاثِ حِينَ يَرِينَ مَنْ هُنَّ أَجْمَلُ مِنْهُنَّ. كَانَ
لَا بَدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ الْجِرَاحِيَّةِ حَقًّا، وَيَعْبُرُ. هَلْ يَغَامِرُ الْآنَ وَيَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ
فَتَاةٍ مُحْمَلَقًا؟ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْسُكَ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ حِينَ كَانَ "لَمِيَاءً" وَكَانَ
يُقَابَلُ بِالِاسْتَهْجَانِ مِنَ الْعَيْنَيْنِ الْمُقَابِلَتَيْنِ لِعَيْنَيْهِ أَوْ الدَّهْشَةِ وَالِابْتِسَامِ فِي
سُخْرِيَّةٍ. لَوْ فَعَلَهَا الْآنَ سَيُعَدُّ مُتَحَرِّشًا. مُؤَكَّدٌ. لَكِنْ، أَيْضًا رَبَّمَا يَجِدُ رَدًّا فَعَلَ آخَرَ.
ابْتِسَامَةٌ وَلَوْ صَغِيرَةً. فَرَصَةٌ ابْتِسَامِ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ أَكْبَرُ مِنْ ابْتِسَامَتِهِنَّ لِبَعْضِهِنَّ.
قَدْ يَكُونُ سَبَبُهَا الْأَمَلُ. لَكِنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ لِأَحَدٍ. تَرَدَّدَ وَارْتَبَكَ، وَقَطَعَ شَارِعَ مُحَمَّدٍ
مَحْمُودَ، ثُمَّ شَارِعَ التَّحْرِيرِ وَعَبْدَ السَّلَامِ عَارِفَ، يَنْظُرُ أَمَامَهُ إِلَى الرِّصِيفِ
أَمَامَ مَقْهَى الْخُرَيْيَةِ كَيْفَ هُوَ مَمْتَلِئٌ بِالشَّبَابِ وَالْفَتَيَاتِ الْجَالِسِينَ مَعَ قَدُومِ

المساء أمام محلّ "جاد" يتناولون طعامهم. هؤلاء فضّلوا الشارع عن المحلّ رغم أن الجوّ بارد، وفرصة الأمطار قائمة ... عبر مقهى الحميدية ومقهى الندوة الثقافيّة في شارع الفلكي. يعرف أن أحداً لن يتعرّف عليه بسهولة ممّن جلس معهم مع إحسان من قبل رغم ما نشرته المواقع عنه، ورغم نشر صورته التي لا يعرف من أين حصلوا عليها. لا بدّ من المستشفى، لأن أباه الذي نشر الخبر لم يكن يحمل صورة له. لا لمياء ولا حمزة. وصلتُ إليه رائحة الكباب من محلّ الجمهورية المقابل لمقهى الندوة الثقافيّة. أكل فيه أكثر من مرّة أو أكلتُ ليس مهمّاً، فهو بيتسم. ولو فعلها مع إحسان اليوم يمكن جدّاً أن يتعرّف عليه العمّال. فليكن التّعرف عليه من نصيب جرسونات مقهى البستان الليلة. الساعة تقترب من السادسة والمباراة بين ليفربول ويوفنتوس في السادسة أيضاً، ولا بدّ أن المقهى محتشد بالأولاد والبنات. سمع كثيراً من أبيه حكايات عن صباه في السبعينيّات حين كانت مصر لا تزيد عن ثلاثين مليوناً أو خمسة وثلاثين، وكانت القاهرة لا تزيد عن مليونيّن. كيف كانت القاهرة بالليل ساحرة بخلائها من الزحام، كما تزداد خلاء في الصيف من فرط الحرارة التي تُفرغ الفضاء من الهواء والأرض من الناس، وتزداد خلاء في الشتاء من شدّة البرد بالليل. كيف كانوا يقيمون مباريات كرة القدم أمام قصر عابدين، حيثُ بيّتهم القديم في شارع بور سعيد، وكيف كانوا يذهبون في إجازاتهم إلى الأهرامات في ترولي باص، لم يعد موجوداً في مصر، كما لم تعد الترام في شارع بورسعيد أو بقية القاهرة. سمع منه حكايات بين أصدقائه كيف كان يسمع - أبوه - من الكبار حكايات السهر في عُز الحشيش في منطقة العتبة والحسين في الحواري الخلفية حتّى ذهب أبوه يوماً إلى إحدى الغرز وهو صغير في مغامرة مع أصدقائه، فرفض صاحب الغرزة أن يُدخلهم إليها، ورأى على باب الغرزة ضابطاً شاباً يجلس يدخن الشيشة أو الجوزة كما كان يسمع، وبها، لا بدّ، الحشيش. ابتسم وهو يسأل نفسه لماذا يتذكّر هذا الآن؟! هو لم يجرب الحشيش أبداً، وسمع كثيراً عن

الترامادول والاستروكس وغيره، وأن الحشيش لم يعد بالصفاء القديم، بل صار مغشوشاً بموادٍ أخرى ضارّة. كونه كان لمياء لم يكن سهلاً وفي سيّء الصغرى هذه أن يدخّن الحشيش، واكتفى بالسجائر سرّاً. في لحظات يأسه وهو يحاول أن يقنع أباه وأمّه بحالته، كاد يبحث عن الترامادول، لكنه قاوم. نجح في النهاية أن يُقنِعَهُم. تاقَتْ نفسه الآن إلى غرزة ممّا تحدّث عنها أبوه من قبل، لكنه أدرك أنها لم تعد موجودة إلّا على بعض الطُرُق التي تؤدّي إلى الريف مثل الطريق الزراعيّ. اختفتُ من القاهرة، ولا ينسى كيف قرأ نقاشاً على صفحات الفيسبوك يوماً منذُ عام تقريباً عن كيف انتهى الحشيش لصالح تجّار الهوروين والكوكايين، وأن هذه التجارة لا يقوم بها تجّار بعيدون عن شخصيات في مراكز كبرى. بل سمع أن أحد تجّار الحشيش الكبار أيّام مبارك الأولى حين ارتفع سعر الحشيش، وبدأت الدولة في مطاردة تجّاره رفض أن يتحوّل إلى الهوروين، لأنه يسبّب الإدمان، ويؤذي صاحبه، فتمّ القبض عليه هو بينما كان المعتاد أن يسلم كل تاجر حشيش إلى البوليس أحد رجاله كل عام حتّى يبدو أنهم يعملون بهمة، ويتولّى هو أجر المحامي الذي يدافع عنه، والإنفاق على أسرته حتّى يخرج من السجن، وعادة كان يُحاسب المتّهم بالتعاطي لا التجارة، ومن ثمّ لا تكون الأحكام الواقعة عليه أكثر من ثلاث سنوات، وفي حالات خاصّة جدّاً تكون خمس سنوات، ويُفرّج عنه بعد انقضاء نصف المدّة لحسن السلوك أو بشكل طبيعي بعد ثلاثة أرباع المدّة، فسنة السجن ليست اثني عشر شهراً، بل تسعة شهور. اندهش من نفسه، كيف يتذكّر هذا كله؟! ولماذا تاقَتْ نفسه إلى تدخين الحشيش الذي لم يعرفه؟! لقد سمع أباه مرّة يحكي كيف شرب الحشيش عند أحد أصدقائه، وعاد إلى البيت، وكيف بدا له الطريق لا ينتهي رغم أن صديقه يسكن على بُعد خطوات منهم في شارع المبتديان. سمع أباه يحكي ذلك لأُمّه في غرفة نومهما، ويضحكان، وكانا لا يعرفان أنه سهران - أو سهرانة -. كان قد خرج إلى الصالة قلقاً من احتلامه أحياناً بالرجال، وأحياناً

بالنساء! يضحك الآن وهو يدخل شارع البستان السعيد من شارع هدى شعراوي بعد أن مرَّ على مقهى "ستوديو كافيه" ورأى أمامها حشداً جميلاً من البنات والشباب. على الجانب الأيسر من الشارع الكثيرون ممَّن لا يتابعون الكرة بنات وشباب وبعض متوسطي العمر كالعادة. يعرف أن أكثرهم أدباء لا يحبُّون لعب الطاولة التي يلعبها على الرصيف المجاور للمقهى عدد قليل منهم في مساحة ضيقة. كانوا كلهم تقريباً ينظرون إليه في دهشة، ثمَّ يتحدثون هامسين لبعضهم، ثمَّ يبتسمون.

كانت المباراة قد بدأت ورأى أن أحد الجرسونات واسمه هاني ينظر إليه، وابتسم. تخيَّل أن هاني سيُهَلِّل لمرآه، لكن هاني كعادته كان هادئاً وقال "أهلاً وسهلاً. نوَّرت القهوة. كذا أحسن والله" ثمَّ تركه ومضى إلى الناحية الأخرى داخلاً المقهى، يأتي بالطلبات. رأى الجرسون الأصغر حجماً الذي يسمُّونه "بومبة" ينظر إليه غير مُصدِّق، وابتسم في دهشة، وسمعه يقول "هو إيه اللي بيحصل في الدنيا، يا جدعان؟! "وتقدَّم إليه صافحه قائلاً "حمداً لله ع السلامة. أظنُّ حتشرب شيشة بالهبل الليلة" ابتسم ورأى إحسان يقف أمامه. كان قد تقدَّم إليه من الصفوف الأخيرة من الجالسين. تسمَّر في مكانه، وتسمَّر إحسان للحظة، ثمَّ اندفع يضمُّه إليه، ويُقبِّل خَدَّيه، ويقول "أخيراً أخذتك في حضني، يا حمزة" وضحكا، وسأله:

- هل ستري الماتش؟

أجاب:

- سأراه، وأهتف بأعلى صوت.

وفوجئ بـ "بمبة" يأتي إليه بمقعد، يضعه جوار مقعد إحسان، ويتركهما، فتقدَّم

عارف وصافحه غير مهتمّ بما جرى كعادته، فذهنه مشغول بالطلبات وحساب
الطلبات، وسألهما ماذا يشربان؟ طلب هو سحلب، ففعل إحسان مثله، وقال:

- أَخَّرْتُ الْطَلْبَ حَتَّى تَأْتِي.

شاهدا المباراة. كان إحسان تَوَاقاً أَنْ يَحْكِيَ لَهُ كَيْفَ لَامَ نَفْسَهُ كَثِيراً، إِذْ أَسَاءَ
الظَّنَّ بِهِ حِينَ أَهْمَلَ - أَوْ أَهْمَلَتْ - الرَّدَّ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ حِينَ عَرَفَ مَا جَرَى أَحْسَنَ أَنَّهُ
فِي فِيلْمٍ مَلِيءٍ بِالشَّخْصِيَّاتِ الزُّومِيبِي، وَكَيْفَ كَانَ يَضْحَكُ طَوْلَ النَّهَارِ. لَكِنْ حَمْزَةٌ
كَانَ مَنْغَمِساً جَدّاً فِي الْفَرْجَةِ عَلَى الْمَاتَشِ، وَاحْتَجَّ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ عَلَى الْحُكْمِ،
وَأَخَذَ يَتَحَدَّثُ عَنْ خَطَّةِ اللَّعِبِ غَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ الَّتِي لَعِبَ بِهَا لِيْفِرْبُولَ، وَكَيْفَ لَا بَدَّ
أَنْ تَتَغَيَّرَ. كَانَ إِحْسَانٌ فِي دَهْشَةٍ، هَلْ يَتِمُّ مَعَ الْعَمَلِيَةِ الْجِرَاحِيَةِ تَدْرِيسُ لَعِبَةِ
كُرَةِ الْقَدَمِ؟ وَيَبْتَئِسُ وَلَا يُعَلِّقُ إِلَّا بِالْإِيجَابِ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ حَمْزَةَ يَمَارِسُ الْآنَ مَا
يَمَارِسُهُ الشُّبَّانُ أَكْثَرَ مِنَ الْبَنَاتِ. انْتَهَتْ الْمُبَارَاةُ، وَفَازَ لِيْفِرْبُولَ، وَوَقَفَ بَعْضُ
الشَّبَابِ يُقَبِّلُونَ بَعْضَهُمْ. ظَهَرَتِ الْفَرْحَةُ عَلَى وَجْهِ الْبَنَاتِ، وَوَقَفَ هُوَ وَقَبَّلَ
إِحْسَانَ، وَأَخَذَهُ فِي حَضَنِهِ بِحِمَاسٍ. سَمِعَ أَكْثَرَ مِنْ شَخْصٍ يَقُولُ "وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ
صَلَّاحٌ دَا لَوْ فَضِّلُ فِي مِصْرَ، لَكَانَ زَمَانُهُ بِيَلْعَبُ فِي التَّرْسَانَةِ" وَالثَّانِي يَقُولُ "نَعْدُ
بِجِلْدِهِ بِدَرِي" وَكَانَ إِحْسَانٌ يَتَأَمَّلُهُ بَعْمَقٍ وَهُوَ ذَاهِلٌ عَنْهُ وَغَيْرُ مُتَصَوِّرٍ أَنَّهُ بِسُرْعَةٍ
هَكَذَا تَأْقَلِمُ عَلَى شَكْلِهِ وَوَضْعِهِ الْجَدِيدِ، وَقَالَ لَهُ:

- أَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ أُحْتَفَلَ بِكَ بِالْعِشَاءِ سَمَكٌ، فِي مَطْعَمِ وَادِي النَّيْلِ.

قال:

- لَا. سَأُحْتَفَلَ بِكَ أَنَا عِنْدَ الدَّهَّانِ فِي الْحُسَيْنِ. أُرِيدُ أَنْ أُسْهَرُ فِي مَقْهَى
الْفَيْشَاوِي. آخِرَ مَرَّةٍ زُرْتُهُ مَعَ أَبِي وَأُمِّي مِنْذُ عَامٍ حِينَ زَارَا الْحُسَيْنَ وَأَنَا مَعَهُمَا
يَدْعَوَانِ لِي أَمَامَ ضَرْيَحِهِ أَنْ يَزِيحَ اللَّهُ عَنِّي أَفْكَارِي السُّودَاءَ بِأَنِّي رَجُلٌ، وَلَسْتُ

فتاة.

ارتبك إحسان لحظة، لكن حمزة استطرد:

- لا بدّ أني سأرى المكان بوجه آخر، ولا بدّ سيكون لكباب الدّهان طَعْم مختلف.

- هيّا بنا.

قال إحسان ذلك فرحاً، ونادى على عارف. دفع له حساب ما شرباه، ومشى مع حمزة والناس على الرصيف القريب من المقهى الذين هم أدباء في أكثرهم ينظرون إليهما، ويهزّون رؤوسهم، ونادى أحدهم عارف، وقال له:

- القهوة صارت مشهورة بالمتحوّلين، يا عارف. هذه هي الثانية.

قال عارف.

- هذا هو الأوّل ومنّ قبله كانت الأولى. ما تلخبطش.

ضحك الجالسون، فقال الجرسون هاني القريب:

- الناس زهقت من البلد، وبتغيّر جنسها.

ارتفعت الضحكات، وقال بومبة مستغرباً وهو يهزّ رأسه ويحرّك يديّه:

- بعد ذلك يسافرون إلى الخارج. يعني أنا حتّى أسافر أوربا لازم أتحوّل إلى مَرّة.
دا غُلب، والله.

وعاد الجالسون إلى الضحك حتّى قال واحد منهم معروف أنه شاعر ودائم الابتسام:

- حين يسافرون للخارج، يتركون نصفهم هنا، يا بومبة. تقدر تعمل كدا؟

بدت الحيرة على وجه بومبة، فسأله:

- كيف؟

- حين يكون ولدًا وتحول إلى بنت، تسافر البنت، ويبقى الولد في مصر. ولمّا تكون بنتاً وتحول إلى ولد، يسافر الولد، وتفضل البنت في مصر. تقدر تعمل زيّهم؟

فكّر بومبة مرتبكاً لحظة، ثمّ قال:

- يا عمّ، إنت شاعر، حتألّف قصص كمان؟!

انطلق القريبون في الضحك، وكان إحسان وحمزة قد عبرا شارع صبري أبو علم، ووقفوا على ناصية شارع قصر النيل في تقاطعه معه، وأشارا إلى تاكس يركبانه إلى الحسين.

قال إحسان:

- ستكون ليلتنا كالتالي. عشاء، ثمّ جولة في شارع المعزّ، وصور سيلفي مع البيوت والمساجد الأثرية التي في الشارع، ثمّ عودة إلى مقهى الفيشاوي. ما رأيك؟

- لا بأس.

كانا في انتظار العشاء في مطعم الدّهّان. لاحظ حمزة أن إحسان يبتسم بين حين وآخر ويهزُّ رأسه، فسأله:

- لا زلتَ لا تُصدِّق؟ أليس كذلك؟

- كيف لا أُصدِّق ما أراه أمامي؟! سعيد أنني تجاوزتُ الصدمة.

- أنا آسفة! قصدي أنا آسف. بُعدي عنكَ كان من أجل أن تكرهني، أو على الأقلّ تأخذكَ عزّة النفس، وتبدأ في النسيان، ثمَّ عندما تعرف ما جرى يكون الأمر سهلاً، ويبعث على الضحك، والحمد لله مامتك قالتُ إنك لم تكفّ عن الضحك.

- بصراحة عندك حقّ، يا حمزة.

قال حمزة:

- طريقة حلوة للتخلّص من الحبيب، لكنّ، ليس كل شخص قادراً أن يُغيّر من جنسه.

ثمَّ ضحك وضرب كَفِّيه في بعضهما:

- تصلح فكرة فيلم لذيذ جدّاً. كل قصص الحبّ تُخفّق، لأن البنات يتحوّلن إلى رجال. أو مسلسل ثلاثين حلقة في كل حلقة تنتهي القصة كذلك. وفي آخر حلقة يذكرون أنه هكذا صارت المدينة كلها رجالاً، وشحّت النساء.

ضحكا، وصقّق إحسان بيديّه يقول:

- طبعاً. قارئة أدب إنجليزي، وطالبة فلسفة، خيالك لازم يكون جبار. وربّما تكتبين روايات أو مسلسلات مثل أسامة أنور عكاشة.

قال حمزة:

- لو سألتني قلتُ لكَ أحبُّ أن أكونَ مثلَ ستيفن كينج أكتب قصص رعب، تخرج منها الشَّخصيَّات تأكل الناس.

ضحك إحسان من جديد. لاحظ حمزة أنه بالفعل يضحك كثيراً، وبصوت عالٍ. اقتربتُ منهما رائحة الكباب. ما إن وضع الجرسون الصَّينيَّة التي عليها كيلوجرام كامل مشكَّل من الكباب والكفتة والرَّيش حتَّى قال حمزة:

- سأكل براحتي مثل أيِّ رجل شره.

كان للطعام طعم مختلف، ولما معه من سلطات وطحينة وبابا غُجوج وأرز. لا يذكر كيف كان طعامه آخر مرَّة جاء فيها هنا مع أمِّه وأبيه. بل يذكر. كان - أو كانت - تأكل دون شهية، فلم يعرف للكباب طعمًا. الآن ما أشهى الكباب الذي يُقبل عليه مثل جائع منذُ عشرات السنين.

لم يطلُ بهما وقت الطعام. انتهيا بسرعة، وأخذوا شارع خان الخليلي إلى شارع المعزِّ. راحا يمشيان على بلاطه البازلتي الصغير. لاحظ حمزة أنه لا يمشي بانتباه أو تركيز. لم يعد يخشى أن يتعثَّر. لم يقلْ ذلك لإحسان. أشياء كثيرة سيشعر بها لن يحدِّثه عنها. راحا يمرَّان على المساجد القديمة، ويتصوَّران سيلفي أمامها. أطالا التصوير أمام مسجد ابن قلاوون، حيثُ كان الكثيرون من البنات والشباب يتصوَّرون والأجانب كذلك والكل سعيد. لاحظ حمزة أنه ليس لديه ميل أن يتفرَّج على المعروض من ثياب النساء ولا حليهنَّ، فابتسم. لقد مرَّا من شارع خان الخليلي بسرعة، لم يتوقَّفا أمام أيِّ محلٍّ للذهب أو الفضة. مشيا مسافة ليست بالقليلة حتَّى قصر السحيمي. هناك مقهى على الناصية، قال إحسان إنه يمكن لهما الجلوس فيها، فقال حمزة:

- لا. نعود إلى الفيشاوي.

- ألم تتعب؟

- لم أعد أتعب، يا إحسان.

ابتسم إحسان، وعادا إلى مقهى الفيشاوي. ما إن جلسا وطلبا شايًا وشيشة حتّى قال إحسان:

- هل تسمح لي أن أفعل شيئاً كنتُ أودُّ أن أفعله مع لمياء؟

اندهش حمزة للحظة، ثمّ قال:

- عايز تبوسني. بوس. إنتَ الخسران.

ضحك إحسان بصوت عالٍ كالعادة، وقال:

- لا طبعاً. البوس مباح الآن في أيّ وقت. أريد إذا مرّ علينا أحد ممّن يغنّون هنا أن أجعله يغنّي لنا أيّ أغنية.

- لكنه عادة يغنّي أمام المحيّين!

- أعطني هذه الفرصة المجنونة، يا حمزة، أودّع بها كل مشاعري السابقة.

هزّ حمزة رأسه متعجباً، وقال:

- إذا كان هذا يريحك، فلا مانع.

- لم ينتهيا من كأسَي الشاي حتّى ظهر مغنّي شابّ، يحمل عوداً، وعلى عينيّه

نظّارة. كان ضريراً ومعه طفل صغير يمشي به. أشار إحسان للطفل، فتقدّم بالمغنيّ الضرير، ووضع له ولنفسه مقعدَيْن أمامهما، وسألهما المغنيّ ماذا يحبّان أن يسمعا.

أجاب إحسان:

- ما تشاء، ونحن وحظّنا.

قال حمزة:

- نسمع "يارايحين الغورية".

سألهما المغنيّ:

- أنثما ولدان؟

أجاب إحسان:

- نعم.

قال المغنيّ:

- سأغنيّ لسيد درويش. أغاني من أيّام ثورة 1919. الأيّام دي مرّ عليها مائة عام. مَنْ يعرف، ربّما تعود ونستطيع إخراج الإنجليز من البلاد؟!

هنا ضحك إحسان بصوت عالٍ جدّاً بينما تذكّر حمزة حديث سائق التاكسي الأسطوري الذي لم يعد يعرف هل كان حقيقة أم حلماً عن الرئيس السادات الذي اغتيل في الصباح. شرد لحظات يفكّر في هذا الشعب الغريب الذي بدأت

تظهر عليه أعراض التَّحوُّل في الزمان! قال في نفسه. "ترانستاييم" وضحك.

وبدأ المغنِّي يغنِّي لسَيِّد درويش:

"استعجبوا يافنديه

لتر الجـاز بروبيه

وبقاله اليوم سنّه ورّه

أوّل مرّة يسمعان هذه الأغنيّة، فصارا يبتسمان، واستمرّ المغنِّي:

"واللي ببيعه له كلمة

ياما ناموا كثير ناس فى الضلمه

وصبح أغلى م الكولونيه

وتمن اللتر يساوي صفيحه

واللي يطوله اليوم بفضيحه

مأمـور القسم يدي نصـيحه

ماشيـه قدّامه داوريه

مين كان فاكر إن دا يـجرى

حتّى الكبريت بقاله ذكرى

وقزازه اللمبه خـدت شهرة

بفرنك ونص وشـوية"

انطلقا يضحكان، وسألا عن اسم الأغنيّة، فقال "استعجبوا، يا افندية" فقال
إحسان "إنها لا تُذاع أبداً" فقال المغنّي "كيف تُذاع ولتر الجاز الآن بخمسة
جنيه؟!" انطلقا يضحكان، فقال حمزة:

- نريد أن نسمع "الحلوة دي قامت تعجن في البدرية".

بدأ المغنّي، وبدأ الجالسون ينتبهون إلى جمال صوته. الأغنيّة معروفة عابرة
للزمن، غنّتها فيروز أيضاً، ولا يمكن أن لا يحبّها أحد. لوحظت شفاة كثيرة تردّد
الأغنيّة مع المغنّي بلا صوت من الشباب والفتيات حتّى اذا انتهت دوى التصفيق
من أغلب من بالمقهى.

تحمّس المغنّي وغنّى:

"يا ناس أنا متّ فى حبّي جم الملايكة يحاسبوني

حدّش كده قال؟"

وما إن قال هذا المقطع حتّى هلّل الكثيرون سعداء مرّدين "الله" لكنّ شاباً من
بعيد قال "كدا حتروح السجن. ازدرأ أديان."

ضحك الجميع، وقال المغنّي "يا سيدي. هو أنا في إيه يعني؟! ما أنا في سجن!
والله لولا أصواتكم اللي باسمعها، لكنت أجرتُ محامي، يشوف مين اللي
حابسني".

ضحك الجميع، وصفّقوا يشجّعونه، وواصل الغناء:

"أول سؤال سألوني عليه، إيه السبب فى لوم العزال؟

قلت اللي أحبه الحقّ عليه خلّى اللي عمره ما قالش أهو قال

وبقينا أمثال

قالولي إيه أصل غرامك؟ وليه حبيبك مش وياك؟

مين دا اللي حَلّل هجرانك؟

بكيت وقلت العشق هلاك

حدّش كده قال؟

يا عيني ع اللي عشق واحتار وقضى طول عمره فى أفكار

ياخدوه قوام م الدار للنار ماينجدوش إلا السّتار

حدّش كده قال؟"

كان الصمت قد حطّ على كل مَنْ بالمقهى، فقد مسّت الأغنيّة أوتار قلوبهم. بدا
أنهم لا يصدّقون أن هذه الأغنيّة عرفها الناس يوماً في مصر، ولذلك حين انتهت
دوى التصفيق مذهلاً مع صيحات "الله .. الله .. الله". سكت المغنّي دقائق،

أشعل فيها سيجارة صغيرة بين دهشة الجالسين. لم يُكْمِل تدخينها، وناولها للصَّبِيّ الذي معه، فوضعها في الطَّافِية على المنضدة. بدأ المغنِّي يعزف على العود لثوانٍ، ثمَّ شرع في غناء “والله، تستاهل، يا قلبي”.

حطَّ السكون والجلال على المكان، وشرد كل الجالسين وإحسان وحمزة. في الحقيقة راودتْ إحسان الرغبة أكثر من مرَّة أن يضع ذراعه على كتفَي حمزة، لكنه ارتبك أن يتصوَّر حمزة أنه قد أصابه الشذوذ بعد القبض عليه مع عدد من الشَّوَادِ، وراودتْ حمزة الرغبة أن يُمسك بيد إحسان التي جواره، لكنه ارتبك أن يظنَّ به إحسان الظَّنَّ نفسه. كان عدد من الجالسين الذين أعجبهم الغناء قد تقدَّموا منهم طالبين أن يسمحوا لهم بالجلوس معهم، فوافقوا، فأحاطوا بالمغنِّي، وتوسَّعت دائرة الجلوس في أكثر من صفٍّ رغم أن المقهى ضيق. صاروا يصفِّقون، ثمَّ قامتْ من بينهم فتاة، وراحت ترقص والجميع يصفِّقون لها، وإذا بحمزة يقف ويرقص مع الفتاة بين دهشة إحسان وبهجة الحاضرين. اختار المغنِّي أغاني سريعة الإيقاع مثل “دنجي دنجي” و”إيه العبارة” و”على السيَّات، يا سلام سلِّم” وأحسن جيوش في الأمم جيوشنا” ثمَّ قال إنه سيختم، وسألهم ماذا يختارون؟ سمع اقتراحات كثيرة، لكنه غنَّى دور “أنا عشقت” وصمت الجميع في جلال.

“آه. أنا عشقت وشفيت غيري كثير عشق

عمري ما شفت المرَّ إلَّا في هواك

وكم صبرت

ماكانش فيه يوم نتفق

مع إن قلبي

كان أسير يطلب رضاك”

وارتفعت الصيحات “الله. الله، يا شيخ سيّد” “دي مصر الحلوة، يا جدعان” ويستمرُّ
المغني:

“خنت الوداد

من غير ميعاد

إن كان عناد

بلاش تغير لما تشوفني مع سواك

يا ما شربت

وكنت أقول صبرك عليه

يمكن في يوم يرجع لعقله ويمثل”

“ويزداد الصمت، وظهرتُ في عيون بعض الفتيات دموع، يحاولنَ إخفاءها. ويستمرُّ
المغني:

“ لكنْ، بآه طبعك كده.

كده .. كده. وأنا أعمل إيه

قلبي ما عادش يرق

بعد اللّي حصل

غيرك هويت

وقوام سِلّيت حبّك

يا ريت كان من زمان

آه آه. آه.

وردّد المغنّي الآه كثيراً، وأطال فيها، ثمّ انتهى، فدوّى التصفيق والهتاف
بالإعجاب، وهتف الشابُّ البعيد الذي علّق من قبل على أغنيّة "أنا مُتّ، يا ناس،
مرّة في حبّي" بأنها قد تُسيّب اتّهاماً بازدراء الأديان قائلاً:

- مَنْ لم يقرأ عن ثورة 1919 يقرأ عنها هذه الأيام، فهي ذكرى مرور مائة عام
عليها، ليعرف كيف ضاعت مصر بعد انقلاب الجيش 1952. أجل انقلاب، ولا أحد
يقول لي ثورة.

لكنّ الأغنيّة كانت أمتعتهم، ونقلتهم إلى فضاء واسع من الشجن، وبدا أن أحداً
لا ينتبه إليه.

كانت آخر كلمة قالها إحسان مبتسماً أمام بيت حمزة والساعة قاربت الواحدة
صباحاً:

- هكذا أكون قد أشبعتُ روعي إلى الأبد من لمياء.

ولا يعرف حمزة كيف ردَّ عليه قائلاً:

- تصبح على خير، يا حبيبي.

وتركه ودلف من باب المنزل إلى السُّلَم مندهِشاً من نفسه كيف قال ذلك.

حين فتح باب الشُّقَّة، ومشى على مهل حتَّى لا يسمع أحدٌ صوتَ قَدَمَيْهِ، ابتسم. كيف يخشى الآن العودة المتأخِّرة؟ وفوجئ بالباب يُفَتَّح خلفه، فالتفت، فوجد أباه الذي قال له:

- لسَّه راجع، يا حمزة؟

- أجل، يا بابا.

قال الأب:

- طيِّب، يا بني، لا تتأخَّر هكذا حتَّى لا تُزعِجَ ماما، فتصحو من نومها.

ابتسم، ودخل غرفته لا يُصدِّق. مكتسبات الرجولة كثيرة في مصر، يا عبلة! قال ذلك وضحك. لقد قرَّر أن يترك نفسه للنوم، لأنه سيحضر غداً أوَّل محاضرة له بين الطُّلَّاب. لن يكتفي بالكافتيريا كما فعل المرَّة السابقة. سيدخل المدرِّج متأخِّراً قاصداً ليراه الجميع وهو يدخل بعد أن ذاعت قصَّته على الفيسبوك. هكذا تنتهي القصة.

كانت المحاضرة الأولى في التاسعة صباحاً، لكنه استيقظ متأخراً في الثامنة. قرّر أن يبدأ بالمحاضرة الثانية في الحادية عشرة. إنها محاضرة الدكتور لمياء. إذن، سينتهي من كل ما يتعلّق بعلاقته بها بهذا الحضور. كانت هناك سحب وغيوم، وتمنّى أن لا يسقط المطر، ثمّ قال لنفسه باسماء ومتى اهتمّ الرجال بالمطر. مشى إلى المترو في عزم مقرّراً أن يركب في عربة الرجال طبعاً. وصل محطة الجامعة بعد أن رأى أكثر من فتاة جميلة في عربة الرجال كالعادة. ضايقه فقط أنه حين قام بتغيير الخطّ في محطة ميدان التحرير ليركب المترو القادم من شبرا إلى الجيزة، وقفت أمامه عربة النساء. أشاح بوجهه عنها، وتقدّم إلى عربات الرجال. تذكّر كيف شمّ آخر مرّة في عربة النساء رائحة مكتومة لعرق النساء، وشمّ رائحة العرق تمشي معه، فأسرع إلى عربة الرجال التالية مباشرة. تذكّر وهو يركب ويقف ممسكاً بيده في الحلقة الجليدية النازلة من العمود الحديدي الممتدّ تحت السقف بطول عربة المترو كيف وقفت المرأة أمامه كما يقف الآن تنصحه بالحجاب، وما تركته يفعلها في فخذيّها.

كانت العربة مزدحمة. فرغ أحد المقاعد جواره، لكنه لمح امرأة عجوزاً تقف، فأشار لها بالجلوس، فدعت له أن يُنصفه ربّنا في الدنيا. هذا أيضاً ما يجب أن يفعله الرجال، يا حمزة. لكنه تاق ثانية إلى امرأة، يفعل معها ما فعله مع امرأة عربة النساء.

لم يستغرق الوقت ساعة، ليكون على باب قاعة المحاضرات بما فيه وقت انتظاره للمترو بمحطة سعد زغلول، ثمّ محطة السادات أو ميدان التحرير الذي لا ينسى الناس اسمه القديم أبداً. كانت الساعة الحادية عشرة والربع، كما تظهر

في الموبايل معه. لم يكن يحمل كتاباً أو كرّاساً، فهذا أوّل التيرم الثاني. دفع باب القاعة بهدوء، فرآها مكتملة بالطلّاب أمامه. عدد كبير، ليس كما كان يرى في بداية التيرم الأوّل. انتظم الطلّاب في الدراسة بعد وقت من التيرم الأوّل الذي غاب عنه كثيراً، وهاهم مُستمرون في الانتظام.

ما إن فتح الباب حتّى اتّجهت الأنظار إليه. تصرّف عادي يحدث مع أيّ شخص يفتح الباب بعد بدء المحاضرة. لكنه ما إن خطا خطوة داخلاً حتّى سمع شهيقاً عالياً “هياي” وسمع أصواتاً متعجّبة “لمياء!” وسمع ضحكات عالية كبيرة. أكثر من تسعين بالمائة منهم لم يروه التيرم الأوّل، لكنه الفيسبوك. تتوقّف الضحكات، لتعود من جديد، وهو يقف حائراً، لا يعرف ماذا يفعل. التفت إلى الدكتورة بيداء، لكنها كانت غاضبة تجرّ على أسنانها. التفت ليخرج، فصعدت الأصوات “لا. لا. ادخل.. تعال”. استدار إليهم، فصقّ بعضهم، واندفع الباقون في التصفيق أيضاً، وبعضهم وقف يحيّيه. وقف أحدهم يهتف “تحيا الحريّة. تحيا حريّة التعبير” فضحك كل الطلّبة الذين كان عددهم يزيد عن المائتين. ازداد الغضب على وجه الدكتورة بيداء، فأخذت كرّاستها التي أمامها، وقالت:

- يكفي هذا. هذه قلّة أدب. لا محاضرة اليوم.

اندفعت خارجة في غضب حتّى إنها كادت تصطدم به، فأوسع لها الطريق. توقّع أن تلتفت وتقول له أن يمرّ عليها، لكنها لم تلتفت، وأخذت طريقها مبتعدة إلى حجرة مكتبها. كيف حقّاً تراه وقد صار رجلاً، هو الذي حرث كل مكان في جسدها؟!

ترك الطلّاب أماكنهم، واندفعوا يحيطون به أولاداً وبناتٍ. يسمع أصواتهم “إيه دا؟ انت بقيت حلو أوي” “معقول. إحنا مش مصدّقين”. بعض الصبيان يمدّون أيديهم،

يلمسونه ضاحكين قائلين "معلش عايزين نتأكد بس" والضحك في كل مكان. كان عدد كبير قد خرجوا من المحاضرة يضحكون، ولم يحيطوا به. لاحظ أن بعض الفتيات أيضاً تلمسنه، وقالت واحدة منهنّ "معلش، بركة يعني". هتف شابُّ ذو لحية طويلة وقد حفَّ شاربه ممّا يشير إلى أنه من السلفيين قائلًا "اللي انتِ عملتيه دا خروج على شرع الله، وربنا حيحاسبك، يا آنسة" وخرج غاضباً، ولم يجد حمزة ما يقوله إلّا أن يمتطَّ شَفَتَيْهِ، ثمَّ قال بصوت خفيض:

- يكفي، يا جماعة. أفسدتم المحاضرة، وأغضبتم الدكتورة بادية، وأنا أريد أن أذهب إلى الكافتيريا حتّى أنسى.

تراجع، فأفسحوا له الطريق ضاحكين. ما إن خرج من الباب حتّى رأى أعداداً كبيرة من الفتيات تنتظرنه، وتطلَّعنَ إليه ضاحكات. بعضهنّ تُخفينَ ابتساماتهنّ بكفوفهنّ، وبعضهنّ ما إن رأينه حتّى التفتنَ ضاحكات، يضربنَ كفوفهنّ ببعضها غير مصدِّقات، وكثير منهنّ أخذنَ سعيدياتٍ صورَ سيلفي معه حتّى استطاع الابتعاد، ومضى في طريقه إلى الكافتيريا. بعد أن ابتعد كثيراً، سمع صوتاً يناديه "انتظر .. انتظر" التفتَ خلفه، فرأى سونيا تضحك، وتقول:

- لماذا تتعجَّل؟ خذني معك، سنجد أصحابنا هناك.

لكن، فجأة وضع شخص يده على كتفه، فالتفتَ، ليجده أحد رجال الأمن يقول له:

- تفضَّلْ معي.

هَبَّتْ فيه سونيا قائلة:

- ماذا تريد منه؟ هذا زميلنا.

لا يعرف هو معنى وصول رجل الأمن. مشى معه، ولم يهتمّ رجل الأمن أن يردّ على سونيا التي أسرعَتْ إلى أصحابها تُخبرهم. وجدتْ عابدين ومُريد، فقاما على عجل، يلحقان به، وعابدين يقول غاضباً "إحنا مش في كُليّة. إحنا في نقطة شرطة!"

كان هو قد وصل إلى مكتب الأمن. كلُّ مَنْ فيه يرتدون ملابس مَدَنِيّة. أكبرهم في المنصب يجلس إلى مكتب فخم، في يده تليفون لاسلكي، وحوله ثلاثة في ملابس مَدَنِيّة واقفون، لهم عضلات جَبَّارة. حمزة يعرف أن الأمن في الكُليّات يتبع شركة خاصّة، اسمها "فالكون" وهي شركة يقال إنها عالمية. ما إن وقف أمام المسؤول الفخيم حتّى قال مَنْ أتى به:

- هذا هو الطالب، يا باشا. ليس من الجامعة.

اندهش جدّاً، ووجد نفسه يقول:

- كيف عرفتَ أنني لستُ من الجامعة؟ هذا هو الكارنيه.

وراح يُخرج من جيب السويتير الأنيق الذي يرتديه فوق التي شيرت محفظته، يُخرج منها كارنيه الجامعة بسرعة. في اللحظة التي قرّر أن يقدّمه للمسؤول ارتبك. الكارنيه لم يتغيّر، واسمه فيه لمياء. أغمض عينيه في حيرة، فنزع رجل الأمن الكارنيه من يده قائلاً:

- لماذا يظلُّ في يدك؟ أكيد، أنت كاذب.

ونظر في الكارنيه، وقدّمه إلى رئيسه قائلاً:

- كما عرفنا، يا فندم. هذا طالب، والكارنيه لطالبة.

اندهش مدير الأمن. ثم ابتسم ساخرًا، وقال بهدوء:

- هل تعرف ما هي عقوبة هذا الغشّ في القانون؟

كان هو مرتبكًا بحقّ، لكنّ، ظهر بالباب عابدين ومُريد وسونيا، وسمع صوت عابدين يقول لرجل الأمن الذي يمنعه:

- لو سمحت، اتركنا ندخل، هذا زميلنا. زميلنا من أوّل العام.

التف حمزة إليهم. كانوا بالباب خلف بعضهم، يتقدّمهم عابدين، وقال مُريد لمدير الأمن:

- لو سمحت، قلّ للأخ الذي يقف أمامنا يتركنا ندخل لحضرتك. الكليّة كلها عارفة أنكم قبضتم عليه. البلد مش ناقصة إشاعات وغلط.

نظر إليه مدير الأمن في غيظ فاتحاً عينيه إلّا أنه كتم غيظه، وقال لرجل الأمن الذي يعترضهم:

- اتركهم.

دخلوا، ووقفوا حول حمزة، وقال له مُريد:

- هل أطلعتَ البية على خطاب المستشفى؟

هنا انتبه حمزة، وقال بصوت لا يكاد يظهر وهو يُخرج الخطاب بسرعة من أحد جيوب السويتير:

- نسيْتُ. ارتبكتُ.

وقدّم الخطاب إلى مدير الأمن الذي فتحه، وقرأ ما فيه بينما حمزة يقول:

- هذا خطاب مؤقت حتّى أنتهي من استخراج شهادة ميلاد وبطاقة رَقْم قومي جديدة. للأسف تأخّرت، لأنه لا بدّ من رفع قضية، ونحن رفعناها، لكن الحكم لم يصدر بعد. لسنا نحنُ السبب، ولا بدّ سيصدر الحكم، ويتمّ استخراج كل الأوراق الجديدة، ويتمّ تغيير كل بياناتي في الكُليّة.

كان مدير الأمن قد قرأ الخطاب صامتاً بينما يتغيّر شكل وجهه، ثمّ فكّر قليلاً وقال:

- هذا الخطاب يمكن أن يجعلنا نتركك، لكنّ، لا يجعلنا نسمح لك بالدخول للكُليّة إلّا بعد أن يُعرَض الأمر على عميد الكُليّة. هو مَنْ يتحمّل المسؤولية.

قالت سونيا:

- لا توجد مشكلة. العميد رجل مستنير، وسيوافق.

نظر إليها مدير الأمن في غيظ، وقال:

- انتظروا هنا. سأذهب إلى العميد أولاً.

قال مُريد:

- تأخذنا معك، حضرتك.

نظر إليهم مدير الأمن في غيظ، ثمّ هزّ رأسه ساخراً يقول:

- ولمياء أيضاً! تعالوا معي.

كانوا يضحكون في الكافتيريا غير مصدّقين ما حدث. قالت محسنة التي انضمت إليهم، ولم تكن معهم من قبل.

- إذا كان هذا حدث في كُليّتك، يا ... آه. حمزة. ماذا يمكن أن يحدث خارجها؟

وقالت سونيا:

- لكن، وقفنا وقفة رجّالة.

قال عابدين:

- أجل. كنّا رجّالة، ووقفنا وقفة رجّالة على رأي محمود المليجي في فيلم الأرض.

ضحكوا، وقال مُريد:

- لو لم نذهب مع مدير الأمن للعميد، لكان العميد قد وافق على منع حمزة من الكُليّة.

قال عابدين:

- بالضبط. الأمن الآن أقوى من المسؤولين في كل مكان، وله الكلمة الأولى. ذهبنا شجّع العميد.

قالت سونيا لحمزة:

- المهمّ المحكمة تحكم بسرعة، وباباك يُنهي إجراءات استخراج شهادة الميلاد الجديدة. بعدها كله سهل.

قالتُ محسنة:

- ما رأيكم نروح حديقة الأورمان؟

قالتُ سونيا:

- آه والله. نخرج من وجع القلب هذا.

قال حمزة:

- اذهبوا أنتم. استمتعوا. أنا للأسف لازم أعود إلى البيت، كي أرتاح. حالتي النفسية ليست جيدة رغم أننا انتصرنا على الأمن.

وسكت لحظة وهم ينظرون إليه، ثم قال:

- الأمن لن ينسى الموضوع، وسيظل كل يوم وأنا داخل يطلب البطاقة مني، ثم يطلب الخطاب الذي معي. مؤكّد وزّعوا صورتي على كل بوابات الجامعة، وأعطوا رجالهم تعليمات يضايقوني، وأنا داخل كل يوم.

قالت محسنة:

- طيّب، لماذا سيفعلون ذلك؟ أنت لا تشكّل أيّ خطر. لا عليهم ولا على الجامعة ولا على الدولة طبعاً.

قال مُريد:

- أنا مع حمزة. للأسف الأمن ليس عنده ثقافة. لا يرى إلّا ما يريد. يكلموك حلو، واللّي في نيتهم يعملوه.

حطَّ عليهم الصمت حتَّى قال عابدين:

- والحلّ؟

- أنا رسبت في التيرم الماضي، لأنني لم أحضر الامتحان. سأتأخّر عن الحضور هذا التيرم أيضاً حتَّى تنتهي أوراقِي.

سكتوا جميعاً حتَّى قال عابدين:

- لكنّ، نحنُ نستطيع عمل ضجّة على الفيسبوك، ونُبعدهم عنك. وربّما يعرف وزير التعليم العالي، فيتدخّل، ويُنهِي الموقف لصالحك.

قال حمزة:

- حتَّى لو تدخّل وزير التعليم. أنا لا أريد أن أعبر باب الكُليّة كل يوم، فينظر إليّ رجل الأمن شذراً وفي قرف. أريدهم أن ينسوني، وهذا يحتاج إلى وقت.

سكتوا من جديد، فتابع حمزة:

- أشكركم جدّاً على ما فعلتُموه، وسوف تجدوني معكم في أيّ موقف، ويا ربّ، لا يحدث أيّ شيء سيّئ لأيّ منكم. اسمحوا لي أنصرف.

سكتوا، فوقف، وصافحهم. أخذ عابدين ومُريد في حضنه، واكتفى بمصافحة سونيا ومحسنة، والتفت يبتعد عنهم. تابعوه بنظراتهم، وقالت سونيا:

- قلبي حزين على هذا الشّابّ الجميل.

قال محسنة:

- لا بنت نافعة ولا ولد في هذه البلد.

اتَّجه حمزة إلى باب الخروج من الجامعة حزينا. أقنع نفسه أن أفضل حلٍّ حقًّا هو أن يتغيَّب عن الكُليَّة. يظلُّ في البيت حتَّى تنتهي حكاية الأوراق المطلوبة، وبعدها يطلب من أبيه أن يوافق على تحويله إلى كُليَّة أخرى أو كُليَّة خاصَّة. والده يستطيع أن يدفع مصروفات أغلى الكُليَّات الخاصَّة. هناك بالتأكيد سيكون نوع مختلف من الأمن. ثمَّ قال لنفسه "لكنَّ موقف زملائه كان عظيماً. كما أن طالبة القسم انتهت صدمتهم بشبه احتفال". ابتسم ساخراً وهو يسأل نفسه "لكن، مَنْ، يا ترى، أبلغ الأمن بما جرى؟!". اتَّسعت عيناه ذهولاً يفكِّر. هل هي الدكتورة بادية، لتنتهي منه أم طالب يعمل مخبراً للأمن، وما أكثر المخبرين في كل مكان؟! قرَّر أن يذهب إلى الدكتورة بادية في بيتها. لا بدَّ ستسمح له بالدخول. مؤكَّد لن تمارسَ معه الجنس، لأنها سحاقية، لكن، يمكن أن يعرف منها مَنْ فعل به ذلك حتَّى لو من بعيد. إذا طردته، ولم تسمح له بالدخول، فستكون هي التي فعلت به ذلك. لكنها الآن لا بدَّ لا زالت في الكُليَّة، فليذهب إليها في محاضرات أخرى في سنوات غير السنة الأولى التي هو فيها. فليذهب إليها في المساء. الآن يعود إلى البيت، ليقنع أمَّه بعدم ذهابه إلى الكُليَّة بقية العام، لكنه فكَّر على نحو مفاجئ أن يذهب إلى دكان أبيه في منطقة معروف. فليتحدَّث مع أبيه أولاً، ولن يرفض طلبه. سيوافق من أوَّل كلمة. ولا بأس أن يدخل سينما زاوية وحده، فسيجد فيها فيلماً جميلاً في كل الأحوال.

وجد نفسه وقد خرج من الباب الكبير على شارع الجامعة، يمشي حتَّى يصل إلى تمثال نهضة مصر. يعرف ويعرف كل التلاميذ من المرحلة الابتدائية أن الذي أبدعه هو الفنَّان محمود مختار بعد ثورة 1919. في صفحات "مصر زمان" التي

يعشقها كثير جدّاً من الأولاد والبنات على الفيس بوك و"يشيرون" ما عليها. كان يرى مصر على غير ما هي الآن. كيف حقّاً نسي كل ذلك؟! لا بدّ أن غناء الموسيقى الضرب في مقهى الفيشاوي هو الذي ذكره بكل شيء. لكن الطريق كان مزدحماً على الأرصفة بالناس وفي نهري الشارع بالسيّارات. وقف أمام التمثال قليلاً يبتسم وهو يتذكّر ممّا قرأه أن المصريّين تبرّعوا بالمال من أجل بناء التمثال. ابتسم ساخراً وهو يتذكّر دعوات السلفيّين وغيرهم بهدم التماثيل. من شعب يتبرّع لبناء التماثيل إلى شعب يريد هدمها. لا بدّ أن حديث الشّابّ عن انقلاب يوليو 1952 صحيح. ولم يقفْ غير دقائق يتطلّع إلى وجه الفلّاحة المصرية أعلى التمثال وهي تنظر إلى الأمام. كان في الجوّ رائحة خانقة من عادم السيّارات. انتقل إلى الرصيف، وأشار إلى تاكسي ركبه طالباً أن يُوصّله إلى منطقة معروف.

كانتُ أوّل كلمة قالها له أبوه فرحاً:

- غداً النطق بالحكم في تغيير بياناتك.

سكت هو من دهشة السعادة، وقال الأب:

- بعد ذلك سيقوم المحامي بإنهاء كل شيء بسرعة. الأمور في مصر الآن ليست بالصعوبة التي كانتُ زمان.

ابتسم حمزة، وفي نفسه شيء من عدم الاقتناع.

بينما يجلس مع أبيه، أتى عمّال كثيرون من المحلّات الأخرى، وأصحاب المحلّات يضافحونه، ويهنيئونه على نجاح العملية. كان مندهشاً كيف انتشر خبر ذهابه إلى دكان أبيه بسرعة هكذا. سأل أباه، فأجاب ضاحكاً:

- صرّت أشهر واحد في مصر، يا حمزة. يعني لو نزلت انتخابات مجلس الشعب،
ولّا حتّى رئاسة الجمهورية، ستحصل على أعلى الأصوات.

ضحك، وسأله أبوه هل يطلب له غداء؟ فقال له سيتغذى وحده. سيذهب إلى
محلّ "أبو خالد" في شارع شامبليون، يأكل الكباب. شهيتته مفتوحة للكبّاب منذُ
خرج من المستشفى. ضحك أبوه، وقال:

- ليتك تتعوّد تأكل كوارع كثيرة حتّى يجمد عظمك، ويصير عظم رجل.

ابتسم. كاد يقول لأبيه أن عضمه ناشف من زمان، وكانت هذه إحدى علامات
الرجولة التي أزعجته. ترك المحلّ، ومشى وعيون الناس في المحلّات المجاورة
تتابعه، ويشعر بها ويقول لنفسه "الناس طيبة كلها، فلماذا يجد نوعاً مثل رجال
الأمن أو أمينة الشرطة التي أحالتّه لضابط البوليس؟ أ ليسوا من مصر مثل
هؤلاء الناس؟!" لكنه لم يشأ أن يشغل نفسه، فقراره بعدم استكمال الدراسة
هذا العام وافق عليه أبوه، وهذه مسألة تستحقّ الاحتفال. فليتغذّ، ويجلس في
المقهى، ويدخل سينما زاوية، وبعدها يذهب إلى بيت الدكتورة بيدا. فليتّصل
بأمّه بعد أن يجلس على المقهى قبل أن يدخل السينما، وقبل أن تتّصل هي به
تطمئنّ عليه.

تناول غداءه من الكباب. توجّه إلى سينما زاوية، وحصل على تذكرة لحفلة
الساعة الرابعة، وجلس في المقهى ينتظر موعد الدخول. جاءت البنت
الجرسون التي رآها هنا من قبل. طلب منها قهوة. وقعت عيناه على عجوز
يشبه كثيراً العجوز الذي رآه مع إحسان يوم عودتهما من عند سناء. هل يمكن؟
هل يسأله مَنْ هو؟ وماذا يفعل هنا؟ أحسّ برغبة قوية داخله أن ينهض ويتّجه
إلى الرجل، لكن الرجل كان قد انتهى من شرب الشاي، ووقف، ثمّ مشى بعيداً

في اتجاه شارع طلعت حرب بخطوات وثيدة. وقف ليتابعه أو يلحق به، لكن البنت الجرسونة كانت قد وصلت بفنجان القهوة، وقالت:

- اجلس. لا تُتعب نفسك. ليس هو.

اندهش جداً، فقالت:

- أنا لم أنسك. أنت كنت بنتاً، وصورك ملأت الفيسبوك، وأنا شاهدتها، وتذكرتُ
أني رأيته بالمقهى قبل العملية. كان معك أصحاب وأختك الصغيرة. صح؟

وقف مذهولاً ينظر إليها، فاستطردت:

- اليوم تذكرتُ سؤالك عن العجوزين اللذين قلت إنك قابلتهما هنا يوم الانفجار
في شارع قصر النيل. الجرسون والرجل الثاني الذي قال لك إنه مخبر. صح؟

كانت تقول ذلك وهي تضحك، فضحك وجلس، فقالت:

- شوف، يا جميل. هذا الرجل العجوز لا يسمع. يتحدث، لكن، بكلمات قليلة جداً.
لا يقول لمن يُحدّثه إلا كلمة واحدة "أم كلثوم" لا تشغل بالك بما حولك في
الدنيا. لن تصل إلى نتيجة أبداً.

استيقظ في اليوم التالي، وجلس يتناول إفطاره مع أمّه في الصالة. قالت له
الأم:

- لقد اقتنعتُ بما حدّثني عنه بابا بعد عودته أمس. لكن، كيف ستمضي الوقت
حتّى نهاية العام الدراسي؟

كان يأكل ويقلّب في صفحات الفيسبوك بالموبايل أمامه، ولم يردّ. سألتُه:

- هل هناك أخبار مثيرة أمامك؟

أبعدَ طبق الطعام من أمامه، ووقف:

- ماذا رأيتَ؟

عاد يجلس مرّة أخرى، ويتأمّل الموبايل وما يراه فيه.

- مالك، يا حبيبي؟ لقد توقّفتَ عن الأكل.

أغمض عينيه لحظة، ثمّ قال:

- شيء لا يُصدّقه عقل. كنتُ سأذهب أمس إلى أستاذتي الدكتورّة بيدا في
منزلها. بعد أن شاهدتُ الفيلم في سينما زاوية شعرتُ أنني مُتعب، لأنني قضيتُ
النهار كله في الخارج. أتيتُ إلى هنا. اتّصلتُ بها لأحدّثها فيما كنتُ أنوي أن
أحدّثها فيه، فلم تردّ.

ابتسمتُ، وقالتُ:

- غريبٌ أنتَ، يا حمزة. يمكن أن تذهب إليها اليوم أو غداً.

نظر إلى أمِّه، وقال:

- ماتتُ. قُتِلْتُ.

- ماذا تقول؟

- الخبر مُتداول على صفحات أصدقائي الطَّلَبَة.

صمتت لحظة غير مصدِّقة، ثمَّ قالتُ:

- لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله. الحمد لله أنك لم تذهب. أكيد كان هناك مَنْ سيعرف أنك زرتَها، ويتمُّ اتِّهامك. متى كانت آخر مرَّة زرتَها؟

- قبل العملية.

- الحمد لله.

- ماما! أقول لك ماتتُ. قُتِلْتُ.

- طيِّب. ليست أوَّل مَنْ يموت، ولا أوَّل مَنْ يُقتل. المهمُّ إنك بخير.

ترك كل شيء، واندفع إلى حجرته، فدخلت وراءه، ورأته يُغيِّر ثيابه، ليرتدي ملابس خروج.

صرختُ:

- حمزة. لن تخرج، ولن تذهب إلى أيِّ مكان. الأخبار ستأتيك إلى هنا في

الموبايل. أبعد نفسك عن الشبهات.

جلس على حافة السرير، ينظر إليها يفكر. أين حقاً كان يود أن يذهب؟ إلى شقة الأستاذة؟ هذا جنون. إلى الكلية؟ كل ما يود معرفته سيعرفه هنا على صفحات الميديا حقاً، ويمكن له أن يتصل بأي من أصدقائه على الماسنجر، يعرف ما يتصور أنه ينقصه. ثم لماذا حقاً يهتم بالموضوع؟ لقد كان في نيته أن يذهب إليها أمس معبراً عن أسفه لها، وأنه كان لا بد أن يذهب إلى الكلية، لتنتهي هواجسه من استقبال الطلاب به، وليس ذنبه ما فعلوه، وأنه قد ينقل نفسه إذا أرادت إلى قسم آخر من أقسام الكلية حتى لا تراه، فتذكره، ويمكن أن ينقل نفسه إلى كلية أخرى. وأسقط في يده فجأة. ماذا يحدث لو كان هاتفها الجوال مع البوليس، وعرف أنه اتصل بها؟ لا. من قتلها لا بد سرق كل شيء يخصها. يا إلهي! ماذا يحدث لو كانت الأستاذة قد كذبت عليه، ووضعت كاميرات لتصوير ما تفعله مع البنات، ليس حتى تستخدمه ضدّهنّ، ولكن، لتستعين به للمتعة حين يغبن عنها؟ وماذا يمكن أن يحدث لو كانت قامت بمونتاج للصور، بحيث لا تظهر هي مع أي فتاة. بل تظهر الفتيات عاريات ترقصن كما فعل هو - أو هي -. لقد انشغلت الميديا بحكاية الفتاتين اللتين ظهرتا عاريتين في فيديو مع مخرج شهير. تم القبض على الممثلتين الصغيرتين، ولم يفكر أحد في القبض على من نشر الفيديو. اتهمتا بالأعمال المخلة بالآداب، وتم حبسهما. المخرج خارج البلاد، ولا أحد يعرف هل سيعود أم لا. لكنه لا يظن أن من قالت إن الجنس صلاة تفعل ذلك.

قال لأمّه:

- لن أذهب. سأخرج لأقابل إحسان في كافتيريا الهناجر، في حديقة الأوبرا، حيثُ يعمل في متحف الفنون.

أَقْسَمَ لَهَا أَنَّهُ لَنْ يَذْهَبَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالْأُسْتَاذَةِ. هُوَ فَقَطْ يَرِيدُ أَنْ
يَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنِ الْحَادِثَةِ، لِأَنَّهُ حَزِينٌ.

قَالَتْ لَهُ:

- تَعَالَ مَعِيَ إِلَى الْمَطْبَخِ. سَاعِدْنِي.

وَجَدَ نَفْسَهُ يَضْحَكُ. يَعُودُ إِلَى صَفَاءِ ذَهْنِهِ. قَالَ:

- خُلَاصٌ، يَا مَامَا، انْتَهَى زَمَنُ الْمَطْبَخِ، وَأَيُّ شَيْءٍ سَأَطْبَخُهُ سَيَكُونُ سَيِّئًا.
الْمَطْبَخُ "نَفْسُ" النِّسَاءِ. الرِّجَالُ يَا!! ..

ضَحَكَتْ أُمُّهُ، وَقَالَتْ:

- هَكَذَا أَنَا مَطْمَئِنَّةٌ. اخْرُجْ، لَكِنْ، أَرْجُوكَ، لَا تَكْذِبْ عَلَيَّ. اذْهَبْ إِلَى إِحْسَانٍ فَقَطْ.

عَادَتْ إِلَيْهِ هَوَاجِسُهُ وَهُوَ يَرْتَدِي ثِيَابَ الْخُرُوجِ. عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ، قَامَتِ الرِّيحُ فِي
الْخَارِجِ. نَظَرَ مِنَ النَّافِذَةِ، فَوَجَدَ الْهَوَاءَ شَدِيدًا وَمُحْمَلًا بِالْأُتْرَبَةِ. لَا بَأْسَ. هَذَا جَوْ
يَسْتَطِيعُ الرِّجَالُ أَنْ يَتَحَمَّلُوهُ. فَلِيُخْرِجْ، وَلَا يَثْنِيهِ شَيْءٌ. الْحَدِيثُ مَعَ إِحْسَانٍ
سَيُخْرِجُهُ مِنْ هَوَاجِسِهِ. لَكِنْ، هَلْ سَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْبِرَ إِحْسَانَ بِهَذِهِ الْهَوَاجِسِ؟
فَلِيَذْهَبَ إِلَى إِحْسَانٍ، يَتَحَدَّثُ مَعَهُ فِي أَيِّ شَيْءٍ. يَدُورُ مَعَهُ فِي مَتَحَفِ الْفَنِّ
الْحَدِيثِ، يَتَفَرَّجُ عَلَى لُوحَاتِ الْفَنَّانِينَ. هَذِهِ مَتْعَةٌ لَمْ يَجْرِبْهَا. فَلِيَحْدِثْهُ إِحْسَانٌ
عَنْهَا. سَيَنْسِي بِهَا الْفَجِيعَةَ، وَلَنْ تَغِيْبَ عَنْهُ تَطَوُّرَاتُهَا.

خَرَجَ وَاسْتَقَلَّ تَاكْسِيَّ إِلَى الْأُوبرَا. سَمِعَ دَقَّاتَ الْهَاتِفِ، وَرَأَى أَمَامَهُ اسْمَ سُونِيَا،
تَحْدِثُهُ عَلَى الْمَاسِينِجَرِ:

- أهلاً سونيا؟

- أهلاً، يا حمزة. عرفتَ ما جرى لأستاذتنا؟

- عرفتُ. تركتُ البيت، لأقابل صديقاً لي في كافتيريا بساحة الأوبرا. أنا حزين جداً. لكن ... الله يرحمها.

- يقولون إنهم وجدوا عندها كاميرات تصوير في البيت. فيه بنت في السنة الثانية انتحرت النهار ده. من عشر دقائق فقط. انتحرتُ في الكُليّة. دخلت الحمام، وقطعتُ شرايينها.

أغلق الخطّ، ولم يُتِمّ المكالمة. ماذا ينتظرُك، يا حمزة؟ كيف كذبتُ عليك أستاذتك هكذا؟ وأحسّ بجسده يرتعش، فطلب هو سونيا وقال:

- آسف. الشبكة سيّئة، لذلك قُطعتْ المكالمة.

- أين أنت؟

- في تاكسي؟

ضحكتُ وقالتُ:

- الشبكات في مصر لا تعمل في البيوت، فهل ستعمل في تاكسي؟

لكنه لم يضحك. تشجّع، وسألها:

- هل عرفوا أسماء مَنْ كانوا يذهبون إليها؟

- حتّى الآن لم ينشر أيّ موقع الأسماء.

تردّد قليلاً، وسألها:

- لكنّ، كيف عرفتم أنها انتحرت بسبب ذلك؟ هل كانت صديقتها مثلاً أو قريبتها؟

- شيء لا يُصدِّقه عقل. زميلة لها قالت إنها كانت تحكي لها ما تفعله مع الأستاذة. تقول إنها كانت سرّها، وإن الأستاذة كانت "شمال". الكلام انتشر بين الطلّاب، لكنّ، الله أعلم. أنا لا يمكن أن أُصدِّق شيئاً سيئاً عن الدكتورة ببداء. كانت جميلة جدّاً معنا في التدريس. لكنّ، لماذا تسألني هكذا؟

سكت قليلاً، وقال:

- لا لشيء طبعاً. أنا فقط مندهش من أحوال الدنيا. ربّنا يرحم الجميع.

وجد السائق قد وقف أمام باب الدخول لساحة الأوبرا، ويفتّش الحراس التاكسي، ثمّ يسمحون له بالدخول والسائق يقول باسمّاً:

- تفضّل، يا جميل. أدخلتُكَ إلى الحديقة. أكثر من هنا غير مسموح لي.

تركه، ووقف يحاول أن يتماسك وهو يدفع له الحساب. عاد التاكسي، وظلّ هو واقفاً يرى على يمينه صوراً للعازفين، وإعلانات عن ما تقدّمه الأوبرا من فعاليات موسيقية. باليه بحيرة البجع في المسرح الكبير. حفلة موسيقية مع عمر خيرت، وحفلة أخرى مع يحيى خليل ملك موسيقى الجاز، وسهرة مع منال محيي الدّين عازفة الهارب الرائعة، وسهرة مع عازفة الماريмба الشّابة الجميلة نسمة عبد العزيز وغيرها. كان قد أخبر إحسان قبل خروجه بذهابه إليه. فليذهب إلى الكافتيريا التي وصفها له والقريبة من متحف الفنّ الحديث، لا الكافتيريا القريبة

من مسرح الهناجر، ولا المجاورة للمجلس الأعلى للثقافة، كما قال له. كيف حقاً فاتته كل هذه الفعاليات في حياته؟! أحس أنه يتماسك، وإلا ما سأل نفسه هذا السؤال. عبر البوابة الدّاخلية في طريقه إلى الكافتيريا. وجد الهواء حوله قد خفّ، والفضاء قد اتّسع والدنيا صارت رحيّة. هناك دائماً أمل، يا حمزة، لا تقلق. ورأى تمثال محمّد عبد الوهاب كأنه شارد عن الدنيا واثقاً في نفسه حزيناَ أيضاً! الكافتيريا على يساره في الحديقة الصغيرة الآن، وإحسان واقف يشير إليه مبتسماً، ولا أحد حوله. وصل إليه، فتصافحا وتعانقا، وما إن جلسا حتّى قال إحسان ضاحكاً بقوة:

- أنت اخترتَ يوم منيّل.

بُهِتَ حمزة من الصدمة، ثمّ سأله:

- ماذا تقصد؟

كان يفكّر لا بدّ أن إحسان عرف بمقتل المدرّسة من الأخبار على المواقع بالإنترنت، لكنّ، هل يهتمّه خبر كهذا؟ وهل يعرف أنها أستاذته؟ لا يذكر أنه حدّثه عنها من قبل. لا، وهو لمياء، ولا، بعد أن صار حمزة!

وأجابه إحسان:

- لوحة شهيرة من لوحات محمود سعيد سُرقَت من المتحف والدنيا مقلوبة.

تنهّد حمزة في ارتياح، وقال:

- عادي، حدثتُ كثيراً من قبل.

قال إحسان:

- وأنا طالب قرأتُ عن سرقة لوحة "زهرة الخشخاش" لوحة شهيرة جدًّا لفان جوخ من متحف محمّد محمود خليل.

سكت حمزة قليلاً، ثمّ قال:

- سرقة اللوحات في مصر مثل سرقة الآثار. لا تعرف الجاني أبداً.

أشار إحسان إلى الجرسون، وطلب قهوة لهما، ثمّ سأله:

- لكنّ، كيف دخلت؟ هل طلبوا منك الرّقم القوميّ، وكتبوا اسمك؟

ارتبك حمزة، لكنه ابتسم وقال:

- لم يطلبوا شيئاً. بالعكس دخل بي سائق التاكسي من البوابة. فقط فتّشوا التاكسي. لكنّ، شفت كلباً نائماً إلى جانب أمين الشرطة الجالس.

- أكيد تعب من التفتيش، ويستريح.

ضحك، وكان صوت إحسان أعلى دائماً في الضحك، ثمّ قال:

- أمر غريب. تدخل بسهولة رغم أنهم أعلنوا التشديد على كل البوابات. كل مَنْ يدخل اليوم كما قالوا لا بدّ أن يقول لماذا يدخل، ويعطيهم بطاقة الرّقم القومي يسجّلوا بياناتها.

ثمّ ضحك إحسان من جديد، واستطرد:

- عادي. كان أحلى وقت أنزل فيه من البيت أيّام حظر التجوال بعد عزل محمّد مرسي. كانت كثيرة جدًّا، وخصوصاً بعد فضّ ميدان رابعة وميدان النهضة. كان

فيه رعب من الإخوان وردود أفعالهم. وحياتك كنت أنزل من البيت، ولا يهمني ولا
مرة عسكري، ولا دبابه منعني من المرور.

ابتسم حمزة، وقال:

- أنا كنت صغيراً، وأصلاً لم يكن يُسمح لي بالنزول بعد المغرب.

ابتسم إحسان، وقال:

- انزل، يا عمّ، براحتك الآن، ولا يهملك.

ضحكا، وتساءل حمزة:

- غريب أن أمر سرقة اللوحة لم يُنشر على المواقع الإلكترونية حتّى الآن.

- نُشِر منذ دقائق. كانوا متكيّمين، لكنّ، قبل وصولك، ربّما بدقيقة، انتشر الخبر
بشكل رسمي من مكتب وزير الثقافة.

كان الجرسون قد عاد بالقهوة، وأخذا يحتسيانها، وتساءل إحسان:

- هل هناك شيء هامّ تريد أن تحدّثني فيه؟

- أبدأ. أنت حدّثتني كثيراً عن جمال الجوّ والمكان هنا. واسع وشمسه حلوة.
قلت استمتع شوية.

ابتسم إحسان، وقال:

- نشنت، يا فالح!

ضحكا، فقال إحسان:

- بالمناسبة، هل قرأتَ عن مقتل أستاذة الفلسفة اليوم؟

ارتبك حمزة، ثمَّ قال:

- الدكتورة بيداء؟

- أجل.

- قرأتُ وحرزْتُ. هي أستاذتي، لكنْ، طبعاً أنا لم أرها كثيراً لعدم ذهابي للكلية.

ضحك إحسان، وقال:

- قرأتُ بوست يُرثيها كاتبته سناء.

نظر إليه حمزة في دهشة لحظة، ثمَّ تساءل متخابثاً:

- سناء مَنْ؟

- سناء جُنَح، يا جدع، بتاعة البستان اللي جبتك من عندها.

هزَّ حمزة كتفَيْه، وقال:

- عادي. ربَّما تعرفها أو كانتْ تلميذة عندها يوماً ما.

- كانتْ تلميذة فعلاً عندها منذُ عشرين سنة. سناء كتبتْ هذا. لكنْ، هكذا تبقى

الدكتورة بيداء الله يرحمها "شمال"!

سكت حمزة من جديد، يقول لنفسه الأفضل الآن السكوت، فقال إحسان:

- على أيِّ حال، ابقَ هنا حتَّى أنتهي من العمل. سأتركك بعد أن أشرب القهوة. يمكن أن يشكُّوا فيَّ، ويتساءلون لماذا أختفي كل هذا الوقت فجأة؟! أنا صحيح موظف إداري، لكن، لا أحد يعرف كيف تسير الأمور في مصر.

بعد أن تركه إحسان، عاد حمزة إلى الفيس بوك ومواقع الأخبار يتابع ما يجري في مقتل أستاذته. لم يشأ أن يفعل ذلك في وجود إحسان، لأنه يعرف أنه سينغمس في المتابعة إلى درجة تلفت نظر إحسان الذي سيراه غافلاً عن وجوده. كان أفضل لو عاد من الطريق خاصّة بعد أن عرف من سونيا نبأ انتحار الطالبة، لكن، هكذا شاءت الأقدار. لم يكن في حالة يمكن أن يستقرّ معها على شيء. كان قد قال لإحسان إنه سيظلُّ جالساً بعض الوقت للاستمتاع بالشمس والجوِّ الصافي، فقال له إنه سينتهي من عمله في الساعة الثانية والنصف، وسيأتي إليه. ثلاث ساعات أخرى ليست طويلة خاصّة إذا تحرّك حمزة، وزار مكتبة المجلس الأعلى للثقافة مثلاً، يتفَقَّد كُتُبها، قد تعجبه كُتُب من بينها، وإذا فعل الشيء نفسه في مكتبة المركز القومي للترجمة، والطريق إلى كل منهما واسع ومشمس مثل كل مكان هنا. سأل حمزة نفسه لماذا حقّاً لم يزر هذه الأماكن من قبل مع إحسان؟ انشغل بالدراسة وما يقرؤه من كُتُب إنجليزية. دائماً يميل إلى القراءة بالإنجليزية أكثر من العربية. وحين أرشده أبوه لقراءة رواية "إني راحلة" لم تجذبه. سيفعل ذلك الآن. المهمّ أن يتابع ما جرى، قد تأتي الطمأنينة، تذهب بالفزع الذي يحاول أن لا يُظهره لإحسان. كان سيحكي له عن علاقته السابقة مع القتيلة، لكن، الآن بعد انتحار طالبة، وبعد ما قيل عن كاميرات في بيتها، لن يتحدّث. لترك الأمر مفاجأة أو صدمة للجميع. طرُ. ماذا يدينه إذا كان قد مارس السحاق وهو لمياء؟ وأين هي لمياء ليقبضوا

مثلاً عليها؟ طز. فليقرأ على الفيس بوك بغير اهتمام، ويتسلّى.

“ابنة أخت الدكتوراة القتيلة كانت قد اتّصلتُ بها في المساء أكثر من مرّة، ولم تردّ عليها. كانت تريد إخبارها أن أمّها - أخت الدكتوراة القتيلة - أُصيبتُ بهبوطٍ حادّ في الدورة الدّمويّة، ونقلوها إلى المستشفى. في الصباح، اتّصلتُ ابنة أختها من جديد، ولم تردّ عليها. ذهب ابن أختها إليها في قلق، لأن أخته ذهبتُ إلى المستشفى، تتابع حالة أمّها التي في غرفة الإنعاش. دقّ جرس الباب، فلم تفتح. نادى على حارس العمارة، وسأله هل رآها وهي تخرج في الصباح إلى الكلّيّة، فقال إنه رآها أمس وهي عائدة من الكلّيّة، ولم يرها تخرج مرّة أخرى. تردّد ابن أختها بين أن يكسر الباب أو يبلغ البوليس. كان البوّاب يطلب منه الصبر، فلا غرباء يدخلون إلى البيت إلّا ويتعرّف عليهم، وقد تكون نائمة. لكنهما سمعا صوت خروشة في الباب من الداخل، كأن أحداً يحاول أن يفتحه. ابتسم البوّاب، وقال “ربّنا كريم، أكيد هي بالداخل، وستفتح الباب” لكن الخروشة انتهت، وسمعا صوت شيء يرتطم بالأرض. صرخ البوّاب “عايزة حاجة، يا أستاذة. سامعاني” ولا ردّ. صمّم ابن أختها على كسر الباب. لم ينتظر أن يأتي له البوّاب بنجّار يساعده. ظلّ يضرب في الباب بكل جسمه حتّى كسره وخلعه من مكانه. وجدوا على الأرض الأستاذة بيداء ممدّدة على ظهرها، ودم كثير من بطنها متجمّد فوق ثيابها.” صرخ البوّاب:

- كانت فيها الروح. ليتك جئتَ أمس، وكسرنا الباب.

“بعد معاينة البوليس الأولى اتّضح أن القاتل هرب، ولم يتمّ العثور على السيّكين أداة القتل. فقط كل أدراج الدواليب مفتوحة، ولا وجود لأيّ أموال أو قطع فضيّة أو ذهبية أو موبايلات. ثلاث قطع فضيّة كانت على الأرض في الطريق إلى المنور، يبدو أنها سقطت من اللصّ وهو يهرب إليه. وَضَعُ الْقِطْع هكذا يوضح أن اللصّ

استخدم المنور في الدخول إلى الشقّة. الباب المؤدّي إلى المنور في العمارة من أسفل مغلق، فمن أين جاء؟ بفحص السطح وُجد أن المبنى الخلفي كان في الأصل فيلاً أثرية، تمّ هدمها لبناء عمارة جديدة، وأن هذه العمارة لم تتمّ حتّى الآن. سترتفع إلى خمسة عشر طابقاً، وما نُقِّذ منها بالخرسانة بدون جدران سبعة طوابق، والمسافة بينها وبين المنور لا شيء، ويمكن لأيّ شخص أن يمرّ منها خاصّة أنه لا توجد بعد جدران تسدّ الطريق. الأرجح أن القاتل من عمّال العمارة الجديدة. لقد ارتكب جريمته بهدوء أعصاب، وأخذ حتّى السيّكين الذي طعن به الأستاذة الجامعية”.

كان ذلك يشعل قلب حمزة بالألم. لكنّ، عاد إليه القلق. يريد أن يصل إلى نتيجة تفريغ الكاميرات، ولا يجد أيّ حديث عنه. حتّى لو حصل البوليس على بيان بالمكالمات التي طلبتها من شركة الاتّصالات، فهذا لا يخيفه. هي أستاذته، وكان يريد أن يسألها في أمر يخصّ الدراسة. الرعب هو من الكاميرات. كم سيطول عذابه؟! لم تكن الطالبة التي انتحرت مخطئة. ما أبشع الفضائح في هذا البلد! لقد دخل من قبل على صفحات الترانسجيندر الأجنبية، ولم يجد عليها أحداً يسيء إلى أحد. أغواه البحث أن يدخل على صفحات السحاقيات والشّواذّ، فلم يجد بينهم مَنْ يسيء إليهم. قرأ عن رئيس وزراء لوكسمبورج كزافييه بيتيل الذي حضر مؤتمر القمة العربية الأوربية في فبراير الماضي بشرم الشيخ، وتفاخر بالرجل الذي يتزوّجه. كم من السنون تحتاجها مصر والدول العربية حتّى لا تلتفت إلى هذا النوع من البشر، وتركهم في عالمهم الصغير، فلا أحد يذهب إليهم بغير إرادته أو بغير ميوله النّفسيّة التي تُجبره على ذلك. لكنه لن يستطيع أن يكتب هذا. أعجبه منذُ عدّة أشهر تعليق أحد الكُتّاب على الفيسبوك، يقول “يسألونني عن قضايا كثيرة تشغل الناس مثل الحجاب والنقاب والأذان بصوت عالٍ وتجديد الخطاب الدّينيّ، وهل ما حدث في مصر ثورة أم

انقلاب؟ وهل قطر وتركيا سبب ما نحن فيه أم أميركا وإسرائيل؟ وهل تيران وصنافير مصرية أم سعودية؟ وهل ترى تعديل الدستور ليحكم الرئيس مدّتين أخريّين لصالح البلاد أم لصالح الرئيس؟ وهل تفكّر في جائزة نوبل على كتاباتك؟ وإجابتي أن ما يشغلني هو أن أذهب إلى أيّ مكان في طُرُق نظيفة ومواصلات نظيفة خالية من الزحام، وأن أعود إلى منزلي بلا تعب في الطريق. لا أريد ولا أفكّر في شيء آخر".

طال بها الوقت، ولم تصل إلى أيّ خبر عن تفريغ الكاميرات ببيت الأستاذة القتيلة، ولم يكن باقياً غير نصف ساعة على عودة إحسان، لكنها لم تستطع البقاء. كيف تمضي بقية اليوم معه وهي في هذا الحال من القلق الذي يدمّرها؟! لقد نسيتُ أن تقوم تتفرّج على الكُتُب كما اقترح عليها إحسان بمكتبة المجلس الأعلى للثقافة أو مكتبة المركز القومي للترجمة. ستجد الفرصة مرّة أخرى. الآن، فلتكن في بيتها. المهمّ أن تعود بسلام، وفي وقت سريع، كما يحلم الكاتب الذي قرأت له ما تذكّره".

اكتشف حمزة أنه يفكّر فجأة على طريقة الأنثى، فشمله الرعب، وترك المكان مسرعاً.

لا نوم وصوت مؤذّن الفجر يأتي من مسجد قريب. يتهاوى حمزة بين حين وحين على السرير رغم أن أباه قد اتّصل بأُمّه آخر نهار أمس، يُبشّرها أن شهادة الميلاد الجديدة ستكون معه بعد ثلاثة أيّام بعد أن صدر حُكم المحكمة، وبعده سيكون استخراج بطاقة حمزة في يومين أو ثلاثة. أخبرته أمّه بذلك، وسألته لماذا لم يردّ على أبيه الذي أراد أن يزفّ إليه الخبر. لقد طلبه أكثر من مرّة؟! ما الذي يشغله إلى هذا الحدّ؟!

منذُ عاد في الظهيرة أمس لا يترك غرفته. حين سألتُهُ هل تُعدُّ له طعام الغداء؟ قال لا. وتناول في العشاء شيئاً قليلاً. ذهب عقل الأمِّ إلى أن شيئاً سيّئاً قد حدث في العملية الجراحية، وأن ابنها - أو بنتها - قد يدخل في مشاكل كبيرة. ما الذي يمكن أن يحدث لشخص غادر الأنوثة إلى الرجولة، ثمّ أخفق التّحوّل، ولم يستطع العودة؟ ارتعبت الأمُّ من فكرة الانتحار. هذا ابنها الغالي. ابنتها الغالية. وراحتُ تصلّي المغرب، وتدعو الله أن يحمي حمزة من كل شرٍّ. حمزة أو لمياء المهمّ أن يعيش. "اللّهمّ، لا تعاقبنا بما فعلناه. لم نفعلْ أكثر من تلبية رغبة ابنتنا المسكينة. ثمّ إنّنا أخذنا موافقة الأزهر! إلى مَنْ كان يمكن أن نلجأ؟"

رأتُ رانيا أمّها في شروق طوال النهار. كلّما سألتها عن شيء تبحث عنه تقول "دوري عليه". كلّما سألتها ما إذا كانت تحبُّ أن تُعدّ لها قهوة أو شاياً، تهزُّ رأسها بـ "لا". وحين جلستُ رانيا أمام التلفزيون، وأشعلته على ميلودي كلاسيك، ورأتُ أمامها فيلم "إشاعة حبّ" قالتْ لأُمّها فرحة "الله، يا ماما، عمر الشريف وسعاد حسني" ردّتْ أمّها "اتفرّجي وانتِ ساكتة. أنا باسيح لرّينا" وكانت السبحة في يدها، تسبّح عليها بأسماء الله الحسنی بصوت لا تسمعه رانيا،

وإن كانت ترى شَفَتَيَّ أُمِّهَا لا تكفَّان عن الحركة. قالت رانيا:

- أنا ملاحظة، يا ماما، أن حمزة لا يخرج من الغرفة، وأنت متضايقه جداً وشاردة، لا أعرف لماذا. هل حدث شيء سيئ بينكما؟

لكن أُمُّهَا لم تردّ. رانيا بدورها لم تستطع أن تُكمل الفيلم. دخلت غرفة حمزة، قالت:

- هل يمكن أسألك سؤالاً؟

- لا داعي، يا رانيا. اتركيني في حالي الآن.

خرجت رانيا غاضبة، وقالت بعد أن خرجت من باب الغرفة أمام أُمِّهَا في الصالة:

- أنا طهقت. يعني إيه مش عارفة أتكلّم مع حدّ في البيت دا؟!

واندفعت إلى غرفتها ملقية بنفسها على السرير، ثم فكّرت قليلاً، وقالت لنفسها "طيّب. سأعرف كل شيء من الفيسبوك".

دخلت على صفحة حمزة، فلم تجد أيّ جديد أضافه عن آخر مرّة منذ أيّام. راحت تتفقد صفحات بعض أصحابه، علّها تجد عندهم ما يفسّر ما يحدث اليوم. إنها لا تعرف من أصدقاء أخيها على الفيسبوك صديقاً حقيقياً إلّا إحسان، لكن، قد تجد عند غيره ما يفسّر الحال، ولو صدفة. دخلت على صفحة إحسان، فوجدت خبر سرقة لوحة الفنّان محمود سعيد، وتعليقات كثيرة عليها. عرفت من دراستها أن محمود سعيد أحد الفنّانين الكبار، ولوحته الشهيرة في الكتاب المدرسي هي "بنات بحري". بنات بالملاءات اللّفّ زمان واليَشْمَك على وجوههنّ. ليس لديها ميل إلى الفنّ التشكيليّ، لكنها أعجبت باللوحة، لأن الكثيرين معجبون بها.

تركْتُ صفحة إحسان، إلى صفحات الأصدقاء لأخيها. بعض الصفحات لا تنفتح إلَّا بعد تقديم طلب صداقة، والموافقة عليه. ليس مهمًّا أن تدخل على كل الصفحات. تدخل على ما يُتاح لها. وجدتُ شخصاً يتحدَّث عن مقتل الأستاذة الجامعية. أستاذة الفلسفة بكُلِّيَّة الآداب. هل يكون ذلك هو السبب؟ ربَّما يعرف حمزة هذه الأستاذة. لكنْ، هل مقتلها يعني أن يُصاب بكل هذا الشرود والضيق؟ هل له علاقة وثيقة بها هو الذي لم يذهب إلى الكُلِّيَّة كثيراً حين كان "لمياء"، ولم يذهب غير مرَّة أو مرَّتين بعد أن صار حمزة؟ هل تخرج وتسال أختها؟! تقصد أخاها. لن يتحدَّث معها، وسيطلب منها الخروج. ف لترسل له رسالة على الإن بوكس، قد يرَدَّ عليها. ربَّما تكون الكتابة أخفَّ عليه من الحديث.

"حمزة، يا حبيبي. إذا كنت زعلان علشان أستاذة الفلسفة، فكل الناس حتموت. وكمان أنت ما رحتش الكُلِّيَّة كثير، يعني أكيد ما تعرفهاش. فُكْ وشك والنبى".

لم يأتها الرَّدُّ. استمرَّت تتفقَّد الصفحات الأخرى. لا شيء أكثر من خبر مقتل الأستاذة. بوسسات خلفيتها سوداء كثيرة من الطَّلَبَة ترثي الأستاذة. بيان من الكُلِّيَّة يرثي الأستاذة، وكيف أنهم لن يتوانوا عن معرفة الجاني بأسرع وقت. بوسسات قليلة ترثي طالبة انتحرت في دورة المياه في الكُلِّيَّة، ولا يعرف أحد السبب. سؤال من بنت اسمها سونيا يقول "البعض يسأل لماذا انتحرت زميلتنا سعيدة عبد الغني بعد خبر مقتل الأستاذة ببداء بوقت قليل. الانتحار صحيح تمَّ بعد انتشار خبر عن وجود كاميرات في شقَّة الأستاذة، فهل هذا يدعو إلى انتحار أحد! هل تعرفون ما في الكاميرات؟! لماذا لا تذهب عقولكم إلى أسباب أخرى بعيدة عن مقتل الدكتورة ببداء ووجود كاميرات في شقَّتها؟" دقَّت في صورة سونيا هذه. أحسَّت أنها تعرفها. فتحت ملفَّها للصور. هي مَنْ فكَّرت فيها

حقاً. قابلتها مع أختها - تقصد أخاها - في المقهى عند سينما زاوية، ومعها زملاء له في الكليّة. بل إن الصور التي التقطتها سونيا لهم توجد فيها رانيا ولمياء. إذن، هي من أصدقاء لمياء - حمزة - المقرّبين. لا بدّ أنها أخبرت حمزة بشيء سبّب له كل هذا الانزعاج. لكن، كيف فاتها أن تكون صديقة لسونيا. أرسلتُ إليها طلب صداقة، ورسالة على الإن بوكس، تُذكّرُها بنفسها، وكيف أن لها صوراً معها ولمياء سابقاً عند سينما زاوية، وانتظرتُ قبول الصداقة بشوق وقلق بينما راحتُ تقرأ التعليقات على بوست سونيا:

"ليس لانتحار سعيدة عبد الغني علاقة بمقتل الأستاذة بادية. هي صدفة، لكن، نحنُ مغرمون بالإثارة. سعيدة عبد الغني كانت رقيقة جداً، ومن عائلة كبيرة، وليس في عائلتها أحد يعمل في نجارة أو حدادة أو بناء المعمار. الشبهات تتركّز حول عمّال البناء في العمارة الجديدة".

وكتب آخر:

"يعني يهدموا الفلل الأثرية، وبينوا عمارات ومولات معقّنة، وبعدين كمان يقتلوا السكّان القدامى بتوع زمان اللي شافوا الدنيا حلوة، واللي لسه مخليينها حلوة؟! "

وعلّقت فتاة:

"أنا من الدُقّي. من ميدان المساحة. طبعاً مش عايزة أقول لكم على شكل الدنيا زمان وشكلها دلوقت. عارف لما تنتقل من قصر لخرابة. أهو دا اللي صار وكان".

قالت رانيا لنفسها "إحنا في إيه ولّا في إيه. ما هي الدنيا خرابانة في كل حِثّة.

دا أنا الصغيرة شفت البيوت الحلوة حوالينا هنا كلها دورين ثلاثة أو أربعة بالكثير، وتعالوا شوفوها دلوقت. دا احنا بيتنا ما تهديش، علشان السكّان رافضين يطلعوا رغم أن الورثة أصحابه عرضوا على كل ساكن شقّة مليون جنيه. حتّى لما عرضوا عليهم يخرجوا ويرجعوا مكانهم تاني، بس يسيبوهم بينوه عشرين دور، قالوا لا. مش عايزينه يعلى عن كدا. أنا، يا عالم، عايزة أعرف أختي زعلانة ليه، وأمّي ليه قرفانة؟!"

قرّرتُ أن تدخل على جوجل، فقد تعرف أكثر. ستجد عليه إشارات للفيس بوك وغيره من مواقع الأخبار. كتبتُ على جوجل "بادية" و"كليك" فظهرت أمامها الموضوعات. صور لصحارى واسعة، وجِمال في طوابير ترتحل، ورجل وحيد على جمل، ليس حوله إلّا الفراغ، وعناوين مثل "ظباء البادية مَنْ يعثر عليها اليوم؟ ثعالب الصحراء، وهل هي مثل ثعالب الحقول؟ أصوات الجنّ والعفاريت في البوادي. هل لايزال هناك مَنْ يأكل الضباب؟ أهّمّ شعراء البادية" كادتُ تضحك وتقول أنا مالي بهذا كله. ثمّ لمحتُ صوراً لنساء عاريات على صفحات تابعة للفيسبوك. فتحتُها، فوجدتُ ثلاث بنات، يحملن اسم بادية، تبدو الأولى مغرمة بالسحاق، أمّا الثانية، فتبحث عن مشتاقين في بلدها، وتركتُ رَقْم تليفونها. كانتُ رانيا تبتسم وينكمش وجهها خجلاً. ووجدت الثالثة قد كتبتُ "مَنْ يريد أن يرى أجمل أوضاع النكاح يدخل على صفحتي" قالتُ الله يقرفك، لكنها لا إرادياً حكّتُ فخذيّها ببعضهما. غيّرتُ عناوين البوست، وكتبتُ "مقتل أستاذة الفلسفة بادية" فوجدت الأخبار كثيرة لا تختلف عمّا قرأته في صفحات الفيس بوك. إلّا أنها وجدت خبراً صغيراً جدّاً، عنوانه "سرُّ انتحار طالبة بعد مقتل أستاذة الفلسفة" وقرأتُ: "انتحرتُ طالبة بعد مقتل أستاذة الفلسفة بكلّيّة الآداب جامعة القاهرة، وتسرّبت إشاعات أنها كانت على علاقة ما بها. نحنُ لا نمشي وراء الإشاعات، لذلك لا ننشر اسم الطالبة".

شردتُ قليلاً، وقالتُ "يا صحافة وسخة. تنشروا الخبر، وتعملو ليه عنوان أطول من الموضوع، وتستعبطوا! طيّب، ما كل الطلبة أكيد عارفين اسم الطالبة!".

الأفضل أن تغلق هذا الموبايل، وتتناول عشاءها، وتذاكر قليلاً، وتنام. لكنَّ عينيَّها اتَّسعتا. هل يمكن أن يكون هناك علاقة ما بين أختها - أخوها - والأستاذة؟ أغلقت الموبايل، وأسرعتُ إلى دورة المياه تُفرِّغ بولها.

سيذهب حمزة إلى مقهى البستان اليوم. لقد هزمه النوم بعد الفجر. قام أكثر من مرَّة من النوم قلقاً، ونام مرَّة أخرى. في الحادية عشرة، استيقظ وهو يتذكَّر أن آخر مرَّة استيقظ فيها قلقاً كان ضوء النهار يشتدُّ من خلف شيش وزجاج النافذة. لقد نام طالباً أن لا يصحو. أن يجدوه جثَّة. لا يريد أن يبكي أمام أمِّه ولا أبيه ولا حتَّى رانيا. إنهم لا يرون ما يستحقُّ ذلك، وسيبحثون عمَّا يخفيه عنهم. لكنه بعد أن استيقظ دخل إلى المطبخ، يُعدُّ لنفسه كأس نسكافيه بالحليب، وأخذه إلى الصالة، يشربه وأمُّه جالسة، ولم يُحضِر أيَّ نوع من الطعام معه. لا خبز ولا جبن، وقرَّر أن ينشغل في مشاهدة أيِّ فيلم، وفتح الموبايل على مواقع الفيس بوك ومواقع الأخبار كما تعود، ثمَّ فجأة هتف قائلاً:

- ماما. أنا جعان جدّاً. هاتي لي عشر ساندوتشات. أو أقول لك اعملي لي بيض بالبسطرمة. اعملي لي خمس بيضات، وحطِّي عليها البسطرمة اللي عندنا كلها. أنا قايم نفسي مفتوحة، وأريد أن أكل الجدران أيضاً.

نظرتُ إليه أمُّه في ذهول قائلة:

- بسم الله الرحمن الرحيم. إنْتَ كنت قاعد تشرب النسكافيه من غير نفْس.

ماذا جرى؟

- كل الأخبار حلوة.

قال ذلك، وراح يضحك، ثم استطرد:

- سيُلغون الضرائب كلها، ويجعلون الكهرباء والمياه مجّاناً، والمتمرو بعشرة قروش، وسيُفَرِّجون عن كل الشباب من السجون، وأيّ واحد يحبّ واحدة سيُزوَّجونهما بدون تكاليف. آه والله.

وقام يمشي مستطرداً في الحديث عن الأخبار الحلوة التي يخرعها، ويدور بين المقاعد وأُمّه تنظر اليه وتقول "بسم الله الرحمن الرحيم" ثمّ صرخت فيه:

- اجلسْ واسكتْ، كفاية تهجيص.

جلس يبتسم ويقول:

- طيّبْ، والنبي اعلمي لي إفطار حلو.

- طيّبْ، قلْ لي ماذا حدث.

- لا شيء. أحلم. نحنُ حقّاً ناس ميسورين، ولا يهَمُّنا أيّ شيء من هذا كله، لكنّ، أنا أحلم أن ربّنا يحقّق أحلام الناس الغضبانة على الفيس بوك.

قامتُ أمّه متّجهة إلى المطبخ تقول:

- لا والنبي. هناك شيء لا أعرفه.

ضحك هو. طبعاً لم يذكر ما قرأه وهو بوست لصديقه عابدين كتب فيه "اكتشفت

النيابة أن كاميرات شقّة الدكتوراة لمياء قتيلة حيّ الدُّقّي لا تعمل، وأن الأفلام التي بها قديمة، تعود إلى عام سابق، وليس فيها أيُّ شيء، لأن الكاميرات من النوع الذي يمسح ما تمّ تصويره بعد عشرة أيّام".

ورأى بوست آخر عند محسنة "الذين أرادوا الربط بين الطالبة سعيدة عبد الغني التي انتحرت والدكتوراة بيداء أفّاقين، وعليهم أن ينكمدوا الآن بعد "التلقيح" الحقيق الذي أشاعوه أمس عنهما".

عادتُ أمّه، ووضعتُ أمامه صينية، فيها طبق بيض بالبسطرمة، وقطعة جبن رومي، وقطعة جبن روكفور، وقطعة جبن حلّوم، وقِطَع صغيرة من الخبز وهي تقول:

- ثلاث بيضات وبسطرمة كثير، المهمّ تقدر تاكلها.

وكانتُ قد اقتربتُ جدّاً، فانحنتُ تنظر إلى الموبايل، لعلّها تلتقط صورة أو كلمة، فقال لها:

- لا شيء مهمّ سترينه هنا. صفحتي، أنتِ صديقة فيها، فادخلي عليها.

كان في أثناء قدومها من المطبخ قد أعاد صفحته أمامه، لا صفحة لأيّ صديق.

راقبتُ أمّه وهو يأكل بشراهة جائع منذُ أيّام، وهي لا تزال تهزُّ رأسها في دهشة، وتبتسم. مسح الطبق تقريباً، لم يترك فيه أيّ أثر للبيض ولا للبسطرمة ولا للسمن، وأتى على قِطَع الجبن كلها، ووقف يتمطّى ويقول "الحمد لله". أحسّ وهو يتمطّى أن فمه قد اتّسع، وأن أسنانه قد طالت وامتدّت إلى الأمام،

ووجد نفسه يقول "ها" كأنه سيقضم حيواناً أمامه. غاب عنه المكان وهو يدور فيه وأُمُّه تتابعه مندهشة. رأى نفسه وقد صار يمشي في الشوارع جاريًا يهاجم الناس، يعض مَنْ يطوله منهم. الناس تختفي من أمامه، وهو لا يكفُّ عن الجري خلفهم. مَنْ يطوله منهم يدفعه من الخلف إلى الأرض، ثم يسقط فوقه، يعضُّ فيه، ويأكل من لحم صدره وذراعَيْه وبطنه. يفتح بطنه أمامه، ويجري الدم في الطُرُقَات. تأتي السيَّارات مسرعة نحوه، تراه منكفئاً فوق جثَّة، يقضم فيها. تعود السيَّارة ممتلئة بخوف مَنْ فيها. يجري هو خلفها، فيغلق مَنْ بداخلها النوافذ، لكنه يكون قد تعلَّق بنافذة منها، محاولاً قضم ذراع مَنْ يجلس جوار النافذة. انتشر الخبر في كل المدينة عن ظهور زومبي غريب في مصر. كان قد جلس جوار أُمِّه مبتسماً ذاهلاً عنها فيما يرى. أخفى الناس أطفالهم عن المدارس. نشرت الصحف أن وقوعَ سَيِّسَتِمْ الامتحانات في نظام وزير التعليم الجديد القائم على استخدام التابلت والإنترنت ليس وراءه الإخوان المسلمون فقط، ولا الملايين الذين دخلوا على سَيِّسَتِمْ الوزارة من البلاد الخارجية في أثناء الامتحان، لكنه الزومبي الذي ظهر، واستطاع أن يأكل الشبكات والأعمدة العالية، وبشفت موجات الأثير، ولديه قدرة أيضاً أن ينزل تحت البحر، يقضم كابلات الإنترنت الممتدَّة من أوروبا إلى مصر. كان يضحك ويهشُّ الرؤى من أمام عينيَّه، لكنها لا تضيع. أُمُّه لا تتوقَّف عن النظر إليه، وتقول بصوت يسمعه "إيه هو دا، يا اخويا. إيه اللي جرى لك، يا حمزة، إنتَ رحت فين. ماكانتش بسطرمة اللي أكلتها زيّ ما يكون أسد بياكل فريسة" وكانت الفريسة في فمه. إنها سناء "جنح" وربّما "نفخو" وقد مدَّدها على الأرض أمام مقهى البستان التي صارت خالية. فور أن مزَّق ملابسها بأسنانه، نزل إلى فرجها، فأخرجها بين شَفَتَيْه، وبصقه بعيداً، والدم قد اندفع من بين فخدَيْها إلّا أنها قامتْ تجري وتقضم مَنْ يقابلها. ألقتْ بالشباب إلى الأرض، وراحتْ تقضم دُكُورهم وهم يصرخون ويجرون بدورهم وراء الرجال والنساء. المذيعون في الفضائيات يصرخون "فلترتدِ النساء

حَقَّاضَاتٍ مِنَ الْحَدِيدِ" "حِزَامُ الْعَقَّةِ لَا بَدَّ أَنْ تَسْتَوْرِدَهُ الدَّوْلَةُ بِسُرْعَةٍ بِالطَّائِرَاتِ
النَّفَّاسَةِ" رِجَالُ الْأَعْمَالِ يَتَنَافَسُونَ عَلَى مَنْ يَسْتَوْرِدُ أَكْبَرَ كَمِّيَّةٍ مِنْ أَحْزَمَةِ الْعَقَّةِ
الْحَدِيدِيَّةِ لِلنِّسَاءِ. مَتَّصِلٌ يَسْأَلُ لِمَاذَا تَتْرَكُونَ الذَّكَورَ بِلَا وَاقٍ مِنَ الْحَدِيدِ أَيْضًا، يَا
أَوْلَادَ الْكَلْبِ؟! الْمَذِيغُ يَعْتَذِرُ عَنْ قَطْعِ الْإِتِّصَالِ. يَظْهَرُ رَجُلٌ عَلَى الشَّاشَةِ وَهُوَ
يَقْضِمُ فِي وَجْهِ الْمَذِيغِ، فَتُظْلَمُ الشَّاشَةُ. يَشْعُرُ حَمْزَةً أَنَّهُ تَوَغَّلَ كَثِيرًا فِي
الْخِيَالِ، فَيَبْتَسِمُ وَيَهْشُ الْخِيَالَاتِ عَنْ وَجْهِهِ، فَلَا تَبْتَعُدُ. فِي لَحْظَةٍ نَظَرَ إِلَى أُمِّهِ،
وَقَالَ يَخِيفُهَا "يَا" فَقَالَتْ "يَامَا" ثُمَّ ضَحَكَتْ. قَامَتْ مِنْ أَمَامِهِ، وَدَخَلَتْ إِلَى الْمَطْبَخِ،
وَجَلَسَتْ تُعَدُّ لَهَا فَنْجَانًا مِنَ الْقَهْوَةِ وَهِيَ تَبْتَسِمُ. أَيْنَ ذَهَبَ ابْنُهَا بِعَقْلِهِ الْيَوْمَ؟
مَاذَا يَخْفِيهِ عَنْهُمْ؟ ثُمَّ قَالَتْ لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ شَيْئُونَ. وَقَفْتُ أَمَامَ الْقَهْوَةِ الَّتِي فِي
الْكَنْكَةِ حَتَّى لَا تَغُورَ فَوْقَ الْبُوتَاجَازِ. كَانَ هُوَ فِي الْخَارِجِ قَدْ صَارَ يَجْرِي عَلَى طَرِيقِ
صَحْرَاوِي، لَا يَدْرِي هَلْ هُوَ الْمُؤَدِّيُّ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ أَمْ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى فِي
الدَّلْتَا أَمْ فِي الْجَنُوبِ؟ تَوَقَّفَ وَسَطَ الطَّرِيقِ، وَكَانَتْ مُقْبِلَةً عَلَيْهِ سَيَّارَةٌ نَقْلٌ كَبِيرَةٌ،
بِمَقْطُورَةٍ، اسْتَطَاعَ سَائِقُهَا أَنْ يَتَفَادَاهُ. تَوَقَّفَ السَّائِقُ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَنَزَلَ
مِنْهَا مُسْرِعًا عَائِدًا نَاحِيَتِهِ، فِي نِيَّتِهِ أَنْ يَضْرِبَهُ، لَكِنَّهُ وَقَفَ مُتَجَمِّدًا أَمَامَهُ وَهُوَ يَرَى
لِسَانَهُ يَمْتَدُّ أَمَامَهُ أَسْوَدَ وَالدَّمُ يَهْطُلُ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ. فَرَّ السَّائِقُ عَائِدًا، وَوَقَفَ
هُوَ يَضْحَكُ وَكُلَّ السَّيَّارَاتِ تَمُرُّ عَلَيْهِ تَتَفَادَاهُ فِي دَهْشَةٍ، وَحَتَّى لَا تَصْطَدِمَ
السَّيَّارَاتُ بَعْضُهَا. عَادَ مِنْ بَعِيدٍ قَائِلًا "مَشْ لَازِمُ حَوَادِثَ، يَا حَمْزَةُ. بَلَاشَ وَإِلَّا
سَتَتَعَوَّدُ عَلَى الْخِيَالِ الْوَحْشِ، وَتَدْخُلُ عَلَى الْقَطَارَاتِ تَعْضُّ السَّائِقِينَ، فَتَصْطَدِمُ
بَعْضُهَا. حَوَادِثُ الْقَطَارَاتِ وَالْعَرَبِيَّاتِ مَشْ عَايِزَةٌ زِيَادَةً" ابْتَسَمَ وَمَشَى إِلَى
حَجَرَتِهِ، وَهُوَ يَرَى كُلَّ شَيْءٍ أَمَامَهُ فِي الْبَيْتِ لَا يَزَالُ كَمَا هُوَ. اكْتَشَفَ أَنَّهُ نَسِيَ
الْمُوبَايِلَ فِي الصَّالَةِ، فَعَادَ لِيَأْتِيَ بِهِ، لَكِنَّهُ جَلَسَ إِلَى السَّفَرَةِ الَّتِي صَارَتْ خَالِيَةً
بَعْدَ أَنْ حَمَلَتْ أُمُّهُ الْأَطْبَاقَ الَّتِي تَنَاوَلَ إِفْطَارَهُ مِنْهَا، وَجَلَسَتْ فِي الْمَطْبَخِ. فَتَحَ
الْمُوبَايِلَ، وَكَتَبَ عَلَى صَفْحَتِهِ فِي الْفَيْسْ بُوَكْ "أَحْسَنُ حَاجَةٍ فِي الْبَلَدِ دِي
الْوَااحِدُ يَبْقَى زَوْمَبِي. بَدَلًا مِنْ أَنْ يَخْرُجَ لِسَانُهُ لِلنَّاسِ يَأْكُلُهُمْ" وَتَنَالَتْ التَّعْلِيقَاتُ

[illegible]

- خلاص. فُقت وأُخذتُ بالك انتَ فين؟

ضحك وطلب منها أن تأتيَ له بكأس من الشاي. كانتُ تحملُ فنجان القهوة،

فخرجتُ معه إلى البلکونة، ووضعتُهُ على منضدة صغيرة مَنسِيَّة هناك دائماً،
وقالتُ له ستعود له بالشاي بسرعة، فهناك مياه ساخنة في "الكاتل". جلس
هو ينعم بشمس الربيع الذي سيبدأ في الشهر القادم، وتأتي به القاهرة مبكراً
قبل أن تأتي رياح الخماسين تُشوّهه. كم كان أبوه وأُمُّه يصحبانهما وهما طفلان
في الربيع إلى حدائق الأورمان. كم كان مبهِجاً مشهُدُ الزهور وباعةُ بذور الزهور
وعسل النحل وغيرها من منتجات الزراعة الطَّبِيعِيَّة! كيف يعود إلى هذا العالم؟!
وابتسم. فليبدأ أولاً بزيارة المركز الثقافي الذي رغم قربهِ من بيتهم لم يذهب
إليه إلَّا المَرَّة التي ذكرها. وضحك. من نَعَم الله أنه بعد أن صار حمزة لم يفقد
معرفته باللغة الإنجليزية، وكذلك الفرنسية! أجل. معرفة اللغات ليست للنساء
فقط، ولا تضيع بالعمليات الجراحية! عادتُ أُمُّه تحمل كأس الشاي، فقام
بسرعة، وأحضر مقعداً آخر لها، وجلسا أمام بعضهما، هي تشرب القهوة، وهو
يشرب الشاي. قالتُ:

- لا تشرد كثيراً كما فعلتَ منذُ قليل. لاحظُ أننا نطيعكَ أنا وبابا في كل شيء
حتَّى تمرّ فترة النقاهة بسلام. أرجوك، لا تشغل نفسك بأيّ مشاكل من أيّ
نوع.

- ربّنا يخليكم ليّ، يا ماما، يا قمر.

وسمع أصوات نباح كلاب، فنظر إلى الشارع، ليجد أكثر من كلب، يجرون خلف
بعضهم، وترتفع أصوات نباحهم عالية، وبينهم الأبيض والأسود والبنيّ والمتعدّد
الألوان والصغير والكبير والذكور والإناث، وحولهم عدد كبير من الجراء الصغيرة،
والنباح لا ينقطع، فقالتُ أُمُّه:

- يا لهوي! من أين أتت كل هذه الكلاب الآن؟!

- أكيد من سوق المنيرة. لا يوجد أكثر من القطط والكلاب هناك.

كانت النوافذ قد انفتحت في بيوتهم وفي البيوت المجاورة، وسألت جارة أمه:

- معقول كلاب بهذا العدد هنا؟! ماذا جرى للشارع؟!

لكن الكلاب اختفت ماعدا اثنيْن دخلا في بعضهما من الخلف. كلب وكلبة، وكل من نظر من النافذة صار يحملق ويبتسم، ولا يتكلم مع أحد في نافذة قريبة أو بعيدة. كان الناظرون كلهم نساء، وبدا الكلب قد انتهى من مهمته بسرعة، لكنه لا يستطيع أن يُخرج عضوه من الأنثى، وكلما ابتعد عنها، جذبها وراءه ملتصقة به وهو يدور، ثم راح ينبج، وظهرت البسمات على الوجوه، وبعض النساء يضحكن. رأت أمه المشهد، فقالت "كلاب أوسخ من الرجال ما تبصّش" اندهش جداً من التعبير. الكلب الذَّكَر مسكين، والأنثى هي التي "تقمط" على عضوه، وهو ينبج يائساً. ربّما كان نباحه حقّاً استغاثة. قامت أمه، ودخلت بينما وقف هو يتأمل المشهد مبتسماً. يسمع ضحكات النساء من الشرفات، ويخجل أن ينظر لهنّ. فجأة فكّت الأنثى قيد الكلب الذكر، فانطلق يجري بسرعة كبيرة، ويختفي ناحية شارع المبتديان بينما مشت الأنثى على مهل. ارتفعت الضحكات، وسمع صوت النوافذ تُغلق.

لم يشأ أن يكون مع زملاء الكُليَّة دون إحسان. أخبره أنه سيذهب مع أصحابه ليروا أوَّل فيلم في أسبوع الفيلم الفرنسي، فهل يمكن أن يأتي معه؟ قال إحسان إنه كان سيَتَّصل به يُخبره أنه سيذهب كل يوم لمشاهدة الأفلام الفرنسية. إحسان يتردَّد كثيراً على المركز الفرنسي خاصَّة حين تُقام به عروض تشكيلية لبعض الفنَّانين. هو يعرف ذلك عنه، رغم أنه لم يشاركه في ذلك. هل أمُّه هي التي أغلقت عليه السُّبل حين كان “لمياء”؟ وهل كان من الصعب أن يُقنعها بعكس ما تريد منه أو منها، أم أنه هو الذي كان متوقعاً انطوائياً من فرط ما يعانيه من ارتباك في ماهيته؟ أغلب الظنِّ أنه هو. لقد تركته دائماً يقابل إحسان بالمقاهي، فكيف كانت ستعترض على الذهاب إلى مكان ثقافي؟ على أيِّ حال، الآن صار حمزة، ويستطيع أن يعوِّض كل ما فاتته. إنه يمشي في التاسعة عشر من العمر، وهذا ليس بالكثير. ما أكثر المحرومين من متع الدنيا في الثلاثين والأربعين! قرأ يوماً بعض بوستات لكاتب يقولون عنه تنويري، أنه في أوروبا بمجرد سنِّ البلوغ يعيش الناس حياة بلا قيود. يمارسون الجنس، ولا تضع الفتاة عمرها في الحفاظ على غشاء البكارة، ولا الشاب عمره في العمل والإدِّخار من أجل شراء شقَّة أربع غرف. هناك يمارسون الجنس في بيوت أهلهم، وحين يتزوَّجون، لا تزيد الشقَّة عن غرفة، وحمَّام ومطبخ صغيرين جدًّا. الجنس ليس مشكلة لديهم، لذلك يتفرَّغون للعلوم والآداب، ويتفوّقون على الشرق الأوسط التعيس بالأفكار السِّلَفيَّة والوهَّابيَّة التي لا ترى فائدة للعالم، لأن الحياة الحقيقية هي في الآخرة، ومن ثمَّ حين يصل الشابُّ إلى القدرة على إنجاز الزواج هنا يكون متوسِّط السِّنِّ الخامسة والثلاثين أو الأربعين. هل بعد ذلك سيفكِّر أحد في العلوم أو الآداب؟ ستبدأ فترة الراحة والتَّرهُّل وتربية

الأولاد، ليعيدوا الدورة نفسها. فضلاً عن أن ذلك وراء نسبة العنوسة العالية للبنات في مصر. يومها انهالت الشتائم على الكاتب الذي يقولون إنه تنويري، واعتبروه كافراً في كثير من التعليقات، لكن الكاتب التَّنويريَّ كتب تعليقاً لا ينساه، وهو أن الحور العين متوقِّرة في الجنَّة لمنْ يقوم فقط بتفجير نفسه. كانت الأغلبية ضدَّ ما كتبه هذا الكاتب ممَّا أدهشه جدًّا أو أدهشها! لم يتوقَّف الكاتب، وكتب أنه كان مرَّة في إحدى المُدُن الفرنسية، ودُعي لإقامة ندوة في مدرسة من مدارس الليسيه. طبعاً هناك لا تفرقة بين البنات والبنين. كتب الكاتب بالضبط “لن أُحدِّثكم كيف رأيتهم على السلالم في المدرسة بعضهم يقبِّل بعضاً أو على المقاعد في الفناء الواسع بين الأشجار. هذا لن تُصدِّقوه، فهل يمكن أن تصدِّقوا أنني وأنا جالس مع ناظرالمدرسة دخل عليه تلميذ، حدَّته طبعاً بالفرنسية في خجل طالباً منه “واقى ذكري” فأخرج الناظر من أحد الأدراج الواقى الذكري قدَّمه للولد الذي انصرف، ولمَّا نظرتُ إلى الناظر مندهشاً قال لي إنه وزَّع حتَّى الآن عشرة آلاف واقى ذكري، ولم ينتهِ العام الدِّراسيُّ بعد، ولم أُعلِّق. فقط ابتسمتُ”.. انهالتُ عليه الشتائم من جديد - دائماً يشتمونه - فقال قد تسافرون يوماً وترون في شوارع أوروبا آلات لصرف الواقى الذكري مجاناً. هو الآن، ومنذ كانتُ هي، لا يعرف بالضبط ماذا حدث في مصر. لكنه، بعد متابعة كثيرة لما يُكتب على المواقع وصفحات الإنترنت عن ثورة 1919، عرف أزمة البلاد. لقد بدأتُ مصر، مع محمَّد علي، النهضة، وبدأ في إرسال البعثات إلى أوروبا وفرنسا خاصَّة، وعاد منها مَنْ ذهب بأفكار معاصرة عن تعليم البنات والبنين، وعن العمارة والشوارع والحدائق. زاد الأمر في عصر إسماعيل الذي معه تأسَّس أوَّل مجلس نواب، وبدأت الصحف، وبُنيت الأوبرا التي احترقت في عصر السادات، وظهرت المجلَّات، وأتى إلى مصر مهاجرون من كل الدنيا، يساهمون في نهضتها. مهاجرون يهود هاربون من مذابح أوروبا، ومهاجرون عرب مسلمون ومسيحيون وبهائيون من الشام، وأكراد وأرمن هاربون من مذابح

الخلافة العثمانية، أسَّسوا صحفًا ومجلَّات، وساهموا في ازدهار المسرح، وظهرت المجلَّات السينمائيَّة، ونشط المجتمع المَدَنِي إلى حَدِّ رهيب بعد ثورة 1919، فُبْنِيت الاستوديوهات، وبدأ إنتاج الأفلام، واستمرَّت مصر في طريق اللِّبرال التي جعلتُ يوماً رئيس مجلس الشورى يهودياً مصرياً، وعاش الجميع معاً، وصارتُ مصرُ أمَّ الدنيا حقيقةً، لانتساعها لكل الأجناس والمِلل، فلا فرق في الدِّين أو الجنس، وكما تُبْنَى الجوامع تُبْنَى الكنائس ومعابد اليهود وحتَّى معابد البهائيَّين في الوقت الذي لم يتخلَّ فيه المصريون عن نضالهم ضدَّ الاستعمار البريطاني للتَّحرُّر منه، وتقريب المسافات بين الأغنياء والفقراء، والتَّخلُّص من آثار الإقطاع في الريف. رأى أمامه في المقالات التي قرأها على الإنترنت مئات من أصحاب الأسماء العظيمة في الثقافة والعلوم والاقتصاد والعمل السِّياسيِّ تحتاج يوماً كاملاً، لِيُعِيدَ أسماءها أمامه، ومن الرجال والنساء. حقّاً لم تكن اللِّبراليَّة قد وصلتُ إلى غايتها، لكنْ، كانتُ في طريقها، حتَّى قامت ثورة يوليو 1952 التي قال عنها الشَّابُّ في مقهى الفيشاوي انقلاباً، ويقول الكثيرون عنها ذلك، والتي كانتُ شعاراتها القضاء على الإقطاع والرَّأسماليَّة، وبناء حياة ديموقراطية سليمة، لكنَّ عبد الناصر، وهو يفعل ذلك، أغلق طريق الدِّيمقراطيَّة، وألغى الأحزاب، ومن يومها لم نعرفها. حين أعادها السادات جعلوها صورية. باختصار وكما علَّق أحدهم ضاحكاً، صار الأمر كما قالتُ تحية كاريوكا "تخلَّصنا من الملك ليحلَّ محله 13 ملك" وتعني عدد أعضاء مجلس قيادة الثورة. الآن زاد الملوك، وأصبحتُ هناك وزارات كاملة، يسمُّونها سيادية.

كان يقرأ ذلك ويندهش، لكنه أحسَّ حقّاً بالخوف. هذه السياسة مقرفة، والأفضل أن ينغمس بقية هذا العام الدِّراسيِّ في الفنون والآداب. المركز الفرنسي هنا وقريب، وليس بعيداً كالأوبرا. هكذا تكون الحياة أسهل. ومعها إحسان سيُشجَّعها ومعها زملاؤها في الكُلِّيَّة أيضاً. هزَّ رأسه، لأنه قال "معها"

واستطرد "معي أصحابي ومعني إحسان" وابتسم. سيبدأ اليوم بفيلم قديم هو
"صانعة الدانتيل"

La Dentellière"

تمثيل إيزابيل أوبير، وغداً فيلم "رجل وامرأة" لأنوك إيمييه، وبعد غد فيلم
"بورساليينو" لآلان ديلون وجان بول بلموندو، وبعده فيلم "البؤساء" القديم جداً
لجان جابان، ثمّ فيلم "امتلاك" لإيزابيل أدجاني، ثمّ فيلم "الحب مهنتي"
لبريجيت باردو، ثمّ "حبّة اليوسفي" لآني جيراردو. يمكنه أن يذهب فيما بعد إلى
المركز الإيطالي الذي يعرف أنه في الزمالك، كذلك المركز البريطاني في
العجوزة، وغيرهما من المراكز الأجنبية. سيتوزّع عليها، ويشاهد السينما
العظيمة لهذه البلاد. وإذا كانت كل هذه الأفلام التي سيعرضها المركز الثقافي
الفرنسي قديمة، فلا بدّ سيُخصّص فيما بعد أسابيع للسينما المعاصرة. لم تعد
أمّه تستطيع أن تقف أمامه، وبالطبع أبوه ليس في حاجة لأن يشتري دماغه
منها، ويوافق على ما يقيد من حركته، فلقد صار "حمزة". أحسّ أن الدنيا تتسع
بالبهجة بعيداً عن التاريخ والسياسة.

كم كانت المتعة في الفرجة على الفيلم الناطق بالفرنسية والمترجم إلى
الإنجليزية! كان يلاحق النطق الفرنسي السريع، وحين كان يسبقه أو يدمغ
المتحدّث الكلام بشكل يجعله لا يلحق به، يقرأ الترجمة الإنجليزية. كان يترجمها
إلى العربية لمُريد الذي يجلس في ناحية منه وعابدين الذي يجلس في ناحية
أخرى، ويعرف أن إحسان يجيد الإنجليزية، ويعرف كثيراً من الفرنسية. بينما لم
يسمع لسونيا ولا لمحسنة صوتاً، وهذا يعني أنهما تفهمان أو - وابتسم -
استسلمتا واكتفتا بالمشاهدة.

قصة حبٍ انتهت ببقاء الحبيبة صانعة الدانتيللا في مستشفى الأمراض العقلية التي رأتها أفضل من الحياة في الخارج. عرف أنها، في الأصل، رواية لباسكال لينيه، فازت بجائزة جونكور عام 1974، واندesh من نفسه أنه لم يعرف هذا الكاتب من قبل. ينقصه الكثير ليقرأه في الأدب العالمي حقاً.

لم يشاهد لإيزابيل أوبر أفلاماً من قبل، وحين دخل على الويكيبيديا وهو يجلس فيما بعد مع أصدقائه في المقهى، عرف أنه قد فاته الكثير جداً. هو هنا في أول حياته تقريباً، واختار فيلماً لا يُنسى.

كان الحديث بينهم عند خروجهم من المركز الثقافي أن هذا الفيلم لم يُعرض في مصر. لا يذكر واحد منهم أنه قرأ عن عرضه في مصر، ولا شاهده في القنوات التليفزيونية المصرية أو العربية. قال إحسان:

- عادةً السينما في مصر تهتمُّ بالأفلام الأمريكية.

قال عابدين:

- منذُ عدّة أشهر، كان هناك أسبوع للسينما الإيطالية في سينما زاوية. نحنُ فقط لا نتابع السينما جيّداً.

قال إحسان:

- السينما الأسبانية أيضاً رائعة. لدينا في مركز الإبداع بمنطقة الأوبرا أحياناً يقيمون أسبوعاً لأفلام أوروبية. العام الماضي كان هناك أسبوع رائع للأفلام الإسبانية. شاهدتُ اثنتين منها، هما "سِخْر البورجوازية الخفي" للمخرج لويس بانويل، والثاني "كارمن" للمخرج فينسنتي أراندا. نسيْتُ للأسف أسماء الممثلين، لكن، كانوا روعة.

قال عابدين:

- مهرجان القاهرة السينمائيّ أيضاً يعرض أفلاماً مهمّة. لا بدّ أن نحرص عليه.

قالت سونيا:

- ماذا جرى، يا شباب؟ خلاص ستتحوّلون إلى فنّانين؟

قال مُريد:

- والله أفضل من متابعة أحوال البلد دي على الفيس بوك، فنكون ماركسيّين أو نشتري دماغنا، فنكون مع زينون!

ضحكوا وقالتُ محسنة:

- طيّب. يبدو أنكم ستسهرّون في مقهى. أنا لن أستطيع أن أتأخّر أكثر من ذلك. الساعة تدخل في العاشرة. حتّى المركز الثّقافيّ أغلق أبوابه.

وقالتُ سونيا:

- وأنا أيضاً.

صافحتا الجميع، وابتعدتا عنهم مسرعتين، ووقفوا هم في شارع المبتديان، فقال إحسان:

- ما رأيكم أن نُكمل السهرة في النادي اليونانيّ؟

قال عابدين:

- النادي اليوناني والجريون وستوريل كلها أماكن يرتادها الكتّاب والفنّانون. نحن -
وضحك - لا كتّاب ولا فنّانين! سنكون غرباء فيها.

قال مُريد:

- آه والنبى، نريد مقهى، لا يزيد فيها سعر الشاي عن خمسة جنيهاً.

قال حمزة:

- إذن، إلى مقهى الحرّية. فيها كتّاب وفنّانون وناس عاديون، وواسعة، ونقدر
نلعب طاولة براحتنا.

عاد حمزة في سعادة غير عادية بعد السهرة مع أصدقائه. لقد صاروا أصدقاء
حميمين الآن، وانضمّوا إلى إحسان. مُريد وعابدين كنز جميل، وسونيا ومحسنة
أيضاً رغم أنهما انصرفتا بعد مشاهدة الفيلم. سيتخرّجون جميعاً في نهاية العام
الدّراسيّ، وستبقى سونيا، لكنه لن يقطع علاقته بهم.

لم يكن جائعاً، إذ تناولوا ساندوتشات طعمية اسكندراني محشية من عند جاد
المجاور للمقهى. بدأ وهو ممّد على السرير يتصفّح الفيسبوك. كان يعرف أنه
سيجد تعليقات من سونيا ومحسنة وبقية الزملاء على الفيلم. كان يرغب أن
يشاركهم في الحديث عن السهرة كلها. لكنه وجد شخصاً قد كتب بوستا، لم
يتوقّعه:

“كان نفسي أحبّ البلد دي والله”.

لعن السياسة التي تطارده حتّى بعد ليلة جميلة. أدهشه الكمّ الرهيب من

التعليقات. ابتسم وجرب أن يدخل في السياسة لحظة، ولو من باب الهزار،
فكتب:

“أنا كتبت أهزّر قبل كذا أن البلد دي ترانسجيندر مش عارفة تبقى راجل ولا
ستّ، ومش عايز أقول لكم جرى لي إيه”.

على الفور، وجد رسالة في الإن بوكس من إحسان، يقول فيها “يا لميا، أرجوك،
احذفي الكلام دا. اللي كتب البوست دا لجنة”.

وجد نفسه لا يفهم معنى اللجنة، فردّ على إحسان:

“ماذا تقصد بلجنة؟”

فجاءه الردّ:

“يا لمياء، اللجان نوعان في مصر. لجان تبع النظام، فيها ناس مسموح لها تشتم
حتّى الرئيس، فيعلّق الآخرون عليهم، ويعرف البوليس مَنْ هم ضدّ الرئيس،
ولجان تابعة للإخوان المسلمين، ومهمّتها ترويح الشائعات”.

فكتب يسأله:

“طيّب، وأنا كيف أعرف؟”

ردّ عليه:

“سهلة، يا لمياء. حين تقرئين بوستا فيه تطرّف في شتيمة النظام أو ما يمكن
أن تعتبره شجاعة، اعرفي أنه فخّ، لأن الإنترنت مراقب، وهذه طريقة كما قلتُ
للقبض على المعارضين. أمّا بوستات الإخوان، فواضحة، لا بدّ يكون فيها ذكرُ

لمحمد مرسى. أرجوكي، احذفي التعليق".

انتبه، وكتب له:

"لماذا تقول لي لمياء؟ إنت محسّسني أن البلد فعلاً ترانسجيندر. أ لن تنتهي من هذا الخطأ؟ أم لأن اسمك إحسان يمشي رجل وست؟ يا عم، بطل لمياء، الله يخليك".

ردّ إحسان:

"أنا آسف. أنا غلطان. المهمّ امسح التعليق، يا حمزة. هي فعلاً بلد ترانسجيندر، لكن، في الإنبوكس، وليس على العام، إلى أن يعافى ربّنا".

توقّف قليلاً، ثمّ كتب له:

"حمزة سينام. مش لازم حتّى الهزار. تصبّحي على خير، يا ستّ إحسان. ههههههههه".

ما هذا الصباح؟ لقد استيقظ في حوالي الساعة العاشرة صباحاً في روحه طعم ليلة الأمس الجميل. وجد أمّه جالسة في الصالة حزينة، تتابع التلفزيون أمامها، وتبدو ذاهلة عنه.

- صباح الخير، يا ماما.

نظرتُ إليه، وقالتُ وهي تهزُّ كَفَّيْهَا:

- مصيبة سودا.

- خيراً.

- قطار في محطة رمسيس دخل المحطة مسرعاً، فاصطدم بالصّدادات، واشتعل. ربّنا يستر على الناس.

وقف مذهولاً يقول لنفسه "أمس قضيتُ ليلة جميلة. أصبح أجد حادثة قطار!"
وقالتُ أمّه:

- اجلس أنتَ، وأنا سأحضر إليك الإفطار.

جلس، فرأى المذيع أمامه على الشاشة المصرية يقول "حتّى الآن لم نعرف نتائج الحادث، وسنوافيكم بالتفاصيل" ثمّ تحوّلت الشاشة إلى إعلانات. فتح الموبايل على الفيس بوك كعادته، فسيعرف كل شيء. فيديو انفجار رهيب وحريق يتفرّق بسرعة على الناس، فلم يعد يراهم. ما هذا؟ ما هذا؟ هذا ليس

اصطداماً بسيطاً. وفيديو آخر بشخص مشتعل يجري ناحية مَخْرَج له سلالم إلى أسفل، ينزلها مشتعلًا، ويعود لأن باب المَخْرَج أسفل السلالم مُغلق، ومعه يجري آخرون. جثث متفجّمة وأصوات صريخ رهيبة. ما هذا؟ ما هذا؟ وحوّل التلفزيون على محطة الجزيرة، فرأى المذيع يتحدّث عن القطار الذي دخل المحطة بسرعة تفوق السّيّتين كيلو متراً، وكان قادماً من مخزن القطارات، وكيف تركه السائق، فاصطدم بالصّدّادات في آخر القضبان، وانفجر فيه خزّان الوقود والضحايا حتّى الآن يزيدون عن الخمسين بين ميت ومصاب.

وضعت أمّه الطعامَ أمامه، ونظرتُ إلى التلفزيون، فقالتُ له:

- هذه القناة كذّابة.

قال لها:

- يا ماما، ستجدين كل محطات التلفزيون المصري "من بنها"! أنتِ خُرّة. أنا قدّامي في الفيسبوك كلام وفيدوهات مرعبة.

- ماذا تعني؟

- ادخلي على الفيسبوك، واعرفي. أكثر من عشرين قتيل، والجرحى ما تعدّيش!

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله. الناس غلابة، وذاهبة إلى شغلها أو راجعة بيوتها. هذا الإهمال في السيّكة الحديد متى ينتهي؟

- الناس على رأي المثل صاروا العدد في الليمون، يا ماما.

وظلّ يأكل غير منتبه لما يضعه في فمه، ويتابع الفيس بوك. أحاديث لا يتخيّلها.

"في صباح هذا اليوم السابع والعشرين من فبراير، اصطدم جرار القطار رَقْم (2302) بالحاجز الخرساني لنهاية رصيف رَقْم 6، بمحطة رمسيس بالقاهرة متسبباً في حدوث انفجار وحريق كبير أودى بحياة 21 شخصاً، وإصابة 52 آخرين حتّى الآن، وأظهرت تسجيلات المراقبة دخول جرار القطار بسرعة هائلة في النهاية الخرسانية للمحطة متسبباً في انفجار خزّان الوقود، وكان سائق القطار قد تركه للمشاجرة مع سائق قطار آخر، احتكّ به، فتحرّك القطار بسرعة نحو المحطة، ولم يلحق به. السائق أخطر عامل الإشارات، ليقوم بتحويل القطار بعيداً عن المحطة، لكنه لم يستجب. السائق أبلغ المحطة أن هناك كارثة وقطاراً مسرعاً في الطريق، فلم يُنذروا الواقفين." شهادات ممّن نجوا من الحادث كلها قاتلة للروح.

"رجل وزوجته محروقان طلبا منّي وأنا أحاول مساعدتهما البحث عن ابنهما وبنتهما الصغيرين. تركتهما وبحثتُ، فوجدتُ الطفلين محترقَيْن حتّى الموت. عدتُ إليهما، وأخبرتهما أنهما بسلام، ومشيتُ أبكي".

"طفلة تبحث عن جدّتها وهي محترقة، وتعرف بموتها، فتموت".

"بين الموتى سيّدتان من الإسكندرية من نادي الروتاري كانتا في أسوان في رحلة للخير، وعائدَتَيْن مع زملائهما بعد تدشين مستشفى خيري هناك، هما "وسام حنفي" و"نادية صبور" وفي طريق عودتهما، احترقتا في القاهرة بينما أصيبت صديقتهما "هند محارم" أيضاً التي كانت معهما في الرحلة بحروق كبيرة. كان الوفد مكوّناً من ستّة أفراد، ثلاثة منهم كانوا بعيدين عن موقع الحادث، فكتبت لهم النجاة".

"حين اصطدم القطار بالصّدّادات الخرسانية كانت سيّدة تمرُّ من على نفس

الرصيف، فأصابته شظايا مع النيران، وماتت".

"مسعف اسمه "خالد عبد المنعم" من هيئة الإسعاف احترق أيضاً، ومات".

"شابّ في الثلاثين تقريباً، يعمل سائق إسعاف في رمسيس احترق، وحالته خطيرة".

كانت الصور هي أكثر ما يُفزع، فهذه أوّل مرّة يرى بشراً يحترقون. حتّى في الأفلام لم يرَ هذه البشاعة، ولا حتّى في أفلام الحروب. في الأفلام من يُصاب فَمِنْ عدوّه، وليس من أخطاء وطنه ومسؤولي راحته. لصغر سنّه، ولأنّه لم يقرأ إلّا عن حوادث قليلة للقطارات اندفع يقرأ ما يُنشر عن تاريخ حوادث القطارات في مصر.

"في ديسمبر عام 1993 مات اثنا عشر، وأُصيب ستون في تصادم قطارين على بُعد تسعين كيلو متراً شمال القاهرة. في عام 1995 قُتل خمسة وسبعون راكباً، وأُصيب المئات في تصادم قطار بمؤخّرة قطار آخر، وأكّدت التحقيقات وقتها أن المسؤولية تقع على سائق القطار الذي قام بتجاوز السرعة المسموح بها رغم وجود ضباب كثيف ممّا لم يمكنه من اتّخاذ الإجراءات اللازمة في الوقت المناسب. في فبراير عام 1997 في محافظة أسوان أدّى خلل بشريّ وخلل في الإشارات إلى وقوع تصادم بين قطارين شمال المدينة ممّا أدّى إلى وقوع 11 قتيلاً على الأقلّ، والعديد من الإصابات".

كل هذا قبل أن أوّلّد. كان الله في عون ماما وبابا، واستمرّ يقرأ:

"في أكتوبر عام 1998 بالقرب من الإسكندرية، خرج قطار عن طريقه، وانحرف نحو أحد الأسواق المزدحمة بالبائعين المتجولين، ممّا أدّى إلى مقتل 50

شخصاً، وإصابة أكثر من 80 شخصاً".

يا إلهي! قطارات بتمشي في الأسواق في مصر!

"كانتُ حادثة فبراير عام 2002 هي الأسوأ من نوعها في تاريخ السكك الحديدية المصرية في قرية العياط بالصعيد بعد أن تابع القطار سيره لمسافة 9 كيلومترات والنيران مشتعلة فيه. كان القطار ورَقْمه 832 متوجِّهاً إلى أسوان من القاهرة، وفي الساعة الثانية صباح يوم عشرين فبراير، وعقب مغادرته مدينة العياط، اندلعت النيران في العربة الأخيرة، ومنها امتدَّت لباقي العربات التي كانتُ مكدَّسة بالمسافرين لقضاء عيد الأضحى في بلادهم بالصعيد، ممَّا جعل الكثيرين يقفزون إلى ترعة الإبراهيمية أو إلى الأرض، ويموتون غرقاً أو حرقاً أو على الطُّرُقَات. اختلف المحلِّلون في عدد الضحايا، ولم يصدر بيان رسمي بعددهم بالضبط، وهذا ما أثار الشكوك في الحصيلة النِّهائيَّة في عدد الضحايا من الراكبين التي قيل إنها وصلتُ إلى الألف ضحية".

ليتوقَّف الآن. يكفي هذا الغمُّ. لكنه لم يتوقَّف.

"في أكتوبر عام 2009 تصادم قطاران في منطقة العياط على طريق القاهرة - أسيوط وأدَّى الحادث إلى مقتل 30 شخصاً، وإصابة آخرين، لقد تعطلَّ القطار الأوَّل، وجاء الثاني ليصطدم به من الخلف، وهو متوقَّف ممَّا أدَّى لانقلاب أربع عربات من القطار الأوَّل".

كان يقفز ويتجاوز قراءة بعض الحوادث غير مُصدِّق.

"في نوفمبر عام 2012 عند مزلقان قرية المندرة التابعة لمركز منفلوط بمحافظة أسيوط اصطدم قطار بحافلة مدرسية. راح ضحيته نحو 50 تلميذاً إضافة إلى

سائق الحافلة ومُدْرِسة كانتُ برفقة التلاميذ".

"في يناير عام 2013 تصادم قطار مع قطار يحمل مجندين، فمات سبعة عشر مجنّداً، وجُرح أكثر من عشرة".

"في أغسطس عام 2017 يصطدم قطار بمؤخّرة آخر بالقرب من محطة خورشيد قرب الإسكندرية، فيموت

لم يُكْمِل. كل هذه الحوادث وغيرها كثير شغلته طوال اليوم الذي قضاه ما بين غرفته وبين الصالة مع أمّه وبين الفرجة على المحطّات التّلفزيونيّة الخارجية رغم رفض أمّه لها. كان لا يُصدّق، ولم يكن على دراية بكل الحوادث، وكان قد نسي ما عرفه منها. وتوالّت أمامه التعليقات:

"بس اوعوا تنسوا كمان حادث عبّارة السلام التي غرقتُ في البحر الأحمر أيّام مبارك عام 2006 وهي عائدة من السّعوديّة، وراح فيها أكثر من ألف شخص، وصاحبها عايش في أوروبا زيّ الفلّ والناس أكلها السمك".

"ما دام فكّرْتني بعبارة السلام، لا تنسي العبارة سالم إكسبريس التي غرقتُ عام 1991، وراح فيها أكثر من خمسمائة".

"السائق بيقول إن القطار عمره خمسة وتلاتين سنة. طيّب، دا ينفع؟"

"طبعاً، حيطلع السائق حشّاش، ويمكن ضارب ستروكس، وكل حاجة زيّ الفلّ".

وبين الأسى والحزن وجد تعليقات خفيفة الدم:

“من أربع سنين تقريباً طلع قطار من مخازن القطارات بمنطقة القباري في اسكندرية من غير سائق، وفضِّلُ ماشي لحدّ مزلقان النزهة ضرب عربية ملّاكي كسرّها ووقف القطار الطيّب. يعني مش أوّل مرّة قطار بدون سائق، بس في اسكندرية كان ابن ناس!”

“أنا لاحظت أن فيه حوادث كثير جدّاً عند قرية العيّاط في الصعيد. القرية دي معمول لها عمل. لكنّ، برضه لازم يغيّروا اسمها. اسمها شؤم. عارفين طبعاّ يعني إيه عيّاط. واحد مالوش شغلة غير العيّاط.”

كانتْ هذه المعلومات وأكثر منها على صفحة في الويكيبيديا، وكان الغيظ قد تمكّن منه، فقام بعمل “كوبي” و”بيست لمعظم ما قرأه” على صفحته في الفيس بوك، ووجد نفسه يكتب تحتها:

“اقرؤوا هذه الحوادث، لتعرفوا أن هذه البلد يحكمها جهاز تنظيم الأسرة، وبدلاً من أن يمدّ الناس بوسائل منع الحمل، يقتلهم بالحوادث والسلام.”

ترك الموبايل، وجلس في شرفة البلكونة، لينعمَ بشمس النهار. تذكّر الكلاب، وتمنّى لو تظهر ويحدث ما حدث من قبل، ويخرج من هذا “المود” الصعب، لكن الذي ظهر كان كلباً واحداً، راح يمشي بطول الشارع، ويعود، وبدا كأنه يبحث عن أنثى واعدته هنا. ضحك من أفكاره، وقال لعلّ الله يفتح عليه بقطط. هو لا يعرف حقّاً كيف تمارس القطط الجنس. لا بدّ أنها تقفز على بعضها، ولا تفعل ما يفعله الكلاب. تذكّر اسم الشارع الممسوح عند نهايته، وقال أ لم يحن الوقت ليكتبه شخص آخر؟! واندesh من نفسه ما الذي ينقله من مصيبة القطار إلى التفكير في الجنس فجأة هكذا؟! لا بدّ أن الروح تبحث لها عن ملاذ آمن.

أحسّ أن الوقت سيطول به دون استكمال دراسته هذا العام. من أين له القدرة

على البقاء في البيت كل يوم كل هذا الوقت، وهو الرجل وليس المرأة التي تستطيع أن تقنع نفسها بذلك، كما اقتنعت أمه خريجة قسم اللغة الإنجليزية من الجامعة؟! في الكلية بعيداً عن التعليم سيجد مَنْ يمضي معه النهار. ليس أمامه حقاً إلا أماكن الثقافة والفن حتى يأتي العام الدراسي الجديد، وتبدأ الحياة الحقيقية. لكنه أحسّ بالاختناق، فقرّر الخروج من البيت. الساعة الآن الثالثة عصراً، ولقد انتهى الحادث، ونُقل المصابون إلى المستشفيات، وزار رئيس الوزراء المكان، وأقيل وزير النقل، وتقرّر صرف تعويضات للضحايا، ولا يجب أن يجعله الفراغ يتابع أحداث البلاد. دخل حجرته يرتدي ملابس الخروج، وابتسمت أمه وهي تراه خارجاً من غرفته قائلة:

- هذا أفضل، لكن، ليتك لا تدخل على الفيسبوك وأنت على القهوة حتى تنسى هذه المصيبة. أنا صليت ودعيت للذين ماتوا وللمصابين، وارتحت قليلاً.

سألها:

- أ لم تعد رانيا؟

أجابت:

- عادت وتعدّت ودخلت غرفتها، نامت وأنت لا تشعر.

ترك المنزل، وأخذ طريقه إلى مقهى البستان بعد أن اتّصل بإحسان، وعرف أنه موجود هناك.

أسرع في السير، ولم يكن يدري أن أباه قد عاد إلى البيت، وحين سأله أمه ما الذي جاء بك مبكراً هكذا، قال:

- قليل من الشباب تظاهروا في ميدان عبد المنعم رياض، وأكد البوليس حيقِّل وسط البلد، قلت أقِفِّل المحل، وأرَوِّح والعمَّال كمان ترَوِّح بدري.

أُسْقِطَ في يد أمِّه، فقالت:

- يا نهار أسود! حمزة نزل راح القهوة.

صرخ فيها قائلاً:

- لماذا تركتيه؟ لماذا لم تُخبريني؟

وراح يطلب حمزة من الموبايل، لكن حمزة الذي كان يسمع رنين الموبايل في جيب السويتير كان يتوقَّع أنها أمُّه، ولم يكن يريد أن يجيبَ على أحد. كان في الحقيقة يعرف من الفيس بوك أن هناك مظاهرة يدعو إليها بعض الشباب منذُ الصباح، وكان لا يُصدِّق أنها يمكن أن تحدث، وإذا حدثت ستكون وهو جالس في المقهى، ومن ثمَّ لا خطر عليه.

على غير ما يتوقَّع، كانت في المقهى أعداد كبيرة من الشباب والبنات اليوم، أكثرهم في الممرِّ الذي بين المقهى وشارع طلعت حرب. كالعادة وقف إحسان ليراه من بعيد، فتَهَلَّل وجهه. تصافحا، وقال إحسان:

- ما رأيك نلعب طاولة؟

- بسرعة هكذا!

ونظر إحسان ناحية الرصيف المجاور للمقهى، وقال:

- تعالَ بسرعة، ترابيزة خلتْ جوار الأدباء والفنّانين. تعالَ نقعد قريباً منهم، ونسمعهم بدلاً من أن نتكلّم.

قال ذلك وهو يضحك، وأسرع إلى الترابيزة قبل أن يجلس حولها أحد. جلس ناحية الحائط، وأشار لحمزة أن يجلس أمامه، ونادى "طاولة، يا بمبة".

واحد من الأدباء والفنّانين الذين جلسوا حول منضدَتَيْن، بعضهم يلعب، وبعضهم يتابع اللعب، سأل إحسان:

- كيف حالك، يا فنّان؟

- تمام. الحمد لله.

- هل هناك أخبار عن لوحة محمود سعيد التي سُرقت؟

- لا طبعاً. كالعادة لن تظهر.

- يمكن أن تظهر طبعاً، لكن، ستكون المقلدة. العصابات جبّارة.

- ربّنا كريم.

قال ذلك وبمبة يضع الطاولة بينه وبين حمزة، وبينما يرضُ إحسان القواشيط، أخرج حمزة الهاتف من جيبه، ونظر فيه، فرأى مَنْ كلّمه هو أبوه، وليست أمّه. ارتبك. لو كان أبوه يريد أن يعود ولم يعد، فيمكن أن يأتي إليه. الأفضل أن يُكلّمه. طلب أباه، وقال:

- آسف، يا بابا، لم أسمع الموبايل.

استمع لأبيه لحظات، ثم قال:

- أعرف. لا تقلق، يا بابا، المقهى مليء بالشباب، وأنا هنا مع إحسان، نلعب طاولة ... يا بابا حاضر. يقولون إن المظاهرة كانت عشرة أو خمسة عشر، وانصرفوا. لا تقلق، والله ... أنا لست أبله حتى أقرب من هذه الأشياء. خذ حضرتك، إحسان معك، كلمه.

وقدّم الهاتف لإحسان الذي فتح عينيه في دهشة، فقال له حمزة:

- يريد أن يطمئن علينا.

تكلّم إحسان:

- آلو، يا عمّو. كيف حال حضرتك؟ لا. لا تقلق. لا يوجد مظاهرات هنا. كما قال لك حمزة لا تخش شيئاً. لن تتأخّر. ساعة على الأكثر، وسنترك المقهى. المظاهرة كانت صغيرة، وانتهت من ساعتين. لو كان البوليس يريد أن يفعل شيئاً كان أغلق المقاهي. حضرتك عارف. والله ساعة بالكثير، وسنغادر المقهى. حولنا ناس مهمّة جدّاً. كُتّاب وفنّانين كبار. لا تخف. شكراً. إلى اللقاء.

ابتسم واحد من الكُتّاب، وقال وهو يضحك:

- هيّ الدولة دي بتعرف كبار ولا صغيرين!

ضحك بعض الجالسين، وابتسما هما، وبدءا لعب الطاولة. سأل حمزة إحسان بصوت خافت:

- هل رأيت المظاهرة؟

- طبعاً. وكنت فيها. أخذت لي شمروخين من ولد، فرقعتهما، ومشيت.

وضحك.

سمعا فنّاناً يقول من المنضدة الأخرى:

- هذه بداية، يا شباب. ستكبر.

فردّ عليه آخر:

- عليّ النعمة، الشعب المصري مرتاح كدا. يا رجل إن ما بين ثورة 1919 وثورة يناير 2011 أكثر من تسعين سنة. يا ترى مين يعيش؟!

واقترب عارف كبير الجرسونات ضاحكاً:

- خَلُّوا بلکم هنا كاميرات. نحنُ واضعينها لأجل الجرائم، لكنّ، لو البوليس طلبها نحنُ غير مسؤولين.

قال الشاعر الضاحك دائماً وهو يُلقي بالزهرَيْن في الطاولة.

- المهمّ أنها تُصوّر فقط، ولا تُسجّل الأصوات.

ضحكوا.

استغرق حمزة في اللعب مع إحسان بحماس. فاز عليه في أوّل دورة، وبدءا الدورة الثانية. قال إحسان:

- شكلك محظوظ اليوم.

- أبدأً. أنا متغاض فقط من حادث القطار، لذلك أَلعب بحماس.

- يا عمّ. لا تشغلْ بالك. هي خربانة خربانة، على رأي الشاعر.

ابتسم حمزة، وتمنّى أن يطول اللعب، ويهزمه إحسان في الدورة الثانية، ويقومان بلعب الدورة الثالثة الفاصلة. اقترب منهما الرجل الذي يقوم بتلميع الأحذية، فطلبا منه أن يشتري لهما أربع ساندوتشات فول وطعمية أوّلًا. بعد أن عاد، وأعطاهما الساندوتشات، ناولاه الأحذية، واستمرّا في اللعب، وقال واحد من الفنّانين فجأة لعارف الذي اقترب منهم من جديد.

- هل لديك أخبار عن سناء، يا عارف؟

- اختفتُ. سمعتُ أنها تزوّجتُ.

انتبه إحسان وحمزة، فتبادلا النظر.

- هل تعرف تزوّجتْ مَنْ؟

- الولد الخِرَتِي المعرّص الذي كان أحياناً يظهر هنا. واحد من أصحابه أخبرني وقال لي إنهما يجّهّزان نفسَيهما للسفر خارج مصر. واحدة من السويد تساعدتهما. تريدهما هناك.

قال الفنّان:

- أرزاق. ربّنا يوعدنا بالسويد، ولا حتّى جنوب أفريقيا!

ضحك الجميع، وسأل حمزة إحسان بصوت خفيض:

- هل معقول هذا الكلام؟ لم يمضِ وقت طويل على لقائنا بها.

- كل شيء جائز، يا حمزة. نهاية حلوة، على أيِّ حال.

هَزَّ حمزة رأسه، واستمرَّ يلعب، وقال:

- فعلاً. أرزاق.

ومرَّتْ سَيَّارة شرطة مَلَّاکي، فيها ضابط، وخلفها بوكس صغير، فيه فقط جنديان.
مرَّتْا على مهل، فقال أحد الفنَّانين:

- شكلها بدأت.

لكن السَّيَّارَتَيْنِ ابتعدتا في الطريق إلى شارع هدى شعراوي. كان المساء قد هبط، واللعب مستمرٌّ بين حمزة وإحسان بقوة. فاز إحسان بالدورة الثانية، وبدءا في الدورة الأخيرة، وبدا المقهى بعد مرور عربَّتَي البوليس يقلُّ رَوَّاده من الجالسين. حلَّ الظلام، ولم يعد في المقهى غير الأدباء والفنَّانين القليلين الذين انصرف اثنان منهم أيضاً، وقليل من الشباب في الممرِّ. فاز إحسان بالدورة الأخير الفاصلة، ومدَّ يده ضاحكاً، يصافح حمزة الذي قال:

- وَرَدَّ عليك. يخيِّل لي أن نعود الآن. تأخَّرنا أكثر من ساعة. المقهى يخلو من الناس. نروِّح بدري أحسن.

قال أحد الكَتَّاب الذي سمعه:

- أفضل حتَّى تسمع سائق القطار. يقولون إنه سيظهر اليوم في برنامج العاشرة مساء. لا أعرف منذ متى يعطون المتَّهم حقَّه في الإعلام!

قال حمزة هامساً لإحسان:

- من الأفضل أن ننصرف حقاً.

قاما ودفع حمزة الحساب لعارف الذي سأل حمزة:

- أ لن تكتب مذكراتك؟

فوجئ حمزة بالسؤال، فأصابته الدهشة، لكن عارف استطرد:

- كَتَّاب وفَنَّانين كثير أمامك، يمكن لو ليس لك في الكتابة تمليها على أحدهم.
أو أَمْلِئها عليَّ أنا سأكتبها أحسن من أيِّ حَدٍّ. آه والله. عشرون سنة بين
الكَتَّاب، لا بدَّ من العدوى.

ضحك الكَتَّاب والفَنَّانون، وقال الشاعر الضاحك:

- عارف عنده حقّ. ستكون الأولى من نوعها، والكتاب سيصبح بيست سيلر.

ابتسم حمزة من حديث الشاعر إليه كأنه صديق، ومشى وإحسان في الطريق
إلى شارع هدى شعراوي، ثمَّ عرجا يساراً فيه، فوجد مقهى "ستوديو كافيه"
مغلقاً. قال إحسان:

- غريب أن هذا المقهى مغلق. البستان مفتوح، فلماذا أُغلق هذا؟

- ربَّما خدوها من قصيرها.

ضحكا، وقال إحسان:

- فكرة جميلة حكاية المذكرات هذه.

قال حمزة:

- حقًا. جعلتني أفكر أن أكتب أهمّ ما حدث لي في مفكّرة. وبعد التّخرّج من الكُليّة يمكن أن أمارس الكتابة بثقافة ومعرفة أكبر.

ومشياً حتّى شارع الفلكي، فدخلاه ووجدوا في نهايته مقهى الندوة الثّقافيّة ومقهى الحميدية مغلقين.

قال إحسان:

- واضح أن فيه شيء حصل. أكيد مظاهرات أخرى في مكان قريب.

لكن أمين شرطة لا يعرفان من أين ظهر أوقفهما، وقال:

- ممكن البطاقة؟

ارتبك. كرّر السؤال:

- أقول ممكن بالبطاقة؟

شاهداً أيضاً ضابطاً يقف على الرصيف الآخر يفحص بطاقة الرّقم القومي لأحد الشباب.

تبادل إحسان وحمزة النظر، فقال أمين الشرطة:

- لآخر مرّة. ممكن البطاقة الشّخصيّة لكلّ منكما؟

لاحظا أن الشوارع تقريباً خالية، وأن المحلّات تقريباً مغلقة، وليس واضحاً إلّا أعمدة النور ذات الإنارة الضعيفة. وسيّارات الجراج الذي بين شارع التحرير

وشارع عبد السلام عارف ساكنة، لا يبدو أحد يتحرّك بها أو بينها. هل انتصف الليل، ولا يدركان؟

أخرج إحسان محفظته من سترته، يبحث فيها عن بطاقته، ليُقدِّمها لأمين الشرطة بينما تراجع حمزة خطوة، وتناول الموبايل، وراح يطلب رَقْماً، فامتدَّت يد أمين الشرطة، وأخذ منه الموبايل.

- سَتُكَلِّمَ مَنْ؟

- بابا. بطاقتي في البيت، نسيتها.

أدرك إحسان ورطته. يعرف أنه لم يحصل على أوراق جديدة بعد، ومن ثمّ، فبطاقته باسم لمياء. أيُّ فُحٍّ نصباه لنفسَيْهِما اليوم. وقال لنفسه "ليتني ما قابلْتُكَ، يا حمزة، ولا شَجَعْتُكَ على النزول من البيت".

أعطى لأمين الشرطة بطاقته الذي بدوره ناولها إلى زميل له، ووقف أمامهما. اتَّجه بها الأمين الثاني إلى عربة الشرطة المَلَّاكي ليفحصها. ارتبك إحسان أن تظهر له القضية التي تمَّ الإفراج عنه فيها. قال الأمين لحمزة:

- هل سأنتظر كثيراً. بدون بطاقة سأقبض عليك.

لكن الأمين الثاني عاد ببطاقة إحسان، وقدَّمها لزميله وهو يهزُّ رأسه نافياً أيَّ شبهة، فتطلَّع إليها لحظة، ثمَّ أعادها لإحسان الذي قال:

- حضرتك شفتُ بطاقتي، وعرفت أنني موظَّف في وزارة الثقافة. أنا أيضاً فَنَّان. أرسم يعني ومعروف. حمزة طالب في كُليَّة الآداب. ليتك تُصدِّقني. أنا ضامن له. حمزة شابٌّ محترم من عائلة محترمة، ووالده هو المهندس حسين عمران من

أكبر تجّار قطع الغيار في منطقة معروف.

- هذا الكلام تقوله للضابط على الناحية الأخرى. تعال أنتَ وهو.

أوقف إحسان تاكسي، وقال للسائق أن يُسرِع به إلى البيت. بيت حمزة. كان يودُّ لو يقفز من التاكسي يسبقه. لا يُصدِّق ما جرى. الضابط قال له أن ينصرف، وتحفّظ على حمزة. رفض الانصراف، وقال للضابط أن يسمعه. الضابط لم يهتم، وأخذ يتفحص بطاقة هوية لشخص آخر، أحضرها له أحد أمناء الشرطة. وقف إحسان يتوسّل إلى الضابط أن يترك حمزة، وحمزة يقول له أن ينصرف، ولا يُعرّض نفسه لمشكلة من أجله. إحسان انفعّل، وقال للضابط أن يأخذه معه أو يستمع إليه. نظر إليه الضابط في غيظ، فقال إحسان. اشرح له الحالة، يا حمزة. قال الضابط ساخرًا:

- أيّ حالة؟ معه بطاقة يُظهرها، ليس معه يشرف عندنا. سهلة، يا حبيبي، أنت وهو.

قال حمزة:

- معي بطاقة، لكنّ، أرجو أن تسمعني.

قال الضابط:

- آخر ما عندي لكم. أنا صبري نفذ. أظهر البطاقة بدون كلام.

أخرج حمزة البطاقة من محفظته، وقدمها للضابط الذي نظر فيها، وقال:

- مَن لمياء هذه؟

قال حمزة:

- هذا ما أودُّ أن تسمعه.

قال الضابط:

- الله أكبر. امرأة وعامل راجل. شذوذ يعني.

ونادى أمين الشرطة:

- ارمِه في سيّارة الترحيلات. مش ناقصة مسخرة.

وقف إحسان بين حمزة وأمين الشرطة يمنعه عن دفع حمزة إلى السيّارة، فتقدّم أمين شرطة آخر، وصفع إحسان على وجهه، وأمسك به، وقال للضابط:

- نأخذ هذا أيضاً. إنه يعتدي على أمين الشرطة.

نظر إليه الضابط في شفقة، وقال:

- يكفي الشاذّ.

تماسك إحسان في غيظ، وقال للضابط:

- يا افندم، حمزة كان بنت. عمل عملية، وأصبح رجلاً.

- نعم!

وانطلق الضابط يضحك.

- يا افندم، حمزة من الترانسجيندر.

- باقول لك إيه. شغل المثقّفين دا مش عليّ. أقسم بالله، إذا لم تختفِ من

أمامي، سأخذك في سيارَة الترحيلات، وحترجع تقول أنا مَرّة. غُر من وجهي.

فكّر إحسان أن الحلّ هو أن يصل إلى بيت حمزة بسرعة، لعلّ أباه يجد مخرجاً.
نسي أن يطلبه بالتليفون من فرط الهلع. دقّ على الباب دقّات سريعة قوية
ناسياً أن هناك جرساً. فتحتُ أمُّ حمزة في رعب، وهي تقول مَنْ؟ مَنْ؟

رأتُ إحسان مخطوف الوجه، فصرختُ:

- أين حمزة؟

- أين عمّي؟

كان الأب خارجاً من غرفته مرتدياً ملابس المنزل، والقلق بادٍ على وجهه، فقال:

- أين حمزة، يا إحسان؟

وضع إحسان رأسه بين يَدَيْه، يضرب فيها ويمشي بسرعة في كل اتّجاه.

صرخت الأمُّ:

- جرى له شيء؟ أُصيب في المظاهرة.

كان إحسان يفعل ذلك من فرط الإهانة التي شعر بها حين صفعه أمين
الشرطة، ولولا أنه وجد الأفضل أن لا يُقبَض عليه حتّى يبلغ أهل حمزة لضرب
أمين الشرطة حتّى لو انتهى الأمر بإطلاق النار عليه. راح يهتف أمامهم بعد أن
خرجتُ رانيا من غرفتها، ووقفتُ ببابها مذعورة:

- أقسم بالله لأقتله، أمين الشرطة الذي ضربني. أقسم بالله لن أترك الضابط

الذي قبض على حمزة.

قالت الأمُّ في انهيّار:

- قُبِضَ عليه؟!

وقال الأب محاولاً التماسك:

- طيّبٌ، يا إحسان، اضبطْ أعصابك، وفهمنا حتّى أستطيع التّصرّف.

اندفعتْ رانيا إلى حجرتها تبكي.

شرح إحسان ما جرى، وارتدى أبو حمزة ملابسَه، ونزل مسرعاً. أراد إحسان أن يذهب معه، فقال:

- لا. عُدْ أنتَ إلى بيتك. سأعرف كيف أتصرّف.

عاد إحسان إلى بيته مكسور القلب، يودُّ لو أخذ سَكِيناً، ويعود بها، ويطعن أمين الشرطة والضابط معاً. إلّا أنه أبعد عن عقله هذا الجنون، وراح يدعو لصديقه أن يُوفّق أبوه في العثور عليه، والإفراج عنه. كانت أمّه قد رأتُه يدخل ثائراً في غيظ شديد. سألتُه، فحكى لها. شملها القلق، وقالت:

- لم يكن هناك داع للجلوس على المقهى في يوم مظاهرات كهذا.

صرخ وهو يتكلّم:

- أيّ مظاهرات! كل مَنْ كانوا فيها لا يزيدون عن عشرين ولداً وبناتاً. فرقعوا شوية

شماريخ، وانصرفوا. ما هذه الدولة التي تخاف من عشرين شاباً؟! ما هذه الدولة التي تجعل أمين شرطة يضرب مثقفاً فنّاناً مثلي؟!

سكتت الأمُّ لحظات متألّمة، ثمَّ قالتُ بهدوءٍ حتّى تؤثّر فيه، فيهدأ:

- ادعي لحمزة أن يخرج. حقّك سنأخذه فيما بعد. سن تقدّم بشكوى إلى النيابة، وستأخذ حقّك. بابا في الخارج. أحد زملائه في البنك مريض ذهب لزيارته. سيعود ويعرف ويساعد والد إحسان، إذا لم يكن قد استطاع إخراجه من نقطة البوليس. إن شاء الله خير.

انفجر صارخاً:

- أيّ نيابة ستأتي لي بحقّي؟ أقسم بالله سأشترك في كل المظاهرات. تماماً مثل أيّام يناير. وسأكتب على صفحتي في الفيسبوك أكثر ممّا يكتب النشطاء. أنا كنتُ بدأتُ أقتنع أنه لا فائدة في الثورة، وأنه لا بدّ من الاعتراف بإخفاقها، وكل واحد يشوف حياته، لكنّ، لا. خلاص أنا رجعتُ زيّ أيّام يناير. كنت صغير، آه، لكنّ، الآن فهمت كثيراً.

وترك أمّه، ودخل حجرته ثائراً، وسمعتُ صوت ارتطام بعض الأشياء بالأرض، فدخلتُ وراءه، وجدتهُ يُلقي بالكُتُب على الأرض، وفُرش الرسم والحامل الذي يرسم عليه وأنابيب ألوانه وغيرها بقوة، ويصرخ:

- لا يحترمون الثقافة. أنا أيضاً لن أحترمها. سأحمل السلاح. أجل سلاح حتّى تكون المعركة معهم حقيقية.

كانتُ أمّه تهزُّ رأسها في حيرةٍ وألم. ظهرتُ دموعها، وقالتُ:

- ربّنا يهديك، يا إحسان. اصبر حتّى نرى ماذا سيحدث مع حمزة. بعدها افعل ما تشاء.

وأخذته في حضنها، فبكى، وراحت تُربت على ظهره، وتقول:

- استرخ في حضني، يا إحسان. الحمد لله أنك رجعت.

- لا؟ اتركيني. أريد أن أكون وحدي. وليتك تكلّمي بابا، تحكي له حتّى يأتي مبكّراً، يتابع الموقف مع أبو حمزة.

- حاضر. لكن، لَمْ أشياءك، الله يهديك.

قالت ذلك، وخرجت حزينة، وهو خلع ملابسه، وألقى بها على الأرض. ارتدى ترينينج سوت، وتمدّد فوق السرير في غيظ، يكاد يكسر أسنانه من فرط الضغط عليها.

انتفض مسعوراً إلى الموبايل، وفتح صفحة الفيسبوك، وقرّر أن يسبّ الدولة والنظام بكل ما فيه. لكنه ضغط أسنانه من جديد. هل الأفضل حقّاً أن لا يكتب الآن حتّى يتمّ الإفراج عن حمزة؟ هو الذي كان ينصح حمزة ألاّ يندفع في السخرية من الدولة أو النظام الحاكم، أصبح عليه الآن أن يفعل هذا. تحسّس خذّه مكان صفة أمين الشرطة، وعاد يقسم أنه لن يترك حقّه. أخذ يتقلّب على السرير في غيظ، ثمّ اعتدل، وبدأ يكتب على صفحته:

“شاهدتُ مظاهرة اليوم الصغيرة التي كانت في ميدان عبد المنعم رياض احتجاجاً على حادث القطار. لم يزد مَنْ كانوا فيها عن عشرين شابّاً وفتاة، فرقعو قليلاً من الشماريخ، وتركوا المكان. هتفوا برحيل النظام، وطالبوا بدم مَنْ ماتوا في حادثة القطار البشعة، لكن، لم يستمرُّوا، ولم يزدوا. حين جاء

البوليس كانوا قد انصرفوا. مضى كل شيء في وسط البلد على خير حتّى حوالي الساعة السادسة مساء حين ظهرت حملة فيها ضابط لا يسمع كلاماً لأيّ أحد وأمين شرطة يصفع أيّ شخص يناقشه. كانوا يفحصون بطاقات الرّقم القومي للشباب، وقبضوا على كثيرين منهم ممّن يحملون البطاقة أو لا يحملون. فهل هذا وطن يستحقّ أن نعيش فيه؟! هل هناك دولة تخاف شبابها؟! هل تحكمنا إسرائيل ونحن فلسطينيون؟! لم يبقَ إلّا أن يطردونا من بلادنا، ويبيعوها".

ثمّ ترك الموبايل، وتمدّد حزينا فوق سريره.

حتّى منتصف الليل وأُمّه تدخل إليه بين حين وحين تقول إنها تتّصل بأمّ حمزة وحتّى الآن لا تعرف شيئاً. قالت له إنها كانت تودّ أن تذهب إليها، لكنها تخشى أن ينزل هو إلى الشارع. قالت إنها هاتفت أباه، وأخبرته وأخبرها بدوره أنه سيّصل بوالد حمزة. بل وطلب محاميه، وأخبره أن يلحق به في قسم عابدين أقرب الأماكن التي يمكن أن يكون فيها حمزة. لكن أباه الآن لم يعد يردّ عليها. انتصف الليل، وعاد والد إحسان مهزوماً يائساً، وقال لأُمّ إحسان التي لم تنم: - لم نعرف له مكاناً. اتّصلنا بوزارة الدّاخليّة نفسها، ومعارف لنا فيها، فقالوا لنا أن نطمئنّ، سيظهر لا بدّ، وسنعرف. لكنه لم يظهر.

هنا تركهم إحسان صامتاً، ودخل غرفته، وجلس يكتب على الفيسبوك:

“حمزة حسين عمران صديق عمري. هو أقلّ منّي بست سنوات في العمر. لكننا عائلتان قريبتان جدّاً من بعضهما. حمزة طالب في كُليّة الآداب جامعة القاهرة قسم الفلسفة. حمزة كان من النوع النادر الذي تعريفه العلمي

ترانسجيندر. أي المتحوّلون. هو الفتاة التي كان اسمها لمياء. قام بإجراء الجراحة له الدكتور مختار صابات بعد أن ازدادت مظاهر الرجولة جدّاً فيه، ولم يعد هناك طريق إلّا فتح الباب لها بالجراحة. حمزة كان معي اليوم، نلعب الطاولة في مقهى البستان. حين عودتنا في حوالي السادسة مساءً، اعترضتنا سيّارة الشرطة والضابط وأمناء الشرطة الذين كتبتُ عنهم في البوست السابق. أوراق حمزة الرّسميّة لم تتبدّل حتّى الآن، لتأخّر استخراج شهادة ميلاد جديدة، باسمه الجديد. بطاقة الرّقم القومي الخاصّة تحمل اسم لمياء حسين عمران. الضابط لم يقتنع بما نقول له، واعتبره أحد الشّواذّ. فتاة شاذّة ترتدي زيّ الرجال. أبو حمزة ومعه أبي طافا على كل أقسام البوليس في القاهرة، ولم يعثرا له على أثر. أين ذهبتم بحمزة؟ وكيف سيقضي حمزة ليلته في الحبس؟ ومع مَنْ؟ أنتم ترتكبون جريمة كبيرة. على كل منظمات الدفاع الحقوقية أن تتدخّل، وعلى كل مَنْ يقرأ هذا الكلام أن يقوم بعمل شير. افضحوهم لننقذ حمزة".

وخرج يعدّ لنفسه كأساً من القهوة مقرّراً أن لا ينام.

لكنه بعد أن أعدّ القهوة، وعاد إلى غرفته، وجد أنه غير قادر على البقاء يقظاً، وأن جسده يخونه من الغمّ والإحباط، فترك نفسه فوق السرير ينام وكل شيء مبعثر حوله فوق الأرض كما هو.

لم يستيقظ إحسان مبكّراً ليرى ردود الفعل لما كتبه أمس. نام كَمَنْ لا يريد الاستيقاظ، وكأن في روحه ما يلبي رغبته. في كُليّة الآداب ابتداء من الساعة الثامنة والنصف صباحاً كان الطُّلاب يتجمّعون حول عابدين ومُريد وسونيا ومحسنة. الكل عرف من الفيسبوك ماذا حدث لحمزة، والكثيرون كانوا محبطين.

وقف الأصدقاء الأربعة أمام المدرّج حاملين لافتات صغيرة مكتوب عليها “حمزة لازم يرجع” وكانت هذه اللافتة هي عامل الجذب الأكبر للطلّاب، فلم يدخل المحاضرة إلّا نصفهم تقريباً بينما تجمّع الباقون أمام المدرّج حولهم وبسرعة. قرفص بعضهم فوق الأرض، يكتب لافتات أخرى، يحمل بعضها الشعار نفسه وغيرها تعلن “حمزة ترانسجيندر. اتركوه يعيش” بالطبع لم يكن ممكناً للأمن أن يتأخّر، فسرعان ما أتت مجموعة من رجاله ذوي العضلات الكبيرة. حاولوا أن يخرقوا الزحام لتمزيق اللافتات، والقبض على حاملها، لكن أعداد الطلّاب زادت، وأقامت كردوناً منهم لحماية مَنْ يحمل اللافتات. كان هناك مَنْ انشغل منهم بالدخول على الفيسبوك، يكتب أن طلّاب قسم الفلسفة يتجمّعون أمام مدرّج المحاضرات، يطالبون بعودة زميلهم حمزة الذي اختطفه البوليس أمس أمام مقهى الحميدية، ولم يعثر له أهله على أثر في كل أقسام البوليس” ارتفعت أصواتهم أمام الأمن، تهتف “مش حنمشي” “حمزة لازم يرجع”. في مكتب العميد الذي استُدعي من قبل الأمن، فجاء من بيته مهرولاً، كان عدد من الأساتذة يجتمعون معه ليسمع منهم كيف يُنهي هذا التّجمّع دون أن يقال عنه إنه فتك بالطلّاب أو وافق على الفتك بهم. قال أحدهم، أستاذ مادّة التاريخ الذي كثيراً ما سُوهِد في ميدان التحرير أيّام ثورة يناير:

- رغم أيّ شيء، فقد ذكرّونا بأيّام مجيدة.

قال العميد:

- أنا خائف على الأولاد، يا دكتور.

قال أستاذ التاريخ:

- كلُّنا خائفون. لا بدّ أن نعترف أن الدولة العميقة عادتْ أقوى من أيّ زمن، ومن

ناحية أخرى، فالتُّهم التي تنتظر أيَّ شخص كثيرة، أقلّها الانضمام لجماعة إرهابية.

قالت معيدة شابة:

- البلد مش ناقصة الحركات دي. هؤلاء الأولاد مدسوسون. مَن حمزة هذا، ليتظاهروا من أجله؟!

مطَّ أستاذ التاريخ شَفَتِيهِ متبرِّماً، ثمَّ قال أستاذ اللغة العربية مريض السرطان السابق العائد من موت محقَّق بعد علاج إشعاعي طويل:

- قرأتُ على الفيسبوك مشكلة هذا الطالب. هو حقّاً مظلوم. لكن، لا بدَّ أن نقنع الطَّلَبة أننا نخاف عليهم، وينتهوا من هذا التَّجمُّع.

كان يمسك بالموبايل في يده، وينظر فيه:

- طُلَّاب كثيرون ينضمُّون إليهم من الأقسام الأخرى. ستصير مشكلة.

قالت المعيدة الشَّابة:

- قلتُ لكم مدسوسون. مَن يستطيع أن يقول إن الدولة لا تحارب الإرهاب؟! يجب أن نعطيها الفرصة تبني البلد.

نظروا إليها، ولم يُعلِّق أحد. كان واضحاً أن حديثها لا يعجبهم، وأنه لا معنى حتَّى لأن يقولوا لها “وهل ما يفعله الطُّلَّاب إرهاب أو عمل مسلَّح؟ الجامعة طول عمرها مركز لحرِّية التعبير. الجامعة طول عمرها منذُ أنشئت مركز للحركة الوطنية” بدا أنهم يريحون دماغهم من النقاش معها.

قال أستاذ التاريخ للعميد:

- يمكن أن أذهب مع حضرتك للحوار مع الطَّلَبَة.

قال العميد:

- لقد أقنعتُ وزارة الدَّاخِلِيَّة بعدم التَّدخُّل. قلتُ لهم سأُنهي المسألة بهدوء. هيَّا بنا قبل أن تتَّسع المسألة أكثر.

ووقف خارجاً من خلف مكتبه، فقالت المعيدة:

- سأأتي معكم.

قال أستاذ التاريخ غاضباً وهو الذي كان قد أخفى غضبه منها من قبل:

- لا. أنتِ لا تأتي معنا. ويفضَّل بعد أن تنتهي المشكلة أن لا تتحدَّثي معهم فيها. سنُشعلين الدنيا.

شعرتُ بالإحباط، وظهر الغيظ على وجهها، لكن أستاذ اللغة العربية قال لها بهدوء:

- ابقِي معنا هنا أو اذهبي إلى مكتبك أحسن. ابعدي إنتِ عن السياسة، علشان خاطري.

أخذتُ طريقها إلى مكتبها في غيظ. وصل العميد إلى الطُّلَّاب بعد دقائق ومعه أستاذ التاريخ .. وقفا أمامهم، فالتف الطُّلَّاب حولهما، وصاروا يهتفون "فين حمزة" "حمزة لازم يرجع" "حمزة ابنك، يا سيادة العميد" بينما هو يشير إليهم بيديهِ أن يكفُّوا ويبتسم. شيئاً فشيئاً سكتوا، وصاروا يتحدَّثون إلى بعضهم "مش

حنمشي مهما يقول "دي فرصة نرجع الجامعة لحقيقتها" وإذا به يقول لهم:

- أنا أسمع ما تتهامسون به، لأن ما تريدونه هو ما أريده.

ونظر، فرأى عدداً كبيراً من رجال الأمن بملابسهم المَدَنِيَّة، يقفون في صفٍّ بعيداً عن الزحام، فقال لهم:

- لو سمحتوا، ارجعوا شغلکم. ما يحدث هو مسؤوليتي أنا، وأنا لم أطلب منكم التَّدخُّل، ووزارة الدَّاخِلِيَّة تعرف ما أفعل. حين أحتاجكم سأبلغكم.

مشى رجال الأمن كاتمين غيظهم، وقال العميد للطلَّاب:

- لن أقول لكم ندخل المدرِّج ونتكلَّم حتَّى لا تقولوا مثلاً إنني سأحبسكم، ليتمَّ القبض عليكم. سأقف معكم، ولي شرط واحد. لا هتاف إلَّا إذا انتهيتُ من الحديث.

سكت الطَّلَبَة، وفي أقلَّ من دقيقة انتهت حتَّى الهمسات، فقال:

- أسهل شيء أن أترك الأمن يقوم بدوره، لكني أريده أن لا يتدخَّل في السياسة.

والتفت ناحية طالبيْن يتحدَّثان، وقال:

- أعرف أنك تقول لزميلك إنه تمَّ القبض على طُلَّاب من هنا من قبل، لكن، اسألهم أين هم؟ تدخُّلي هو سبب الإفراج عنهم. ليس مهماً أن أتباهى بذلك، وأنا لم أكن أحبُّ أن أذكره. وبينهم الطالب عابدين هذا والطالب مُريد هذا. حتَّى الطالب الذي نسي موبايله عند ماكينة الفحص أُفرج عنه في اليوم التالي. هو الذي لم يعد يأتي كثيراً. الفيسبوك لا يجب أن يكون سبباً في ارتباك الجامعة.

الغيس بوك حُرِّيَّة مزيّفة.

ازداد السكوت، وإن بدت ملامح الغضب على وجوه كثيرة وهمهمات خفيفة،
وقال:

- أعدكم أن أتدخل، والدكتور عوض أستاذ التاريخ العظيم شاهد على كلامي.
فقط أعطوني الفرصة أن لا ترتبك الحياة الجامعية.

وسكت قليلاً، ثم قال بصوت خفيض:

- يا أولادي، أسهل شيء هذه الأيام هو القبض على الناس. لا تضعوا أنفسكم
في هذا الموضع. المراهقة الثوريّة تأخذ أصحابها إلى الإخفاق.

قال عابدين:

- هل يمكن أن نعرف موعداً لخروج حمزة؟

وهنا تدخل الدكتور عوض أستاذ التاريخ باسمًا يقول:

- ما يفعله سيادة العميد ليس مسموحاً له أن يفعله. التعليمات هي ترك الأمر
للبوليس. نحن لا نريد، والعميد منع حتى الأمن الداخلي أن يفعل ذلك، بل
واستطاع إقناع وزارة الداخلية أن لا تتدخل. حمزة مثل غيره كثيرين يحتاجون
دعمكم، لكن، خارج الجامعة، أرجوكم، في هذه الأيام، وإن كنت أفضل الصمت.
ترون دعوات الإخوان المسلمين في برامجهم بالخارج للثورة. يعني تهمة
الإخوان جاهزة. وبصراحة أنا أيّ دعوة من الإخوان للغضب لازم أرفضها. وأنتم
أيضاً.

ازداد الصمت، فقال العميد:

- أرجوكم. أنا العميد، أرجوكم. لا أريد للبوليس أن يدخل الجامعة، يهاجم أبنائي. ادخلوا محاضراتكم، واتركوا الأمر للقانون، وكما وعدتكم سيكون لنا تدخّل. مرّة أخرى، أرجوكم، وإن كنتُ أعرف أنه الآن سيحدث غضب عليّ من الأجهزة العليا، بسبب الحوار هكذا معكم. أنا لا أهتمّ إلّا بكم.

بدأ الطُّلاب يقتنعون، وينصرفون ببطء إلى أماكن المحاضرات أو إلى الكافيتريا. وقال العميد:

- أخفوا الأوراق التي عليها الشعارات أو مزّقوها. لا تخرجوا بها إلى الشارع، فلا تكون دليلاً على اتّهامكم.

قال ذلك، وابتسم، ثمّ أضاف:

- نصيحة من عاشق للثورات للشباب الصغير.

بعد دقائق تفرّق الجميع بالفعل، وعاد هو وأستاذ التاريخ إلى مكتبه. في الطريق قال أستاذ التاريخ:

- كلامك كان رائعاً، يا سيادة العميد. لكنّ، هكذا المعيدة إيّاها حتزعل. كان نفسها في مصيبة، وييجي البوليس.

- هذه بلهاء. لقد كتبتُ ضدّي أنا تقريراً لأمن الدولة.

قال مدرّس التاريخ مندهشاً:

- إلى هذه الدرجة؟! وسيادتك ماذا فعلتَ؟

- التقرير جاءني من أمن الدولة. أ لم أقل لك بلهاء؟ المهم، أرجوك، لا تذكر ذلك لأحد.

ضحك أستاذ التاريخ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من القول:

- لا تعرف الرُّتب!

ضحكا معاً. ثم قال العميد:

- رغم أن تعيينها معيدة استلزم الموافقة الأمنية، فهي لا تعرف أن تعييني عميداً استلزم موافقة جهات أعلى. بلهاء كما قلتُ لك.

واستمرَّ يضحكان، ويمشيان.

كيف يمكن أن تمرّ هذه الليلة؟ هكذا سأل حمزة نفسه حزينا وهو يجلس مقرفصاً في محبس النساء في قسم بوليس، لا يعرفه، إذ تم تغطية عينيه في عربة الترحيلات. لم ينزع أحد الغمامة من حول عينيه. نزعها هو بعد أن دفع به شخص إلى الداخل. كان فزعه كبيراً، إذ كيف أخذوه إلى هذا المكان الذي وصلت إليه السيّارة بعد وقت طويل؟! ولماذا أغموا عينيه؟ سيعرف من المحبوسات أين هو! لقد قرأ يوماً على الفيس بوك أن ذلك يحدث مع مَنْ يأخذونهم إلى أماكن تعذيب، لكنهم أتوا به إلى مكان يبدو معروفاً. هذه النساء لا تشي بأيّ سياسة أو إرهاب. جريمته إذا كانت هناك جريمة حدثت في وسط القاهرة. ماذا يخشون له إذن؟

كان بعد أن فكّ الغمامة عن عينيه؛ قد سألتُه واحدة منهنّ وهو يقف ينظر إليهم في رعب:

- عاملة في نفسك كذا ليه، يا حلوة؟

نظر إليهنّ. رآهنّ عشر نساء هذه المرّة. عشرة عدد كبير في هذا المكان الصغير.

- لماذا لا تردّين؟ عاملة نفسك طرشة؟

وقالت أخرى:

- طبعاً واحدة عاملة نفسها راجل، لازم تكون طرشة.

- وعاملة نفسك راجل لماذا، يا حلوة؟ تحبين النسوان، وتريدين أن تضحكي

عليهنَّ. انتِ هكذا تكوني هبلة. هل هناك أحلى من الرجال؟

وتقدّمتُ منه واحدة، مدّتُ يدها إلى السويتر الذي يرتديه، وقالتُ:

- هيا، اقلعي، خَلينا نشوف اللحم الأحمر.

أبعد يدها عنه، فأصاب المرأة الذهول:

- انتِ يدك طرشة. يد رجل بصحيح.

ونظرتُ للنساء حولها، ثمَّ قالتُ:

- هيا معي، نخلع عنها الهدوم. واحدة منكنَّ تخلع شيئاً ممّا عليها، وتعطيه لها.
آه. ليس معقولاً أن ننام ومعنا رجل. مش جايين هنا لا مؤاخذه علشان نتنيل!

أصابه الذهول، وامتدّت أكثر من يد تنزع عنه السويتر. بل امتدّت يد إلى القميص
تحت السويتر، وراحتُ يد أخرى تعبت بمؤخّرتَه، ويد تحاول أن تدخل بين ساقَيْه،
فصرخ:

- لا. لا. ابعدين عني.

ولم يجد طريقاً للمقاومة إلّا أن يهبط مقرّصاً على الأرض ضامّاً ساقَيْه صارخاً:

- ابعدين عني. سأحكي لكُن كل شيء.

ثمَّ هدأ صوته، وقال:

- أرجوكنَّ، أنا يمكن أن أموت من المقاومة أو الانفعال. اصبرنَ، واسمعنني.
أرجوكنَّ.

وقفتُ بعضهنَّ ينظرنَ إليه في دهشةٍ وحيرةٍ، والجالساتُ منهنَّ كنَّ يتسمنَّ
ساخراتٍ، كأنَّ الأمرَ لا يعنيهنَّ. قالتُ واحدة:

- على فكرة، إنتِ مش أولِّ واحدة أقابلها في الحبس عاملة راجل. الشَّواذُّ كثير.

نظر إليها، وقال:

- أرجوكي، يا هانم. اجلسي، وأعطيني الفرصة.

ضحكتُ، وقالتُ:

- هانم؟! إنتِ هكذا ولا يوسف وهبي!!

سكتَ يهزُّ رأسه ويسأل نفسه هل سيفهمَنَ حقًّا ما يقول؟! إذا كان الضابطُ
الذي قبضَ عليه لم يفهم، والذي استلمه هنا لم يفهم. كلاهما اعتبره كاذبًا،
فهو الأنسة لمياء، فهل ستفهم المجرمات؟ أشكالهنَّ مخيفة. سبعة منهنَّ
يبدون فوق الخمسين عامًا، ويرتدينَ ملابس سوداء ممَّا يشي أنهنَّ معلِّمات
في الأسواق أو معلِّمات في الدعارة في الأحياء الشَّعبية. ثلاث فقط صغيرات
تحت العشرين، لكنَّ أسنانهنَّ ليست مستوية، وبعضها مكسور. لا بدَّ أنهنَّ
عاهرات فقيرات. كيف يمضي هذه الليلة حقًّا؟! ليس أمامه إلَّا أن يتحدَّثَ ما دمنَ
سكتنَ عنه، وجلسنَ حوله. أكثرهنَّ وضعهنَّ خدودهنَّ على كفوفهنَّ، وقلنَّ:

- سَمِّعْنَا، يا حلیم، في يوم، في شهر، في سنة، بتاعتك.

أخذَ نَفْسًا عميقًا، وأخرج من جيبه علبة سجائر بين دهشتهنَّ، فقالتُ واحدة:

- معاكي سجاير! وزَّعي علينا، وزَّعي.

ترك علبة السجائر على الأرض. مدَّتْ أكثر من واحدة يدها، وأخذتْ سيجارة. لم يبقَ بها غير سيجارَتَيْن. لم يهتمَّ. بدأ يتكلَّم، فقال:

- أعطوني فرصة أن أتكلَّم كثيراً. أجل، سوف أطيل. لا تقاطعني.

صمتنَ مندهشات غير مصدِّقات ما يقول. بعضهنَّ حرَّكنَ شفاههنَّ إلى الجانب كنوع من "الأوز" عليه. أطال الحديث، وفوجئ أنهنَّ لا يقاطعهنَّ، ويستمعنَ، وكلَّما استمرَّ في الحديث، يُنصتنَ أكثر. أدرك أن هذه أوَّل مرَّة يعرفنَ شيئاً ممَّا قال، وأن الموضوع غريب جدًّا عليهنَّ، لم يسمعنَ به من قبل. وقالتْ واحدة:

- يعني إنتَ رجل بجد؟

- أجل.

- طيّبٌ، ما تورِّينا، يا خويا، الرجولة.

لكنَّ أخرى بدتْ أقواهنَّ نهرتُها قائلة:

- اسكتي خالص، يا مرَّة. أنا مصدِّقاه. أنا كنت أعرف واحدة أصلها راجل فعلاً. انتحرتُ.

ونظرتْ إليه باسمه، ثمَّ قالت:

- لا تخفُ، لن تنتحر. نحنُ يمكن أن نبسطك؟ إذا أحببت يعني.

نظر إليها ودمعة تترقرق في عينيَّه، وقال:

- أنا مبسوط أنكنَّ صدَّقْتَنِي. أنا لي طلب واحد فقط. لوأن أحداً سيزور واحدة

منكنّ غداً مثلاً أو سيأتي لها في الغد محامي، تبلغه عنوان بابا في منطقة معروف. بابا تاجر مشهور جداً هناك، وسيصل إليه بسهولة جداً. أشعر أنهم يخبئون لي مصيبة. أجل. قبضوا عليّ في وسط البلد، فلماذا أتوا بي إلى عين شمس؟!

قالتُ له التي تبدو أقواهَنَّ:

- خليك بهدومك، لكن، نم بعيداً عنّا قليلاً. أجل، يمكن للشيطان أن يوزّك. أنا غداً سأبلغ أباك.

- كيف؟

قالتُ ساخرة وهي تضحك:

- أنا لي في أقسام البوليس أكثر من الحكومة.

لم يكن ممكناً أن ينام. تمّدّد حقّاً في الحبس جوارالحائط بعيداً عنهنّ، لكن عينيّه مفتوحتان. لا يبدو أنه سيستسلم للنوم. هنّ نمن. بين حين وآخر واحدة منهنّ تستيقظ وتفتح عينيّها، وتنظر إليه وتضحك. فتاة من الثلاث الصغيرات تحرّكت بهدوء ناحيته. تمّدّدت جواره، وحاولتُ أن تحيطه بذراعها، فهمس لها:

- لا. أرجوكي. لا أستطيع. أنا في فترة نقاهة، ستطول من أثر العملية. يمكن أن أموت.

همستُ:

- تتكلّم جاداً أم تضحك عليّ؟

- أتكلم جاداً. أرجوك.

قالت مبتسمة هامسة أكثر وهي تمدُّ يدها بين فخذَيْه:

- أم هو صغير، لأنه جديد؟

ابتسم وهو يحاول الرجوع، فيمنعه الجدار، وقال:

- أرجوك.

قالت:

- خلا ص. سأرجع مكاني. لكن، هل سيتمُّ ختانك فيما بعد. باعتباره مولود جديد يعني؟

كاد يضحك، لكنه خشي أن يستيقظنَ ويغضبَنَ منه. قال:

- سيتمُّ الختان، إن شاء الله.

قالت:

- هكذا أبعد عنك أحسن.

عادتُ إلى مكانها، واستغرقتُ في النوم. كانت الرائحة تأتيه رديئة عفنة. لا بدَّ أنهنَّ لم يستحممنَ منذُ أيَّام. فضلاً عن أنه سمع شيئاً لم يسمعه من أنثى من قبل. ضراطاً يخرج من بعضهنَّ، ولبعضه رائحة، ولبعضه صوت فقط، وكاد يفقد وعيه من العفن. قال لنفسه لن تمرَّ الليلة إلَّا بالخيال، يا حمزة. لقد تخيلتَ من قبل جزيرة رجالها بلا أعضاء ذكورية ونساؤها بلا أعضاء أنوثة، وتخيلتَ أنك

هبطت إلى عالم عجيب جميل أسفل البحار، وعدت منه بالذهب، وتخيلت أنك رجل تحوّل إلى زومبي، وراح يثير الذعر في الطُّرُقَات. تخيل أنك في جزيرة وحدك، وليس فيها غيرالنساء معك. تخيل أنك تُعريهنّ جميعاً، وتنام معهنّ وكلهنّ لا يرتدين شيئاً غير ورقة توت على عوراتهنّ، ويقمنَ بخدمتك. أمضِ ليلتك معهنّ في سحر لم يعرفه الرجال. لكنه وجد أنه من الأفضل أن لا ينسى أن يقول للمرأة التي وعدته بإبلاغ أبيه أن توصي أباه بضرورة أن يُخبر إحسان أيضاً. لا يستطيع أن يجد فسحة الآن للخيال.

في عصر اليوم التالي وأبو حمزة يجلس يائساً في المحلّ، دخل عليه شخص في وجهه آثار جروح من "بشلة" في الخدين. يبدو مجرمًا من ملامح عينيه وقوّة نظرتة ومن ملابسه. في معصميه غوايش غريبة معدنية مثل قبضات الأفلام زمان. أخبره هامساً أن "بنته" في قسم بوليس عين شمس، وأنه يطلب منه أن يُبلغ "بنت" صديقة لها اسمها "إحسان" اندهش الأب، لكنّ الرجل قال:

- محبوسة مع النساء في القسم. ستذهب يقولون لك غير موجودة. يدوخوك شوية. شف لك واسطة حتّى تقابل ابنتك. الدنيا ماشية كدا.

يريد الأب بقوة أن يقول له إن ابنه هو المحبوس، لكنّ الرجل ذكر اسم إحسان كبنت أيضاً. إذن، الرجل لا يعرف أنه ولد، ما دام محبوساً مع النساء. وطبعاً لم يدرك أبو حمزة أن المرأة المحبوسة لم تُخبر من أرسلته أن المحبوس معهم ذكر حتّى لا تصدمه أو تثير هواجسه. سأله أبو حمزة:

- طيّب. هل ممكن أعرف كيف عرفت عنواني؟

قال الرجل:

- ابنتك قالت لأختي. أختي محبوسة. معلّمة كبيرة في عين شمس، وتعرف كيف تتصرّف. أبلغتني.

ارتبك أبو حمزة، وكاد يرتعش من المفاجأة، فقال للرجل:

- لا بدّ أن أترك المحلّ حتّى أجد طريقة لرؤيته. غير قادر أن أعزم عليك بشاي أو قهوة. هل تأمر بأيّ فلوس؟

- عيب، يا حاجّ. نحنُ محترمون. السلام عليكم.

انصرف الرجل غير مدرك أن أبا حمزة يتحدث عن ذكر، وليس أنثى كما تحدّث هو، وانهار أبو حمزة جالساً. لا بدّ من إنقاذ ابنه. الحبس مع المجرمات أكثر خطورة. لا يعرف أحد ماذا يمكن أن تفعل مجرمات مع رجل مدسوس عليهنّ. ترك المحلّ لعمّاله، واتّصل بأبي إحسان، ثمّ اتّصل بالمحامي الذي يعمل معه، وأخذ الثلاثة طريقهم إلى قسم بوليس عين شمس. لن يُخبر زوجته. لم يعرف أن أمّ إحسان عرفت من زوجها، فأخبرت أمّ حمزة التي بدورها ارتدت ثيابها، وأخذت تاكسي إلى قسم بوليس عين شمس. لم تشأ أن تقود سيّارتها. في الطريق اتّصل أبو حمزة بمنّ يعرفه في وزارة الدّاخلية، فقال له:

- كنت سأخبرك. أنا آسف، لم أستطع أن أعرف أين هو إلّا اليوم. هناك أشياء في الوزارة لا تعرفها، يا حسين بيك. على أيّ حال، ستصل هناك، تجد الأمر في طريقه إلى الحلّ.

سأل أبو إحسان ماذا يعني أن هناك أشياء لا يعرفها في الوزارة؟ هل يحاول أن يعتذر له عن التقصير؟ سكت أبو إحسان لحظة وهو يقود السيّارة، ثمّ قال له:

- يبدو أن قضية حمزة تخص أمن الدولة. مَنْ تعرفه هو من الأمن العام. الأمن العام لا يستطيع أن يتدخل في هذا النوع من القضايا. يبدو ذلك، والله أعلم.

قال المحامي:

- تبدو القضية كذلك فعلاً. لا تقلق. المهم عرفنا مكانه.

وصلوا إلى قسم البوليس، فوجدوا الضابط المسؤول يستقبلهم ببشاشة، ويشير إليهم بالجلوس. جلس الأب قلقاً، وجلس أبو إحسان والمحامي. قال أبو حمزة:

- هل عند حضرتك فكرة عن حالة ابني حمزة؟

- أجل. لا تقلق، سوف ترونه الآن.

قال المحامي:

- هل حضرتك قمت بعمل محضر له بعد وصوله؟

- لا.

- إذن، يمكن الآن وأنا معه. هذا حقّه، يا افندم.

- المشكلة ليست في المحضر. لن يتمّ استجوابه هنا. سيتمّ في النيابة. لقد قمنا بتفريغ ما على الموبايل الذي يخصّه، وأرسلناه للنيابة اليوم. جلسته غداً في التّجمّع الخامس. يمكن أن تحضر معه طبعاً.

سكت المحامي في حيرة، ثمّ قال:

- اسمح لي، أقل لحضرتك أن هذه أوّل مرّة يتمّ نقل متّهم دون محضر.

- هناك محضر، لكنّ، بما وجدناه في الموبايل.

ثمّ ابتسم، وقال:

- ناس مهمّة كلّمتني كثير من أجله. على أيّ حال، جلسة النيابة قد تحدّثت في أسرع وقت، وهذا يدعو إلى التفاؤل.

ودخل أحد الجنود، فطلب منه أن يُحضر قهوة لهم، لكنهم اعتذروا، فقال:

- اشربوا قهوة أو شاياً. قسم البوليس ليس كئيباً كما يقولون عنّا.

قال أبو حمزة:

- أريد أن أرى ابني. هل يمكن؟

أشار الضابط إلى الباب، وقال:

- ها هو حضرتك. لم أنتظرُك.

وقف أبو حمزة يحتضنه، ثمّ انهار جالساً في حزن، فجلس حمزة جواره، يحيطه بذراعه، ويقول:

- بابا، أنا بخير. المعاملة هنا جيّدة. سأخرج في أسرع وقت، إن شاء الله. أصلاً لم أرتكب أيّ جريمة. أرجوك، يا بابا، لا تحزن. لم أركّ ضعيفاً من قبل قطّ.

- وأنا في حياتي كلها لم أركّ هكذا، يا حمزة. آخر شيء كنتُ أتصوّره.

- ليستُ أوّل مرّة، يا بابا. أنا تعوّدت.

انتبه الضابط، وحملق فيه، ثمّ قال:

- هل قُبض عليك من قبل؟

قال الأب بسرعة:

- لا. أبداً. مرّة جمعوا قليلاً من الأولاد من محطة المترو، وأخذوه بالغلط، لكنّ،
أخرجوه من القسم بعد ساعة.

- آه. دُهِشْتُ، لأنّه لا سوابق له في الكومبيوتر.

قال المحامي:

- وإن شاء الله هذه المرّة سيخرج، ولن تُسجّل القضية في الكومبيوتر.

ظلّ الضابط متعاوناً معهم بشكل لم يصدّقوه. اشتروا لحمزة مأكولات وفاكهة
بسيطة تكفيه حتّى الغد موعد النيابة وتزيد. وصلت أمّ حمزة ومعها ثياب
وملابس داخلية من المنزل، وكان وصولها مفاجأة لأبيه ومَنْ معه. سمح لهم
الضابط أن يعطوا الملابس لحمزة أيضاً. حين وصلوا إلى نقطة أين سينام اليوم؟
هل مع المتّهمات من النساء أم مع المتّهمين من الرجال؟ فكّر الضابط قليلاً ممّا
أقلقهم جدّاً، ثمّ قال:

- سأتركه بيننا هنا مع أمناء الشرطة والجنود. الحجز الخارجي هنا ليس به أحد
الليلة، ويمكن أن يشغله. لن أعرضه لأيّ مشاكل.

كانت مفاجأة جعلت الأب يقف ويكاد يحتضن الضابط. خرجوا غير مصدّقين،

وركبتُ أم حمزة عائدة معهم سيّارة أبي إحسان وهي تبكي. صار كل أملهم في قرار النيابة في الغد. وعدهم المحامي خيراً. تأكّد لأبي حمزة أن اتّصالاته جاءت بنتيجة طيّبة.

كان على المحامي أن يذهب مبكّراً إلى مقرّ النيابة بالتّجمّع الخامس ومعه أبو حمزة وأبو إحسان. أسئلة كثيرة وحوار طويل في النيابة حول بوستات لحمزة ولأصدقائه وحمزة في ذهول. المحامي الحاضر للتحقيق معه يحاول أن يشرح للمحقّق أن هذا أمر عادي على الفيس بوك الآن. المهمّ أنه لا يدعو إلى تمرد أو ثورة. وحديثه عن الدولة الترانسجيندر، لأنه عاش التجربة. ونشره لحوادث القطارات لا يعني أنه مرتكبها، وكله أصلاً منشور على الإنترنت. وقوله إن تنظيم الأسرة هو الذي يحكم البلد هُزار، فهذا الشابُّ كان فتاة، وعانى كثيراً حتّى خرج من أزمته. واعتذر لتأخّر الأوراق بسبب البيروقراطية في مصر رغم موافقة المحكمة. أمّا ما كتبه أصدقاؤه، فهو من غضبهم لما يحدث له. لا هو يعمل بالسياسة، ولا هم يعملون بالسياسة. وكما ترى، يا سيادة النائب، أنه لم يعلّق على أحد منهم حتّى بـ "لايك". كتب رأياً عادياً، فيه من الضحك أكثر ممّا فيه من الجدّ. أكثر من ثلاث ساعات وحمزة في ذهول. أسئلة يجيب عنها المحامي، وأسئلة يجيب عنها هو، وأسئلة يعترض المحامي على توجيهها إليه، لأنها تتعلّق بأفكاره لا بأعماله، وحمزة يزداد ذهوله. ماذا فعل ليحدث هذا كله؟ وانتظر مع المحامي قرار النيابة آخر النهار. هو في غرفة المتّهمين، والمحامي في غرفة المحامين. وأبوه وأبو إحسان في كافتيريا النيابة. كان القرار استمرار الحبس أربعة أيّام حتّى يتمّ استكمال الأوراق والسماع لشهادة الدكتور مختار صابات. اعتبر المحامي النتيجة طيّبة، وأقنع أبا حمزة بذلك. أربعة أيّام تعني أنه سيعود إلى قسم البوليس، والضابط هناك سيهتمُّ به، وهو "المحامي" سيحصل على شهادة الميلاد خلال هذه الأيّام الأربعة. عاد حمزة إلى قسم

البوليس في عربة الترحيلات، وهم في سيّارتهم خلفها. سمعوا من عربة الترحيلات هتافات ضدّ الدولة والنظام الحاكم. ارتعب أبو حمزة، وسأل لماذا يكون حمزة معهم في نفس العربة؟ قال المحامي لا تفسير إلّا قلة العربات. العادة كل عربة تذهب إلى مكان. لا بدّ أنهم سيُنزلونه في قسم عين شمس، ويستمرّون بالباقي الذين يعرف المحامي ممّا سمعه من زملائه وممّا يهتفون به في السيّارة أنهم متّهمون في قضايا سياسية، وحُكم عليهم بالحبس خمسة عشر يوماً، وسيُنقلون إلى السجون لا إلى أقسام البوليس. كانت كل كلمة تُرعب أبا حمزة، وبدأ يشعر بقليل من الدوار. أحسّ أن ضغطه ينخفض، ويكاد يفقد وعيه. وصلوا إلى قسم البوليس، فلم يجدوا سيّارة الترحيلات التي كانت تسبقهم. أدركوا أنهم أنزلوا حمزة، واستمروا في طريقهم. دخل قسم البوليس مع المحامي، لكن أمين شرطة منعهم، وقال إن هناك لجنة تفتيش من النيابة على القسم، ولا يستطيع أن يسمح لهم بالدخول الآن، ولا يعلم متى تنتهي. ثمّ قال لهم:

- أنا أعرفكم منذُ الأمس. لا تقلقوا على حمزة، سيكون في رعايتنا.

نزل الصمت على بيت أسرة حمزة. الليل يدخل عليهم وهم يشعرون بظلام كبير قبل دخوله. الأمُّ شاردة تبكي معظم الوقت. رانيا في غرفتها تبكي أو تخرج لتبكي في الصالة. الأب لم يستطع أن يعود إلى عمله، فهو يحتاج إلى الراحة. جلس في الصالة مع أمّ حمزة ذاهلاً عنها. التّهم الموجهة إلى حمزة لا يتصوّرها. إهانة النظام وبثّ الإشاعات والانتماء لجماعة إرهابية. أخبره المحامي أن هذه التّهم صارت تقليدية الآن. المهمّ أن يجدوا دليلاً مادّيّاً. ما هو عند حمزة مجرد كلام على الفيس بوك. سيخرج. وأقسم له بالله العظيم أكثر من مرّة أنه

سيخرج. المهمّ أن يحصل على شهادة الميلاد. أمّا فيما يخصّ الدكتور مختار صابات الذين طلبوا شهادته، فلقد أعطوا النيابة عنوانه وتليفونه، وسيتابع إخطاره بالحضور للشهادة بنفسه. مع صوت أذان الفجر، وقف أبوه يصليّ في الصلاة، يدعو الله أن يفكّ كرب حمزة بينما خرجتُ أمّه إلى البلكونة، ورفعت يديها للسماء، تدعو الله أن ينتقم ممّن فعل ذلك بابنها، ونذرتُ نذراً أن تذبح بقرة كبيرة للفقراء يوم الإفراج عنه. في الصباح، لم تذهب رانيا إلى المدرسة. لم تسألها أمّها ولا أبوها. كانا ذاهلين عنها. أبو حمزة كان يبدو مرهقاً، ولمحتُ أمّ حمزة ذلك. أخبرها أنه يشعر بهبوط في نبضات قلبه. استجدّته وهي تبكي أن يتماسك. عرضتُ عليه أن تأتي له بطبيب، فأجلّ ذلك، وقال إنه لا يزال قادراً. حين يشعر بتعب أكثر سيفعل ذلك. كان يشعر أن التعب الأكبر سيحيي، فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه عن أن يتذكّر أيّام ثورة يناير، وكيف كان غير مقتنع بما يفعله الشباب في ميدان التحرير، ويرى أنهم طائشون، وبينهم عملاء لدول أجنبية، ولم يسمح لزوجته أن تشاهد أيّ قناة تليفزيونية خارجية في وجوده، وكانت هي أيضاً في صفّه، فلم تفعل ذلك في غيابه. ومنع لمياء - حمزة - الصغيرة في ذلك الوقت عن النزول إلى الشارع، فالمدارس مغلقة، كذلك فعل مع رانيا. كان يعود يحكي لزوجته عن محلّات الفول والطعمية في منطقة معروف التي يتجمّع فيها الشباب طول النهاروالليل يشترّون بكميّات خرافية لهم ولمن في الميدان، ومحلّ كشري أبوطارق الشهير، وأقسم لها أنه يراهم أيضاً بأعداد كبيرة أمام محلّ كباب أبو خالد. لقد وقف حاله كما قال وحال كل المحلّات، فأغلق أكثرها، وكان يرى الشباب سعداء رغم أنهم يقومون بثورة كما قالوا، ويمكن أن يحدث لهم مكروه. سعادتهم ممّن يدعمونهم من الخارج. وكان إذا حدث ووقف بعض الشباب أمام محلّه صدفة أو لأيّ سبب، يخرج يطلب منهم الانصراف، ويقول إنهم كانوا ينظرون إليه في غيظ. لقد تعاون مع من جاء ليقدم أموالاً لبعض البوابين وصبيان الورش والمحلّات، ليقوموا يوم الأربعاء بالهجوم

على مَنْ في الميدان. معركة الجمل. وتبرّع هو بمبلغ كبير، يتم توزيعه على هؤلاء الذين سيقومون بالهجوم على الميدان. لقد أغلق المحلّ، وجلس في بيته يتابع ما يجري، ويتمنّى أن ينتصر المهاجمون. كان مطمئناً جداً، لأن هناك مَنْ هم أهمّ من صبيان السّمكريّة أو البوّابين جاءوا من منطقة الهرم. العملية كبيرة، وسوف يقضون على مَنْ في الميدان. هو لا يرى سبباً للثورة على حسني مبارك، ولا على أسرته، فلم يرَ منهم شرّاً، بل توسّعت مبيعاته في ظلّهم. كانت المنطقة رائجة، لا يشعر فيها أحد بظلم ولا حاجة، فمن أين أتى هؤلاء؟! في يوم الجمعة، اضطرّ أن يذهب إلى المحلّ، لأنه سمع أن بعض المحلّات احترقت يوم الخميس، وهو اليوم الثاني في موقعة الجمل. حين ذهب وجد محلّه من بين المحلّات التي احترقت، بل واحترقت أكثر من سيّارة كانت مركونة أمامه. حمد الله أنه ليس من بينها سيّارته التي منذُ أوّل يوم في المظاهرات تركها داخل جراج في شارع المبتديان، ومعها سيّارة زوجته. لقد سُرقَت من المحلّ قطع غيار كثيرة، ولم يكن مَنْ يسرقها لديه الوقت ليسرق كل ما هو بداخله. اقتنع بما قيل إن شباب الميدان في غارتهم المضادّة على مَنْ هاجموهم من البلطجية هم مَنْ فعلوا ذلك. بعد أكثر من شهر حدّثه أحد أصحاب المحلّات أنه لا يُصدّق ولم يُصدّق أن مَنْ فعلوا ذلك كانوا من الميدان، لكنهم هم البلطجية أنفسهم بعد أن يئسوا من دخول الميدان. ولمّا شاعت إشاعة أن بعض أصحاب المحلّات هم مَنْ فعلوا ذلك، ليحصلوا على أموال من شركات التأمين، ارتفع صوته يستنكر هذا الكلام، فهو لم يفعل ولا غيره كما أنه لن يتقدّم لشركة التأمين طالباً أيّ شيء. بالعكس سيترك للدولة التي صارت في كارثة اقتصادية بعد توقّف الأعمال ما يستحقّه مساهمة منه في إصلاح الأحوال. وأعاد طلاء المحلّ من الخارج، وتركيب أبواب حديدية جديدة له، وتركيب كاميرات، لم تكن موجودة من قبل. كان حزينا أنه بعد ذلك كله يتمّ اتّهام ابنه في قضية سياسية. يعرف جيّداً أن تاريخه في المنطقة وكل عمل قام به مُدوّن لدى

الأجهزة الأمنية، فكيف يتركون ابنه في محنته؟ وهل توصية المسؤول ستقف عند حُسن المعاملة؟ كان ابنه جديراً بالإفراج عنه من أوّل لحظة. كيف فعل الضابط الصغير في مديرية أمن الجيزة ذلك حين قُبض عليه أوّل مرّة؟ وكيف يعجز عن أن يفعل مثله الرتبة الكبيرة الذي توسّط له؟ ازداد ضعفاً، ولم يعد يستسغ أيّ طعام. لم يعد حتّى يدري أن أمّ حمزة لا تزال تنام جواره فوق السرير، كما لم تعد هي تدري به.

امتلاّت صفحات الفيسبوك ببوستات عجيبة، لم يدعُ إليها أحد. تداعتُ متتالية، كأن هناك دعوة في الكون بالخروج على ما يعرفه الناس. هكذا علّق عليها أحد المشتركين في الموقع.

“أشياء كثيرة تحدث هذه الليلة بالقاهرة وعموم القطر المصري. عاصفة هوائية ضربت السواحل البحريّة، وظهر على شاطئ الساحل الشماليّ عدد من أسماك القرش ميتة، وكان من بينها أكثر من سمكة قرش، تخرج من فمها أقدام سوداء لحيوان صغير، جذبه بعض بدو الصحراء، فخرجت في أيديهم بقايا قرود. كيف نزلت القرود إلى الماء؟ لا أحد يعرف. يقال إنه أيضاً وُجد في جوف بعضها صُرر من البلاستيك السميك، فيها كمّيات من الحشيش، وشاع أن أسعار الحشيش ستهبط كثيراً جدّاً، وأن نوعاً فاتناً ظهر في الأسواق، يسمونه “حشيش الإرهاب”. ظهر حوت ضخم على الشاطئ قرب الحدود الليبية المصرية، فتحوا بطنه أيضاً، لعلّهم يجدون حشيشاً أو أفيوناً، فوجدوا أنور السادات وحسن البنا يضحكان ويلعبان الورق. في جميع مستشفيات مصر للولادة وجدوا كل الأطفال المولودين يتحدّثون بلغة لا يفهمها أحد، جلودهم كلها جاءت بيضاء من الأمام سوداء من الخلف، ولكل منهم أنف بها فتحة واحدة، وكذلك له أذن واحدة، وفي جبهته، وتمّ نقل بعضهم كعينة إلى معامل كُليّة الزراعة بالقاهرة لدراسة هذا النسل الغريب، وتحديد هويته ومرتبته في تاريخ التطور. شواطئ البحار كلها يقف عليها آلاف من الرجال، ينادون على النساء. كلهم أصبحوا، فلم يجدوا زوجاتهم على الأسيرة جوارهم، وكلهم حلموا بحلم واحد، فيه حملت طيور أسطورية النساء، ونزلت بهنّ إلى الماء. شواطئ البحر الأحمر وحدها نجت من كل هذه الظواهر، فلا ظهرت عليها أسماك قرش، ولا

حيثان، لكن، فجأة خرجت خرفان سوداء من الماء، وراحت تهزّ جسمها، وتُنزل ما على فروتها من بقاياها، وتأخذ طريقها الآن إلى القاهرة، فخرج الناس إليها من المحافظات القريبة، يقفون على شاطئ قناة السويس، يستقبلونها بالعلف وحزم البرسيم والعربات الصغيرة، لينقلوها إلى بيوتهم، حتّى إن أحداً لم يذهب إلى عمله، وخلت مكاتب الحكومة من الموظّفين، ولم تُفتح الأسواق، وأُغلقت المحلّات التجاريّة في الشوارع. قيل إن رجلاً يظهر في شوارع القاهرة بعد منتصف الليل يغنيّ ومعه فرقة من الطيور تغرّد فوقه وترفرف، والناس أمضوا الليل في الشرفات التي تطلّ على الشوارع يسمعون ويهلّلون، ثمّ توقّف الرجل وفوقه فرقة الطيور في نهاية شارع كلوت بك حين يتّصل بميدان رمسيس، لأن الميدان امتلأ بالثعابين الضخمة التي تصل ذيلها إلى أبواب المحطّة، بينما يرتفع نصفها الأمامي حاملاً أفواهاً مفتوحة، تهدّد كل من يقترب بالابتلاع. حين أراد الرجل أن يهرب استدار داخلاً شارع الفجالة، فابتلعه في مدخله ثعبان رهيب، ارتفع بعدها عالياً، ليصل إلى الطيور، لكن أفواه الطيور صارت مثل سكاكين، راحت تقطع في جسم الثعبان بسرعة وقوّة، وأخرجوا الرجل من بطنه، وراح يعزف من جديد، ونزلت الناس من البيوت، تتسابق للفوز بقطع من الثعبان الذي مرّقته الطيور أو قطع من جلده. ورأت الثعابين الأخرى ما يحدث أمامها، فتراجعت إلى داخل المحطّة، واستقلّت قطاراً فارغاً من البشر، وقاده واحد منها إلى الصعيد. صدرت التعليمات أن لا يقف أحد على أيّ محطّة من القاهرة إلى أسوان، ولا يُغيّر عمّال التحويلات في السيّكة الحديد طريق القطار، ولتفتح المزلقانات له، فالثعابين ستصل إلى أسوان، وتأخذ طريقها إلى بحيرة ناصر، لتنزل تعيش فيها، فهي أصلاً منها، ولقد أتت بها إلى القاهرة عناصر من تنظيم مجهول، تعمل الدولة على معرفته، والوصول إلى أصحابه، لكن الدولة التي تعرف مصدرها تعترف بالخطأ، إذ إنها هي التي أوعزت لها أن تخرج من البحيرة تشمّ شيئاً من الهواء، لكنها تمرّدت وانصاعت وراء الدعوات الإرهابية، وأرادت أن

تحتلّ الميادين، وتمارس الإرهاب، لكنّ، الحمد لله، الدولة استطاعت أن تخدعها وتُعيدّها إلى حيثُ كانت. للأسف عشرات الشباب لم ينصاعوا لبيان الحكومة بعدم الوقوف على المحطّات، ووقف الكثير منهم على محطّات بني سويف والمنيا وسوهاج وأسيوط وقنا والأقصر، فطالّتهم رؤوس الثعابين، وابتلعَتْهم. إن ما جرى مع هذه الثعابين يؤكّد أن الدولة على حقٍّ في التضييق على الشعب، فها هي الثعابين لم تكتفِ بالهواء، وأرادات السيطرة على الحكم. فعلاً كان العثمانيون على حقٍّ حين قالوا إن المصريّين لا تقودهم إلّا العصا. الدولة التي هي على خلاف مع تركيا وجدتْ أن العثمانيّين على حقٍّ، يا جدعان، في تمييزها للمصريّين! لماذا لا يفكّر أحد أبداً أن أيّ شعب في الدنيا يمكن أن يُقاد بالعصا، ما دام مَنْ يستخدمون العصا لا يحاسبهم أحد؟! بينما قال آخر إنه يُصدّق ما يقال عن المصريّين، فعمر بن العاص كان على حقٍّ من قبل العثمانيّين بقرون حين قال عن مصر، أرضها ذهب، ونساؤها لعب، ورجالها لمنْ غلب! وقال ثالث إنه عمل من قبل في العراق، وعرف أن العرب بعد أن غزوها قالوا الكلام نفسه عن أهلها، ويبدو أن العرب قالوا ذلك عن كل البلاد الزراعيّة التي غزوها حين رأوا نساءها، تبدو عليهنّ نعمة الغذاء! وعلى ذكر النساء حوريات الأرض المصريّات، ارتفع أذان الفجر من كل الجوامع بأصوات النساء، فجرى الرجال إلى المساجد، لا يُصدّقون، فوجدوها خدعة، والفجر لم يرتفع به الأذان بعد. كيف يتمُّ حمل النساء إلى البحار؟ وكيف ترتفع أصواتهنّ من المآذن؟ لغز تعمل لجنة مستقبل أمّة على دراسته وتمحيصه ودعكه في الحائط حتّى يظهر جوهرة. المؤامرة على مصر تتّسع، وتشترك فيها قوى غيبية، وهذا يدعو إلى الحذر. البرلمان يجتمع في عهد الخديوي إسماعيل لأوّل مرّة، فيغلب النوم كل أعضائه، وتسقط عممهم وطرايبشهم على الأرض، ويكون التصويت على القرارات بالشخير في ظاهرة لم تحدث من قبل. وهذا يؤكّد أن الأعضاء لا يتخلّون عن مصر في اليقظة والمنام. الدولة تحاول فكّ شفرة هذه الأحداث كلها، تعلن

للناس أن عليكم ألا تذهبوا إلى الجوامع ليلاً هذه الأيام، وأغلقوا بيوتكم جيّداً حتّى لا تحمل الطيورُ النساءَ الباقياتِ إلى البحر، فستفقدوا كل دفء، وليس لدى الدولة القدرة على تعويض مَنْ فَقَدَ زوجته أو عشيقته بأخرى، وليس لدى الدولة بطّانة واحدة، تُدْفِئُ بها أحداً، كما أن هذا ليس من عمل الدول. تحذّركم الدولة من الإشاعات بأن تحت كل بيت كنزاً أثرياً قديماً، فَمَنْ سيحفر تحت بيته، سينهدم. مصر بلد فقير منهوب طوال التاريخ. وتذكّركم الدولة التي لا تكذب بذلك، فساعدها على الحفاظ على ما بقي من أملاككم. طابور من الفنّانين مطربين وموسيقيّين يظهرون على جانبَي شارع الهرم، والملاهي الليلية قد عادت من جديد. على باب كل ملهى يقف مطرب عظيم منذُ عبده الحامولي إلى عمرو دياب، ومعه مغنّية منذُ ساكنة باشا حتّى شيرين عبد الوهاب. ورغم أن شيرين هذه قد قالت إن “اللي بيتكلّم في مصر بيتسجن” فالدولة أعطتها أكبر فرصة للكلام والغناء، وأعادت ملاهي الشارع من أجل خاطرها، وتقف دائماً شيرين متكرّرة بنفسها أمام كل ملهى، فأصبح هناك عشرة شيرين، وحول كل منهنّ أجمل راقصات مصر، كيتي وسامية جمال وتحية كاريوكا ونعيمة عاكف ونجوى فؤاد وسهير زكي. طابور خامس يظهر بالليل لعدّة أيّام، ينزع كل لافتات أسماء الشوارع التي وُضعت منذُ ثورة يوليو 1952 ويضع بدلاً منها أسماء أعلام في الفنّ والثقافة والفكر والعلوم، ممّا يُسبّب الإحراج للدولة التي عيّنت فريقاً من العمّال لإعادة اللافتات القديمة، لكنّ، لا يزال المتأمرون يجدون السُّبُل للظهور خفية، وجعلوا على أطراف الشوارع كلها لافتة كتبها مجنون على الشارع المجاور للمركز الثقافيّ الفرنسي. هذه المرّة لم يكتبوها بالطباشير، لكنهم حفروها على اللافتات المعدنية، والدولة تحذّر كل محلّات المعادن من نحاس وحديد وغيره في منطقة النّحاسين بالجمالية وغيرها، من بيع أيّ لافتات منذُ اليوم لأيّ شخص لا يحمل رخصة بالعمل من مكاتب الأحياء الرّسميّة لمدينة القاهرة أو غيرها من المُدن. قرار مهمّ صدر من أجل الاستقرار والنهضة

بالإفراج عن كل المعتقلين والمحبوسين بسبب جرائم رأي، ومديرو السجون والجنود يفتحون لهم الطريق في كل السجون إلى الخارج. بعد أن انتهى خروجهم، وأُغلقت السجون على أصحاب الجرائم الجنائية، اكتشفت مصلحة السجون أن مَنْ خرج هم الجنائيون، وليس السِّيَاسِيَّينَ، وأن السِّيَاسِيَّينَ خدعوا الدولة، فأخرجوا الجنائيَّينَ لإشاعة الفوضى في البلاد، لكن، مصر حفظها الله، ولن يقدر عليها أحد! قرَّرت الأحزاب والجمعيات الحقوقية أن يكون أمام كل حزب أو جمعية حقوقية عربية لتقديم الفول والطعمية مجَّاناً للمتجوِّلين أمامها، والدولة تشكر الأحزاب والجمعيات الحقوقية على هذه الخطوة، وتعتذر لعدم وجود فول أصلاً بعد أن انتهت زراعته، ويتمُّ الآن استخراج نبات جديد، يطرح ثمرة الطعمية مَقْلِيَّةً وَمَحْشُوَّةً، وسيتمُّ توزيعه على الناس لزراعته على الأسطح وفي البلكونات، وتوفير أسعار الساندوتشات. قائمة الدول التي طلبت بذور هذه الشجرة طويلة، تمتدُّ من العالم العربي إلى أميركا الجنوبية.

أوَّل جريمة قتل بسبب هذه الشجرة تحدث في الوايلي، حيثُ طلبت امرأة من زوجها أن يشتري لها بذرة شجرة، تطرح الطعمية مَحْشُوَّةً وبالسمسم، وهو قدراته المالية ضعيفة، فأرادها شجرة للطعمية العادية، فغضبتُ منه، فقتلها. مظاهرات حاشدة من النساء في المُدُن بعد اختفاء نصفهنَّ في البحر، تطالب بتعدُّد الأزواج شفقة بالرجال الذين ترمَّلوا أو لا يجدون مَنْ يتزوَّجون، واحتجاج كبير في الأزهر واجتماعات للجنة الفتوى ولعلماء الإسلام لإصدار البيانات التي تؤكِّد على حرمة ذلك، وانتشار رجال الدِّين في القرى والمُدُن لإقناع الناس بعدم الانجذاب إلى هذا الهراء. للمرأة رجل واحد، والحكمة واضحة، هي صحَّة النسب، والأزهر ورجال الدِّين ملَّوا من توضيح الحقائق التي لا تقبل الكذب، والقبض على ناشطات، رَدَدْنَ على الأزهر ولجان الفتوى بأن معرفة النسب الآن أصبحت سهلة، بكشف الدي إن إيه. أحد المشايخ يتجرَّأ في قناة خارجية،

ويقول، على المصريّين الآن التَّغَلُّبُ على الأزمة بمعاشرة الغلمان، ويقترح على الدولة التي لا تعرف طريقة لصيانة أولاد الشوارع من الضياع، أن تُوزَّعَهم غلماناً على الأغنياء ورجال المال والأعمال. الأزهر يردُّ على هذا الشيخ المأجور، ويعلن تكفيره وخروجه من الملة، والبرامج التِّلْفِزيونيَّة تنشر له سيديها، كانت تحتفظ بها جهات سيادية، توضح كيف قُبِضَ عليه وهو يمارس الجنس مع زوجته وأختها في وقت واحد، وخيرته بين السجن أو الرحيل، فغادر البلاد، وظهر بعد عشرين سنة متصوّراً أن الجهات السِّياديَّة قد نسيت ما فعله ليقول هذا الهراء.

استغاثات من أصحاب هذه البوستات وهذه التعليقات إلى الفيس بوك لحظر أصحابها، وعدد كبير ممَّن كتبوها يطلبون من الآخرين المساعدة بلایك أو نكر، فهم لم يقصدوا إلَّا المزاح. وشيئاً فشيئاً اختفت صفحات كثيرة، وقَلَّتِ التعليقات، فاقترح أحد الشباب أن يقوم مَن أعجبته هذه البوستات بحملة لنشر صور عارية للرجال والنساء، فهنا لن تقوم لجان من أيِّ نوع بالإخطارات المضادَّة إلى الفيسبوك، لأن الرجال سيُعجبون بصور النساء، والنساء سيُعجبْنَ بصور الرجال، واقترح على إدارة الفيسبوك أن تحذف كل ما كتب من قبل، باستثناء إعادة اللَّافِة التي كانت مكتوبة على الشارع المجاور للمركز الثقافيِّ الفرنسي، فهي لا تضرُّ أحداً، لا من الدولة، ولا من الشعب، بل هي أمل لكل الناس، ولمَّا ردَّ عليه آخر أن اللَّافِة كانت مكتوبة بالطباشير، وتمَّ مسحها، فلم تعد موجودة، اقترح أن توضع لافتة تحمل جملة "شارع اللَّافِة المحذوفة" على كل الشوارع.

كان إحسان لا يُصدِّق ما يقرؤه أمامه، لقد أصاب الناسَ الجنونُ. ونسي ما كان قد قرَّره من قبل. انتبه حين رأى صفحة عابدين ومُريد قد تمَّ إيقافهما، فكلاهما كان من أكثر مَن سبَّح في الخيال عمَّا يحدث في مصر. الأمر نفسه كان مع

سونيا ومحسنة اللَّتَيْنِ لا ينسى أن واحدة منهما كانت وراء الحديث عن مغني منتصف الليل وفوقه الطيور، والثانية كانت وراء مظاهرات النساء لتعدد الأزواج. ماذا يفعل الآن؟ كيف سيتأخر الحديث عن مأساة صديق عمره حمزة؟ ما معنى أن يتحدث الآن وسط كل هذا الخيال عن حقيقة أن حمزة لا يزال في الحبس، وأمامه أربعة أيام أخرى حتّى يُعاد عرضه على النيابة، والرعب أن يُحبس من جديد مع النساء، فيتأثر بسلوكهنّ، ويعود إلى ما كان عليه "لمياء". أجل. هو لا يفهم، ولم يقرأ في هذه المسألة، لا طيّباً ولا تَفْسيّاً، لكنّ، يمكن أن يحدث هذا. وفي حالة العودة هذه، لن يفوز بأعضاء أنوثة من جديد، ولن تبقى له أعضاء ذكورة نافعة. انتبه إلى أن ضياع صفحات أحد لا يعني عدم قدرته على الاتّصال به على الماسينجر أو الفاير، فاتّصل بعابدين.

أخبر عابدين بكل ما جرى مع حمزة. اتّفقا على أن لا يُثيرا الأمر حتّى يُعاد عرضه على النيابة مرّة أخرى، فلقد مرّ هذا اليوم والأيام الثلاثة الباقية ستمرّ بسرعة، فإذا تكرّر حبسه، تصبح قضية حمزة هي قضية مصر. كان ذلك في الحقيقة اقتراح عابدين، الذي أخبره أنه يستطيع أن يقنع مُريد، أن يشترك معه في الدعوة إلى التظاهر داخل الجامعة من جديد. ولمّا سأله عن سونيا ومحسنة، أخبره عابدين أنه لا يضمن مشاركة سونيا، فلقد بدأت تخاف فجأة وتبتعد، بل وصارحتُ في مكالمة أنها يمكن أن تشارك في أيّ شيء هِزار، لكن القضايا الجادّة سترُجئها حتّى يتمّ تخرُّجها في الكُليّة. وحتّى بعد ذلك ستجد طريقة للهجرة إلى الخارج. وقال له إنه تظاهر بالاعتناع حتّى لا يُسيّب لها الخجل، وحَدّثها عن أنه هو أيضاً يفكّر في الهجرة بعد تخرُّجه. ثمّ قال إن سونيا صغيرة، وكل ما يربطها بهم قرابتها لمحسنة، لكنّ محسنة لن تتخلّى عنهم.

لم يستطع إحسان أن يضغط على عابدين في الحديث. أبدى اقتناعاً غير راضٍ

عنه، ووجد أنه من الأفضل أن ينام، فالساعة قاربتُ على الرابعة صباحاً، ويوم جديد سيبدأ، لكنه غداً سيشرع فيما فُكّر أن يفعله.

أنفق اليوم التالي في رسم بورتريه لحمزة، فيه من ملامح الرجولة أكثر ممّا فيه من ملامح الأنوثة السابقة. لم يذهبُ إلى عمله، وانتهى من البورتريه في الخامسة مساءً. كانتُ أمُّه طوال النهار في الجاليري الذي تملكه في جاردن سيتي، وكان أبوه في البنك، وحين عاد في الثالثة، قال له أن لا يقلق، فحمزة لا يزال في رعاية الضابط المحترم، الذي وعدهم أن يكون في الخارج أمام الجنود، لا مع المحبوسين من الرجال، ولا مع المحبوسات من النساء. هكذا عرف من أبي حمزة الذي أكّد الخبر بكلام من الضابط نفسه الذي أخبره أيضاً أن النيابة التي قامت بالتفتيش على القسم، لا تأتي عادة إلا بين عام وآخر، ومن ثمّ لن يعود حمزة إلى حبس النساء، وسيظلّ يعفيه من حبس الرجال. أمّا الذين يتمّ وضعهم في التخشيبية بالخارج، فسيؤزّعونهم منذُ البداية على محبسيّ الرجال والنساء. سيظلّ حمزة وحده، وأن أبا حمزة زاره اليوم ومعه المحامي، فوجدا الأمر كما قال الضابط، وأحضرا طعاماً كثيراً جدّاً لحمزة، يعرفون إنه سيقوم بتوزيعه على الجنود!

كان قرار إحسان أنه غداً سيأخذ البورتريه الجديد للشابّ حمزة، مع بورتريه ممّا رسمه له من قبل، وهو البنت لمياء، وليس عليه توقيع، كما ليس على الجديد توقيع أيضاً، ويذهب إلى أحد مراكز التصوير، يقوم بعمل صورة واحدة من الاثنتين، متجاوزتين بعد تصغيرهما، وطبع مئات من الصورة الجديدة، يقوم بلسقها على الجدران بعد أن ينتصف الليل. لا يستطيع أن يكتب تحتها ما يريد قبل التصوير، فقد يُبلغ فيه صاحب مركز التصوير البوليس. إذاً عليه أن يُنفق ساعات أخرى في البيت، يكتب تحتها بالقلم الأسود الثقيل “هذا البطل حمزة الذي عبّر من حالة

الأنوثة إلى الرجولة، تحبسه الدولة مع النساء، وتمنعه من استكمال فترة النقاها، وتتهمه بالإرهاب” سيكتب هذا على نصف عدد الصور، وعلى النصف الآخر يكتب “حمزة كان عائداً إلى بيته مساء مظاهرة ميدان عبد المنعم رياض بعد حادثة القطار البشعة، فقبض عليه في الشارع، وكان قد أمضى وقته كله في لعب الطاولة في مقهى البستان”.

لم يكن أبو إحسان يعرف أن أبا حمزة صار يكذب عليه فيما قاله له. فلقد ذهب لزيارة حمزة، وقيل له ذلك فعلاً، لكن، لم يُسمَح له بمقابلة الضابط، ولا رؤية حمزة. قيل له إن القسم مشغول جداً اليوم بأمور لا يجب أن يقولوها لأحد. المحامي لم يذهب مع أبي حمزة إلى قسم البوليس، لأنه انشغل في الحصول على شهادة الميلاد، ففُوجئ بالموظف بعد أن طلب منه الانتظار لعدة دقائق، يطلب منه أن يأتي بعد أسبوع. أُسْقِطَ في يد المحامي، وتساءل عن السبب؟ فقال له الموظف إن هناك لجنة كبيرة تقوم بالمراجعات لما تمّ ويتمّ من تحويل الأوراق القديمة إلى معلومات على الإنترنت، لأن هناك أخطاء كبيرة جداً حدثت في الأسماء، ممّا سبّب ارتباكاً لتسعين في المائة ممّن يتقدّمون للحصول على صور من شهادات الميلاد لهم أو لأبنائهم. فأسماء مثل محمد صارت محمود والعكس، وأسماء مثل عبد الحميد صارت عبد المجيد والعكس، وأسماء مثل صابر صارت جابر والعكس، وأسماء مثل شعلان صارت زعلان والعكس، وأسماء مثل زياد صارت إياد، وأسماء مثل جهاد صارت عماد، وداليا صارت دانية، وسميرة صارت شهيرة، وسونيا صارت دنيا، وسلوى صارت حلوى، ونعمة صارت لعبة، وفيروز صارت نيروز، وهكذا. آلاف من أسماء الرجال والنساء حدثت فيها أخطاء، وتصحيح الاسم يستدعي جهداً كبيراً من صاحبه، فعليه أن يذهب إلى دار المحفوظات لاستخراج شهادة أصلية، ثمّ يعلن عن الاسم الحقيقي في جريدة رسمية، والدولة المحترمة قرّرت التخفيف على الناس الذين لا ذنب لهم، فأمرت

بمراجعة وتصحيح كل الأسماء خلال أسبوع واحد. كان المحامي مندهشاً من الحديث، وهو يرى العشرات أمام مبنى السِّجْلِ المَدَنِي يحصلون على شهادات الميلاد، وحين سأل الموظف عنهم قال له إنهم تقدّموا لطلبها منذ أكثر من شهر، وكانت موجودة، وربّنا يستر لا يكون فيها أخطاء. هم يأخذونها، وينصرفون، وسيكتشفون الخطأ بعد عودتهم إلى بيوتهم. وقال له مبتسماً "لا تقلق، سيعودون جميعاً للتصحيح".

عاد المحامي في ضيق، وهو يشعر أنه في بلد من السَّحَرَة، إلى أبي حمزة في دكّانه، وأخبره بما جرى، فحطّ الحزنُ على الرجل. لكن المحامي قال له أن لا يقلق، فلديهم فرصة شهادة الدكتور مختار صابات، ثمّ إنه سيخبر النيابة بما جرى، ويطلب منها أن تطلب سرعة استخراج الأوراق وفقاً للحكم الصادر من المحكمة. ولمّا عرف من أبي حمزة أنه لم يستطع مقابلة حمزة أو الضابط في القسم، شرد بعيداً، وبدأ يفكّر أن الأمر صار أكبر من أيّ احتمالات طيّبة. طلب منه أن يتّصل بالشخصيّة الكبيرة التي يعرفها في وزارة الدّاخليّة، فقال له إنه يتّصل به، فلا يرّدّ عليه. تأكّد للمحامي ما فكّر فيه. لكنّ، ماذا يمكن أن يكون وراء حمزة، ليتقصّده أحد بكل هذا التعطيل؟ هل حقّاً يمكن أن يكون لمثل حمزة اتّصالات بأيّ جهة أجنبية؟ ووجد نفسه يسأل أبا حمزة:

- قلّ لي بصراحة. هل لحمزة أيّ نشاط سياسي غير الكتابة البلهاء على الفيسبوك؟

هزّ أبو حمزة رأسه في أسف قائلاً:

- كيف، ولقد عاش مشغولاً بحالته العجيبة؟! حمزة فقط يحبّ الهزار حتّى حين كان ...

ولم يُكْمِل. فسكت المحامي قليلاً، ثمَّ سأله:

- هل فعلاً تمَّ القبض عليه في عودته، وليس في المظاهرة؟

نظر إليه في استغراب، فقال المحامي:

- أعرف أنك صادق، لكنني أريد أن أتأكد، لأن الشكوك بدأت تراودني. ليس فيكم، ولكن، في جهة ما تُعْطِل كل شيء.

سكت أبو حمزة، فاستطرد المحامي:

- لكن، لا أظنُّ أن أحداً يمكن أن يؤثّر على النيابة. سأتصل تليفونياً بالدكتور مختار صابات غداً، لأتأكد من وصول طلب النيابة إليه، وإذا لم يكن قد وصل، سأذهب إليه بنفسى.

لم يجد حمزة مشكلة في أن يعود إلى محبس النساء. لقد عرفهنَّ وعرفتهُ. ربَّما كان هذا أفضل له من البقاء في التخشيبية الخارجية حتَّى لو كان وحده، لأنها ضيقَّة، ولا يستطيع أن ينام فيها إلَّا مقرّصاً، وحركة ودخول الجنود والناس لا تعطيه فرصة النوم. لقد أخرجه أمين الشرطة ساعة أوَّل ليلة قضاها فيها، ليتمدّد على دكَّة خشبية طويلة، لكنها كانت رفيعة، لا يزيد عرضها عن أربعين سنتيمتراً، ومن ثمَّ نام فوقها على جانبه. قال له أمين الشرطة:

- هذه هدية مِني لكَّ ساعة الفجر. فرصة أن تتمَّ ساعة، إذا استطعت.

بعد أن أدخلوه بين النساء من جديد، لاحظ أنه تبدّلتُ بينهنَّ أربع بأخريات أصغر سنّاً، بدون أكثر جمالاً. قالتُ لهنَّ واحدة من القدامى:

- لا تتعجبنَ. هذا حمزة. رجل يعني. والحكومة لا تعترف به إلا امرأة. ونحن أحببناه. اجلس، يا قمر.

تساءلتُ واحدة من الأربع الجدد:

- ماذا تعنين؟

شرحتُ لها الأمر، فتح حمزة الحقيبة الصغيرة التي بها ثيابه الداخليّة والترينج سوت، وتناول بعضها، وتساءل:

- قبل أيّ حديث، أريد أن أُغيّر ثيابي.

قالت المرأة التي تحدّثتُ من قبل:

- ادخل الحمام، يا حبيبي. لا يوجد أحد.

دخل إلى الحمام حاملاً الترينج سوت وغياراً داخليّاً، وما إن أغلق الباب حتّى سمع طرْقاً عليه، وسمع صوتاً يقول من الخارج:

- لا تتأخّر. عندي الدورة، وأريد أن أُغيّر الأولويز.

ابتسم، وقرّر أن يفوز بحمام سريع. لا يوجد سخّان هنا، لكنه يمكن أن يتحمّل برودة الماء في شهر مارس. لا بدّ أن يتعايش مع الأمر. لن يترك الفرصة لينهزم. لكنه فكّر على نحو مباغت، لماذا حقّاً بدأ يشعر بالميل إلى النساء؟ هل هي أعراض الرجولة، أم هي عودة ستُنهي عليه؟ نفّس رأسه من الماء والصابون، واستمرّ يستحمّ.

لم يُطل، وخرج إليهم نظيفاً، تهلّل وجهه من الاستحمام، وبدا شكلة بالترينج سوت جميلاً، فهتفنَ جميعاً “البت بيضا بيضا. البنت بيضا وانا أعمل إيه”. ابتسم. دخلت الحمام مسرعة مَن طَرَقَتْهُ عليه، وراح ينظر إليهنّ جميعاً. قالت واحدة من البنات الصغيرات الثلاث السابقات، والتي كانت قد اقتربت منه بالليل أوّل أمس:

- الأفضل لنا ولكَ أن ننسى إنك حمزة. أنت شخص جميل، لن تعتدي علينا، ولن تتحرّش بنا.

ثمّ نظرتُ إلى بقية النساء، وقالتُ:

- بصراحة، أنا سأعترف لكُنّ. لقد تحرّشتُ به أوّل أمس وأنتنّ نيام، لكنه رفض أن يتجاوب معي، وكاد يبكي. نحنُ صحيح مُتّهمات في قضايا تخلُّ بالشرف، لكنّ، الأفضل أن نكون شريفات معه.

قالتُ واحدة من الأربع الجديدات:

- أنا في حلم ولا في علم، يا ربّي.

وجد نفسه يريد أن يتكلّم، لكن واحدة منهنّ تقدّمت منه بمشط في يدها، وراحتُ تصفّف له شَعْرَه، وتقول:

- شَعْرَك حلو. أنا كنت أعمل في كوافير. سأصفّف لكَ أحلى تسريحة. ناولنني الكولونيا والكريم، يا بنات.

كانتُ واحدة منهنّ معها قليل من الكولونيا والكريم، وترك نفسه لها تصفّف شَعْرَه، وهو ينظر إليهنّ مبتسماً، حتّى إذا انتهت قالت له واحدة:

- يا اختي على جمالك. سعاد حسني وحياة النبي.

ضحكن. استسلم هو وبدأ يسمع الأربع نساء الجديدات يحكين حكايتهن. واحدة
منهن كانت مهمتها أن تركب التاكسي، وتطلب منه أن يذهب بها إلى التجمع
الخامس. آخره بعد مسجد المشير، وقبل أن تنزل، تقترب من السائق الذي
تحدث معه طوال الطريق أحاديث جميلة. تقترب ضاحكة قائلة الوداع على
طريقة الأفلام القديمة، وتقبله أكثر من قبله. تكون بيدها أنبوبة بها مخدر، تبخها
في وجهه مع القبلية الأخيرة، وتنزل مسرعة. ينزل ليطاردها جرياً، لكن المخدر
من القوة، بحيث يبدأ مفعوله في الحال، فيسقط على الأرض فاقداً السيطرة
على نفسه. تأخذ التاكسي، وتقوده هاربة به إلى محور المشير، حيث بالليل
تقريباً لا أحد، وتترك قيادة التاكسي إلى فرد من العصابة التي تنتظرها.

سألتها واحدة:

- وكانوا يوافقون أن تُقبليهم؟

- كلهم وحياتك. رجال معقنين. وبينهم أيضاً مَنْ كان يعجبه حديثي، ويحكي لي
عن زوجته، وكيف أن الحياة معها صعبة، ويريد أن يُطلقها، ويمنعه أن لديه ولدَيْن
منها. يستجدي عطفِي، وأنا أعرف أنه كذاب. وبينهم مَنْ كان يعرض عليّ
الذهاب معه إلى شقته، فأضحك وأقول له تكفي القبل اليوم، وأطلب رقم
تليفونه، أسجله على تليفوني، ويصدّقونني، ويتركونني أقبلهم القبلية الأخيرة.

ونظرتُ إلى واحدة من الجديدات الأربع أيضاً، وقالت:

- ليس مثلكِ بلهاء، تخطفني الأطفال للشحاذة بهم.

كان ينظر إليها مذهولاً، فقالت:

- أنا للكبار فقط! كل تاكسي أخطفه، أكون أخذت رَقْم موبايل صاحبه بحجّة أنني سأطلبه في أيّ وقت، وأترك الموبايل معه. أضعه له في جيبه وهو على الأرض. أكتفي بالتاكسي. بعد ذلك تتّصل به العصابة، وتطلب إعادة التاكسي، لكنّ، بعد الدفع. كنّا نطلب عادة من عشرين إلى ثلاثين ألف جنيه، لكنّ، بعد ما يسمّونه تعويم الجنيه، أصبحنا نطلب خمسين. طبعاً وإلّا نغرق!

ضحك. ضحك بصوت عالٍ لا يُصدّق. نظرتُ إليه واحدة في دهشة، وقالتُ:

- إنتِ فرحانة، يا حلوة؟

راح يبتسم، ثمّ قال:

- أنا لو كاتب روايات، لن أجد أفضل من قصصكنّ. تعودتُ عليكنّ. ليت كلاً منكنّ تحكي لي. مَنْ يعرف ربّما أكتب عنكنّ يوماً على الفيسبوك، لو خرجتُ بخير.

قالتُ واحدة من الجديّدات، تبدو جميلة قوية الجسد:

- تكفي حكايتي التي سأحكيها، لأننا نريد أن نُغَيّي - ثمّ نظرتُ إلى السيّدات والبنات وقالتُ - أيضاً أريد أن تنهضنَ بعد الحكاية لأجل خاطر ربّنا، وكل واحدة تاخذ حمّام حلو. رائحتكنّ معفّنة، والله.

ضحكنّ، وبدأتُ تحكي حكايتها بسرعة، فقالتُ:

- أنا متّهمة بقضية خطف وابتزاز وتعذيب لرجل.

نظرنَ إليها في دهشة، وكانتُ دهشته هو أكبر، لكنها استطردتُ:

- أنا صاحبة محلّ كوافير مشهور هنا. أمامي محلّ قِطَع غيار سيّارات، صاحبه

ضخم الجسم جميل دائم الحديث معي. عرف أنني مطلّقة، وليس عندي أطفال، فأغراني بالزواج. أمضيتُ معه شهراً نمارس الجنس في شقّة عنده في مصر الجديدة، وفي كل مرّة يؤجّل الزواج. آخر مرّة شتمني. قال لي "يا شرموطة اللي زيّك للسريير بس" سكتُ وخرجتُ باكية من الشقّة، وبالليل وأنا نائمة شفت في المنام إنه خطفني في جبل، وكَتَّفني، وصار يفعل بي ما يشاء. نهضتُ مذعورة. ولد ممّن يشتغلون عندي حكيثُ له ما جرى، فقال لي "اخطفيه انتِ" سألتُهُ "كيف؟" قال لي إنه يعرف مَنْ يساعدي على ذلك. أحضر لي أربعة رجال صيَّع على أصوله، خطفوه من قدام بيته وهو راجع بعد منتصف الليل. أخذتُهُ في شقّتي هنا وهو مُخدّر. خدّروه بعد أن حملوه إلى السيّارة. فاق من المخدر، فوجد نفسه عرياناً، ومربوطاً بالحبال في مسامير، دقّوها في الحائط، وعلى فمه كمّامة حتّى لا يتكلّم أو يصرخ. أحضروا لي كرباجاً، وتركوني. لثلاثة أيّام أضرب فيه، ولا صوت يخرج بسبب الكمّامة. لم أقدم إليه نقطة ماء حتّى كاد يموت. وافق يكتب لي إيصالات أمانة باتتين مليون جنيه. وافق على الجواز. قلتُ له بعد الجواز، سأعيد إليه إيصالات الأمانة. ذهب معي إلى المأذون صاعراً، ووقع على عقد الزواج. في طريق العودة، قلتُ له الإيصالات ستحصل عليها بعد أن نعيش معاً في سلام. طبعاً ابن الوسخة بلّغ فيّ أنني خطفتُهُ، وعملتُ فيه كدا. أنا اعترفت وقلت طيّب، أعمل إيه، واحد وسخ نام معايا، ووعدني بالزواج، وخذلني؟!

ضحكنَ كلهنّ بينما كان هو في ذهول يزداد، وقالت واحدة:

- والله واضح إنك انتِ الرجل الذي معنا، وليس الغلبان حمزة افندي؟

وانطلقن يضحكنَ، وضحك معهنّ.

ترك إحسان الصورتين في مكتب تصوير بشارع القصر العيني، يعرف صاحبه الذي يتعاون مع والدته عادة في عمل ملصقات الدعاية للمعارض التي تقيمها لبعض الفنانين. سيجعل منهما صورة واحدة، تجمع وجهي "لمياء" و"حمزة" يستطيع مَنْ يراها من أوّل نظرة أن يدرك ملامح الأنوثة في صورة، والرجولة في الأخرى. سيُصوّر منها ألفي نسخة. يحتاج الفنيُّ في المكتب إلى ثلاث ساعات حتّى يمكن أن يستلمها إحسان منه، لذلك تركها وذهب ليلتقي مع عابدين ومُريد في مقهى الحرّية. جلسا بعيداً وحدهما عن الزحام، واتّفقا أن غداً هو اليوم الفاصل. إذا تمّ الإفراج عن حمزة، سيعتبر ما رسمه أو فعله شيئاً جميلاً للذكرى. إذا لم يتمّ الإفراج عنه، فسيعطيهما غداً نسخة ممّا صوّره، يقومان بطبعها بالعدد الذي يريانه مناسباً لهما في الجامعة. عليهما تصغير الصورة، ليكون ضلعها ثلاثين سنتيمتراً أو حتّى عشرين، وليست كالتى سيتمّ تصويرها له التي ستكون خمسين سنتيمتراً في خمسين حتّى يمكن لهما توزيع الصور على الطُّلاب بالجامعة كمنشورات، إذا لم يتمّ الإفراج عن حمزة بينما سيقوم هو بلصق ما معه على الجدران، لذلك احتاجها أكبر. قالاً إنهما سيُصوّران على الأقلّ ألف نسخة، وعرض عليهما أن يدفع لهما تكلفة ذلك، فقالا "وماذا تكون مساهمتنا إذن؟ يكفي ما تكلفته من تصوير".

كانت دهشة مُريد وعابدين أنهما لم يكن لهما علاقة بالسياسة من قبل على هذا النحو الجادّ، وأن ما يكتبانه على الفيسبوك هو مشاركة لطيفة، أو ليبدو أنهما يفهمان ما يجري حولهما لا أكثر. لقد وضعهما القبض عليهما مرّة بدون سبب، والقبض على حمزة بعد ذلك، في قلب الاهتمام بما يجري في البلاد. إحسان شرد بعيداً، وكادت عيناه تدمعان، ثمّ قال:

- ما يحدث لحمزة سبب كبير طبعاً أن أهتمّ بالسياسة أنا أيضاً، لكن صفقة أمين الشرطة لي هي السبب الأكبر. لن يضيع أثرها إلّا إذا استطعتُ أن أردّها له .. وما دمتُ لن أستطيع، فلأقتله. حتّى لو هاجرتُ من البلاد، لن أنسى.

كانا ينظران إليه في رعب، فقال:

- لا تخافا. لن أفعل هذا إلّا بعد أن تنتهيَ قضية حمزة بوقت طويل، تكونان فيه قد تخرّجتُما من الجامعة، وشغلْتُكما الحياة عني. لن يمسّكما سوء ممّا سأفعله. ستشاركانني الفعل من أجل حمزة فقط، لا من أجلي. ثأري أنا جدير به مهما طال الزمن.

تركاها ومشيا صامتَيْن للحظات بعد أن اتّفقا على اللقاء غداً بعد الظهر لأخذ الصورة التي فيها وجهها لمياء وحمزة، ليقوما هما بتصغيرها وطباعتها وتوزيعها في الجامعة بعد ذلك. قطع مُريد الصمت، وهما يمشيان متسائلاً:

- هل يمكن حقّاً أن يقتل إحسان أمين الشرطة؟

أجاب عابدين:

- أعتقد أنه يقول ذلك في محاولة منه للتماسك نَفْسِيّاً. يوجّل الانهيار حتّى ينسى. هل نسيتَ ما درسناه في علم النّفْس.

- لم أنسَ، لكنّ، أفكّر في الإرهاب، ومن أين يأتي.

عاد إحسان إلى بيته بعد أن تسلّم الألفي نسخة من الصورة. قسّمها إلى قسمَيْن، في كل قسم ألف صورة. قرّر أن يكتب عليها من أسفل ما حدّده من قبل من عبارات الليلة وغداً حتّى ينتهي، وأن يحتفظ بصورة دون تعليق، يعطيها

لمريد وعابدين. عند أذان الفجر كان قد انتهى من الكتابة على نصف الصور، وأحسّ بالتعب. كتب على صفحته على الفيسبوك "اللّهم، أعطني القوّة على الصمود".

لم يكن الطريق إلى النيابة في التّجمّع الخامس سهلاً. أبو حمزة يكاد يغيب عن الدنيا، والأُم صامتة، لا يعرف أحد فيم تُفكّر، لكنها كانت قد استسلمت تماماً للقدَر، وراحتْ تدعو لابنها أن يحصل اليوم على إفراج، وتنتهي المأساة التي لم يكونوا يدركون أنها يمكن أن تحدث يوماً لأيّ إنسان. هناك مظلومون كثيرون حقّاً يتمّ القبض عليهم، لكنهم، في النهاية، معدودون بين البشر رجالاً أو نساء. ابنها وحده هو الذي لا يُعدّ من طائفة الناس، فهو رجل، وعند الدولة امرأة. كان كلاهما يجلس على المقعد الخلفي بينما أبو إحسان الذي تغيب عن عمله يقود سيّارته وإلى جواره المحامي الذي يعطيهم الأمل كل لحظة، فليس مهمّاً أيضاً أن الدكتور مختار صابات خارج مصر، وهو سيطلب من النيابة أن تُرجى قرارها أربعة أيّام أخرى، فالدكتور صابات سيعود بعد غد، والنيابة هذه المرّة ستأخذ بقرار المحكمة، ولن تنتظر استخراج الأوراق الشّخصيّة. هذا إذا لم يستطع أن يحصل على الإفراج عن حمزة اليوم. سيهتمّ بالدرجة الأولى أن تُصدر النيابة أوامرها بسرعة استخراج شهادة الميلاد لحمزة وبطاقة الرّقم القومي حتّى لا يتعطّل سير العدالة. كان كلاهما شاردّاً عنه، كأنه لا يسمعه. لقد فقدوا الأمل في كل شيء، واعتبرا أن سفر الدكتور صابات، رغم أنه يحدث كثيراً لأيّ طبيب له سمعة في الطّب، إشارة إلى أن الأمور ستمشي في طريق الكارثة. عليهم أن يشدّوا من أزر ابنهم ليعيش.

كانت رانيا قد حاولت أن تذهب معهما، لكنهما رفضا أن يأخذاها، فلا معنى في

هذا العمر لها أن تذهب إلى النيابة. فلتذهب إلى مدرستها بشكل عادي جداً،
وتتحمل أسئلة زميلاتهما عما جرى لأخيها، فلا شيء يخفى على أحد الآن منذ
انتشر خبر القبض عليه على الفيسبوك. تتحمل نظرات الأسى في عيون
الكثيرات، وربما نظرات الازمئزاز أيضاً. كان تصميمها على الذهاب معهما كبيراً،
ورفضهما أكبر، فقررت أن لا تذهب إلى المدرسة "كيف سأستمع إلى أي
درس؟! وكيف سأفهم أي درس ومصير أخي سيتقرر اليوم؟ سأبقى هنا".

جلست على صفحتها على الفيسبوك، ودموعها تتسرب منها، وكتبت هذه
الرسالة:

"هل ما نعيشه هو فيلم رعب أم فيلم كوميدي أم مأساة كاملة؟ أنت وحدك، يا
رب - الذي تعرف، فلماذا لا تنير لنا الطريق؟! هل أنت راضٍ عما يحدث؟! إذا كنت
راضياً، فأشفيق علينا، وخذنا عندك".

وعادت تكتب أعلى البوست "رسالة إلى الله في السماء".

عشرات التعليقات جاءتها:

"إنتِ صغيرة، يا ابنتي، على هذا الكلام".

"الحياة حلوة، بس نفهمها".

"صلي واستغفري الله، وادعي على من ظلمك، فالله لا يتخلى عن المظلوم".

وكتب أحدهم:

"زمان كان بعض المساكين يرسلون خطابات إلى الله في السماء. وأبي حكى
لنا مرة كيف كان له صديق يعمل بوسطجي رأى خطاباً من هؤلاء، ففتحه، وكتب

ردّاً على مرسله الذي كان قد كتب عنوانه في الخطاب. كتب له البوسطجي فيه "هو أنا فاضي لك، يا بن العبيطة، دا أنا عندي ملايين طوابير واقفة تنتظر الحساب". حَبِيتُ أضحكك، لكن، أنا متهَيَّألي دي قصّة قرأتها بس مش فاكر لمين. القصّة الوحيدة اللي فاكرها كانت البوسطجي ليحيى حَقِّي، لأنها تحوَّلت لفيلم جميل. زمان كنت باقرأ قصص، وقابلتني قصص كثير عبارة عن رسائل إلى الله، دلوقت بطَّلت القراءة حتّى للصحف، وبذاكر مع أولادي علشان يدخلوا الجامعة ويتخرَّجوا ما يلاقوش شغل، ويقعدوا جنبني، واكتب أنا جوابات لربّنا يساعدهم، ما دام الدولة دي بطَّلت توظّف الشباب. بس حايعت الجواب لربّنا على الإيميل علشان البوسطجية ما تقطعهوش. هل ضحكتي؟ الحمد لله".

لم تضحك. كادت تنفجر في البكاء، لكنها ظلَّت تقرأ التعليقات على البوست:

"قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله".

اكتفتُ بذلك، وأدركتُ أنها متهافنة جدّاً، لأنها لم تتناول إفطارها، فذهبتُ إلى المطبخ، وعادتُ ببعض الخبز القليل والجبن وكأس من الشاي باللبن، وجلستُ في البلكونة تأكل وتشرد في الفضاء. ظهرتُ سحب من بعيد قادمة على مهل سوداء، فلم تهتمّ، وإن فكَّرتُ لحظة لو أظلمت الدنيا، ثمَّ صعدت الشمس، فأضاءتها خالية من البشر والناس. لكن السحب ما إن صارت قريبة منها حتّى هطل مطر شديد مفاجئ، ورأت النوافذ تُفتَح، وتظهر بعض السيِّدات تجمعنَ غسيلهنَّ المنشور بسرعة، ولأن فوقها بلكونة أخرى، لم يكن المطر ليصل إليها، فظلَّت جالسة، ورأته يملأ الشارع ومياهه تجري فيه، ورأت أكثر من شابٍّ وفتاة يأتون من الشوراع الجانبية، أو من الناحية المقابلة للشارع جاريتين، ويدخلون إلى ناحية المركز الثقافيِّ الفرنسي. تسمع طول عمرها أباهما يقول إن المطر خير. تغاءلتُ، لكنها لم تستطع أن تمنع دمعة من عينها. اشتدَّ المطر أكثر،

وأظلمت الدنيا أكثر، ولشدة المطر صار بعضه يدخل إليها من الجانب، فقامت، ودخلت الصالة بعد أن أغلقت نافذة البلكونة، لكنها تذكرت أن هناك غسيلاً لهم بالبلكونة. كيف غفلت عنه؟ سارعت وفتحت النافذة تجمععه بسرعة. كان قد ابتل كثيراً إلى درجة جعلتها تراه غير صالح، فدخلت، وألقت به داخل الغسالة التي تغسل وتجفف حقاً، لكنها تجفف الغسيل من المياه فقط، ويحتاج دائماً إلى الشمس، ليجف تماماً.

ذهب إحسان إلى عمله، وكان يعرف أنه في الساعة الثالثة والنصف سيقابل عابدين ومُريد وربما محسنة كما قالوا له، وسيعطيهم نسخة ممّا طبعه، في كل منها صورتان معاً، ليذهبا بها لتصغيرها، وطبع العدد الذي يريدانه. مرّ عليه الوقت ثقيلًا. في كل لحظة يفتح الفيسبوك، لعلّه يرى خبراً مفرحاً. عيناه دائماً مركّزتان على الموبايل وهو جالس في مكتبه، لعلّ رسالة أو مكالمة تأتيه بالخير من أبيه. الوقت يمرُّ بلا أيّ معلومة تصل إليه، ولا مكالمة حتّى من صديق. لقد سكت العالم حوله إلّا من صوت المطر. كم كان يودُّ أن يمشي وسط الأمطار على كوبري قصر النيل رافعاً ذراعَيْه يغني مثل جين كيلي في فيلم غناء تحت المطر الذي رآه منذ شهر على قناة للأفلام الكلاسيكية. يمكن أن يترك عمله الآن، ويمشي تحت المطر، لكنه لن يُغني، فهو في انتظار مقلق مُضعف لروحه، كما أنه لم ينسَ صفة أمين الشرطة. لعلّ خبراً جميلاً اليوم يُهوّن عليه، ويجعله ينسى ما جرى له، ولو قليلاً. في الساعة الثانية، توقّف المطر، فطلب إذنًا بالانصراف مبكراً نصف ساعة. لم يعد قادراً على الجلوس في مكان واحد. خرج يمشي على كوبري قصر النيل الذي رآه يكاد يكون خالياً من الناس، وأرض الرصيف مبتلة، والسيّارات قليلة، والنيل على الناحيتين يبدو عريضاً طويلاً عن كل وقت، والمباني العالية تبدو بعيدة أيضاً عن كل وقت، والعوّامات البعيدة على الجانبين تبدو في صمتها منسيّة منذ آلاف السنين، والفضاء واسع يبدو غير

مكثرت بأحد. استمرَّ يمشي حتَّى وصل إلى مقهى الحُرِّيَّة، وجلس ينتظر عابدين ومُريد وسونيا. لم يدقَّ هاتفه، ولم يصله خبر من أبيه الذي كان هناك جالساً في كافتيريا بمجمَّع النيابات بالتَّجمُّع الخامس على أحرَّ من الجمر مع أبي حمزة والمحامي، بينما أمُّ حمزة رفضت أن تترك السيَّارة. لن تستطيع الجلوس في الكافتيريا، ولا في أيِّ مكان. لم تُحبَّ أن ترى ابنها مقيداً في الأغلال، وراودها يقين أنها ستراه اليوم مُفرجاً عنه فرحان. الحقيقة أنها كانت تريد أن تفتح الطريق لدموعها أكثر من أيِّ وقت في حياتها، هي التي أخلصتُ لله في عملها حين كانت تعمل، وفي بيتها، وفي تربية أولادها، وفي معاملتها مع الجيران، وفي صبرها على زوجها الذي تعرف أنه ليس مستقيماً كما يدَّعي، ولقد تركتُ أمره إلى الله. كان في نفسها شيء من العتاب لله، لكن، مَنْ يستطيع..؟! الله لا يتقصَّد أحداً، وكل ما يحدث من ظلم هو من أخطاء الإنسان الجاهل الأحمق، الذي تتلبَّسه حالة الألوهية، فلا يعترف بأخطائه في ظلم الآخرين، وسيأكله الدود كما يأكل غيره من المظلومين. بل لعلَّ الدود يجد طعمه أفضل من طعام المظلومين، فلا يُبقي فيه عضماً، ويخرج الدود ليمشي بين المقابر، فيبول عليه الهاربون بينها في الظلام!

ما كاد عابدين ومُريد يدخلان المقهى على إحسان حتَّى دقَّ الهاتف، فقال لهما وهو يصافحهما غير منتبه ليدَّيهما:

- اجلسا. تليفون من بابا. يا ربِّ، خير. بابا مع المحامي ووالد حمزة في النيابة.

جلسا ينظران إليه بينما ظلَّ واقفاً بعد أن وضع الهاتف قريباً من أذنه. كانت الضَّجَّة كبيرة في المقهى رغم أنه اختار مكاناً بعيداً، فخرج مسرعاً من الباب،

وظلاً ينتظران في قلق.

دقائق، وعاد وعلى وجهه شرود الغاضب والحزين معاً. جلس يمْطُ ويعضُّ شَفَتَيْهِ، يكاد يأكلهما بأسنانه. قال مرید:

- محسنة لم تأتِ معنا، لكنها مستعدة أن تشاركنا غداً في توزيع الصور.

لكن إحسان بدا شاردًا، فسأله عابدين:

- خيراً.

- أبي يقول إن قرار النيابة سيتأخر إلى الساعة الخامسة. لكنّ !!..

سأله مُريد:

- ماذا؟

- لماذا يتّصل بي الآن، إذن؟

قال عابدين:

- ربّما يريدك حين يصدر القرار أن تكون في البيت، حتّى إذا جاء القرار على غير ما نتمنّى لا تفعل أيّ شيء يصيبك بأذى.

سكت إحسان وهو يعضُّ على نواجذه، ثمّ قال:

- الأذى حدث لي. ولن أنسى.

وقف الجرسون جوارهم، يسألهم طلباتهم، فطلبوا قهوة، وفتح عابدين

الفيسبوك في هاتفه، وهو يقول:

- ليست قضية حمزة وحده في نيابة التّجمّع الخامس. هناك قضايا كثيرة. لو صدرت أحكام سُنشَر في أحد المواقع الإلكترونية بسرعة، وستنتقل إلى الفيسبوك.

فعل مثله مُريد، وراح يتطلّع إلى الفيسبوك، وفعل مثله إحسان في صمت. فجأة أبعد عابدين أصبعه عن الهاتف، وضرب إحسان المنضدة بكفّه ضربة قوية، سمعها البعيدون عنهم، فنظروا إليه في دهشة بينما أحسّ هو بألم في كفّه من قوّة الضربة، لكنه تغافل عنه بقوّة احتمال كبيرة، وقال:

- خمسة عشر يوماً. لماذا؟

حطّ الصمت عليهم، وأغلق عابدين ومُريد هاتفيهما. أكثر من عشرين شخصاً متّهمون في قضايا سياسية، كلها بّتهم الانتماء إلى جماعة إرهابية والترويج للإشاعات ونشر أخبار كاذبة.

قال مُريد مبتسماً:

- اطمئنّ انتَ مش لوحديك!

قال عابدين مندهشاً:

- يخرب بيتك. هذا شعار الإخوان المسلمين، أطلقوه من تركيا.

قال مُريد:

- أعرف. باتريق. عايز أضحك بس ومش قادر. باتكلّم عن المساجين.

ابتسم عابدين، وكتّم الضحك، وكاد إحسان يبتسم بمرارة، فقال مُريد:

- بصراحة، من غير ضحك، نحنُ ممكن نموت كمدّاً. الضحك هو الباقي.

ثمَّ خاطب إحسان:

- اضحك، انتَ مش لوحدة.

لكن إحسان لم يضحك. قدّم لهما مظروفاً كبيراً، قال إن به نسخة من الصور بلا تعليق عليها. نسخة بها صورة للمياء ولحمزة معاً، وأعطاهما التعليقين مكتوبين على ورقة بيضاء، وطلب منهما كتابتهما على الصور بعد أن يقوما بتصغيرها وتصويرها لتوزيعها على الطُّلاب كمنشورات. ويمكن أن يكتبوا أيَّ تعليق آخر إذا أرادوا.

استمرُّوا يحتسون القهوة بهدوء، وإحسان ازداد شروده، ثمَّ قال كأنه يحدث نفسه:

- مع مَنْ سيحبسونه هذه الخمسة عشر يوماً أيضاً؟

قال عابدين:

- أنا لايشغلني مع مَنْ يتمُّ حبسه. كلّهُ زفت. يشغلني ضرورة الإفراج عنه.

عاد إحسان إلى بيته مقرّراً أن ينام قليلاً، فسوف يسهر الليلة في الشوارع بعد أن ينتصف الليل، ويخفّ الزحام. هذا المطر الذي هطل اليوم سيجعل سهر الناس في وسط البلد قليلاً أو منعماً. ستلوذ الناس ببيوتها خاصّة وأنه قد بدأت تسري في الفضاء برودة غير متوقّعة. بينما أخذ عابدين ومُريد طريقهما إلى مكتب تصوير بشارع عبد الخالق ثروت، ليطبعا ما يريدان من نُسخ الصورة التي معهما بعد تصغيرها.

كان قد تقرّر نقل حمزة إلى سجن القناطر للنساء مباشرة من سراي النيابة. لم تكن هناك فرصة أن يعود إلى قسم البوليس، ليجمع ثيابه. كان في نيّته أن يستغني عنها لمنْ هناك متفائلاً بالإفراج عنه. فكّر المحامي أن يتركهم ويذهب لإحضارها، لكن أبا حمزة قال له أن لا يذهب. سيُدبّران أمر الملابس بعد عودتهم إلى البيت. بدّت أمُّ حمزة كأنها لا تسمع ولا تدري. قاد أبو إحسان السيّارة حزينا، يشعر بهبوط في دورته الدّمويّة، فأخرج حبة دواء وضعها تحت لسانه يمتصّها، وقال:

- الله المنجّي. ليس لنا إلّا الله.

صار المحامي صامتا يفكّر. ما يحدث لحمزة غريب. هناك أمر يُدبّر ضدّ حمزة لا يفهمه. ليس هناك أيُّ شيء ضده. كلام في كلام على صفحته. كما إنه غير مقتنع بتقاعس الموظّف عن استخراج شهادة الميلاد. غير مقتنع بما قال. هذا "فيلم" يتمّ تمثيله عليهم. لكن، ماذا فعل حمزة ليتمّ تدبير هذا كله ضده. لم يرفع سلاحاً، ولم يفجّر قنبلة؟!

عبر المحامي عن حزنه بخسارة القضية، فلقد كان واثقاً جداً من نجاحه فيها،
لأنه أصلاً لا توجد قضية، فقال أبو حمزة:

- وهل هناك قضية للشَّابِّ الذي وقف في ميدان التحرير وحده معه لافتة ورقية صغيرة مكتوب عليها: عيش حُرِّيَّةِ عدالة اجتماعية، وقُبض عليه، ولم يخرج حتَّى الآن؟! وهل هناك قضية للبنات التي وقفت في محطة مترو التحرير ترفع لافتة تستنكر زيادة سعر التذكرة ومحبوسة حتَّى الآن؟! اللصوص فقط ينجون.

قال ذلك وهزَّ رأسه أسفاً من نفسه هو الذي كان ضدَّ هذه التَّصرُّفات للشباب كلها، ويراهم حمقاء، وتصبُّ في مصلحة الإخوان المسلمين والإرهاب!

قال أبو إحسان:

- أرجوك، لا تتحدَّث في الأمر هكذا. فليكن تركيزك كله مع ابنك، وأنا لن أتخلَّى عنك، ولو يشاء عبده بيه - وكان يقصد المحامي - أضفنا إليه أكبر محامي في البلد.

قال المحامي:

- ليس لديَّ مانع، يهتمُّ هو بالجانب السِّياسيِّ الذي لا معنى له في القضية، وأتفرَّغ أنا لاستخراج الأوراق. لقد وافقت النيابة على مخاطبة الجهات المَعنِيَّة لاستخراج شهادة الميلاد وبطاقة الرِّقْم القومي، وهذه علامة جيِّدة. سجنه مع النساء مسألة روتينية لعدم وجود أوراق تُثبت أنه رجل. حكم المحكمة لا بدَّ أن يُترجم إلى أوراق عند المسؤولين البيروقراطيِّين. وسأقوم بالطعن على قرار النيابة أمام المحكمة المستعجلة، فيُنظر في القرار بعد أربعة أو خمسة أيَّام على الأكثر، أكون انتهيتُ فيها من الأوراق.

تركهم المحامي في ميدان العباسية، واستمرّ أبو إحسان يقود السيّارة على طريق صلاح سالم للوصول إلى شارع القصر العيني، ومنه إلى بيتيهما. في المسافة الباقية، لم يكن هناك إلّا الصمت.

في هذا الوقت، كان عابدين ومُريد قد وصلا إلى محلّ التصوير، وقدّما الصورة إلى رجل يجلس في مقدّمة المحلّ خلف كاونتر طويل طالبن ألف نسخة بعد التصغير. بعد مدخل المحلّ هناك بابٌ يسدّ الطريقة المؤدّية إلى غرفة بالداخل، هي التي يتمُّ بها العمل.

وقف الرجل الذي كان في حوالي الأربعين يرتدي ثياباً أنيقة ينظر في الصورة، فأطال النظر. سأله عابدين:

- هل فيها عيب؟

- لا. بالعكس. ستكون النسخ بعد التصغير جميلة جدّاً. كنتُ أتأكّد فنيّاً من ذلك فقط.

قال مُريد:

- سنتركك ساعة أو أكثر، تكون انتهيت من تصوير الكميّة المطلوبة.

لكن الرجل قال:

- لا أحتاج إلى ساعة. نصف ساعة تنتظران فيها، وسأطلب لكما شايّاً أو قهوة لتشرباها. انتظرا هنا.

وأشار إلى مقعدَيْن أمام الكاونتر.

دخل بالصورة إلى الغرفة الدّاخلية، وتأخّر في العودة ممّا جعلهما ينظران إلى بعضهما في دهشة وارتياب.

همس عابدين:

- ربّما هو الذي يقوم بالعمل.

قال مُريد:

- أظنُّ أنه حين أطال النظر إلى الصورة تذكّر صاحبها. لا بدّ رآه من قبل على الفيس بوك، ويعرف المسألة.

تأمّله عابدين في دهشة وارتباك، وظلّا يتهامسان:

- هل تظنُّ؟

- أخشى أن يكون استراب فينا. كان علينا أن نسأل إحسان أين طبع نُسخه أو كنّا طبعناها غداً في مكاتب التصوير القريبة من الجامعة، ففيها أصدقاء لنا.

قال عابدين غير مُصدّق:

- إلى هذه الدرجة؟ لا أظنُّ. لو سألنا سنقول له إنّنا نحبُّ زميلنا، ونريد أن نساعدّه. ليس كل الناس أشراراً. العكس ناس كثير نفسها تعيّر عن رأيها، لكنّ، خائفة.

وهنا وقف بالباب أمين شرطة، نظرا إليه، فسألهما:

- أنتما أصحاب الصور.

ارتبكا، لكن عابدين قال بسرعة:

- لا. نحنُ دخلنا الآن فقط. الجميع في الغرفة.

وكان الباب متّسعاً، ليدفعَ عابدين أمين الشرطة بيديّه، ويخرج هارباً، فجرى وراءه الأمين يصرخ "أمسكوه حرامي" فكانت فرصة لمُريد أن يهرب بدوره بينما خرج صاحب المحلّ مسرعاً يهتف إلى أمين الشرطة بعد أن اختفى عابدين ومُريد من الطريق، ولا يعرف أحد كيف:

- لماذا سألتَهما؟ ولماذا جئتَ وحدك؟

صرخ فيه أمين الشرطة:

- وأنتَ أين كنتَ؟ لماذا لم تنتظرُ معهما؟

- كنتُ في دورة المياه بafك نفسي. أنتَ وصلتَ بسرعة جدّاً.

صار كلّ من مريد وعابدين في تاكسي بعد دقائق. عابدين استطاع الوصول من ممّرٍ غير واضح إلى شارع عدلي، ومُريد استطاع الوصول إلى ميدان مصطفى كامل. راحا يتحدّثان ضاحكَيْن في الهاتف:

عابدين: أظنُّ هكذا أخذنا حقَّ إحسان.

مُريد: الحمد لله أن محسنة لم تأتِ معنا. كانت عملتُها على روحها في الشارع.

وكان أمين الشرطة يسأل صاحب مكتب التصوير:

- احتفظُ بصورتَهما في الكاميرات.

سكت صاحب المكتب لحظة، ثم قال:

- الكاميرات معطّلة.

أغلقت أم حمزة غرفته على ما فيها، وقالت لرانيا أن لا تدخلها أو تأخذ منها أو تضع فيها أيّ شيء. فلتظّل كما تركها حتّى يعود إليها، فيجدها على حالها. لاذ أبوه بالصمت، وتمسّك بقوة داخلية، إذ لا بدّ أن يذهب في أسرع وقت لزيارة حمزة، وتقديم طعام له، وملابس داخلية، وصابون وغيره، ما قد يحتاجه المساجين، ويُسمَح به. سيعرف كل شيء من المحامي الآخر الذي حدّثه أبو إحسان أنه سيعمل معه من الغد. انتهى تقريباً الكلام بين الجميع في المنزل.

وجد إحسان أنه من الأفضل أن ينتظر حتّى ينتصف الليل، ويترك المنزل. لقد عرف من رسائل عابدين ومُريد له في الفيسبوك ما جرى لهما. أخبراه أن الصورة الآن في المحلّ، فلينتبه لنفسه. قال لهما إنه سيقوم هو بطبع الصور لهما، وإنه أخطأ، إذ لم يفعل ذلك منذُ البداية، وسيعطيها لهما في الغد. الأفضل أن لا يقوما بتوزيع شيء في الجامعة. يوزّعونها غداً بالليل، كما سيفعل هو الليلة في الأحياء، ومن ثمّ لن يقوم بتصغير الصور التي سيعطيها لهما. شرح عابدين ومُريد على الفيسبوك ما جرى لحمزة، ورفعوا شعار "أطلقوا سراح حمزة أو احبسوه مع الرجال حتّى يحصل على الإفراج". تهاتفوا مع بعضهما ومع إحسان، واتّفقوا أن لا ينشروا شيئاً يخصّ محاولة القبض عليهما. لا ينسبونّها حتّى إلى شخص آخر حتّى لا تذهب الشكوك إليهما. واتّفق عابدين ومُريد أن لا يذهبا إلى الكليّة في الغد حتّى لا يندفعا في عمل احتجاج من أجل حمزة، فيتمّ القبض عليهما. فكرة لصق الصور على جدران الشوارع ستُربك الدولة أكثر. سيكتفيان اليوم بالحديث

على الفيسبوك. بل ويكتفیان بطلب التضامن مع حمزة. الترانسجيندر الذي عَبَرَ
الأزمة، والدولة تُصمِّم أن تعيدَهُ إليها. صارت جملة "أنا متضامن مع حمزة" شعاراً
طول الليل. راح العشرات يتحدّثون عن مشاهير الترانسجيندر في العالم، وكيف
يضيئون بلادهم، لكن بلدنا تحبُّ الظلام.

وتوالت الأسماء:

- كاندي دارلينج

Candy Darling

فنانة بوب ومخرجة أفلام.

- كيلي فان ديرفير

Kelly Van Derveer

مغنيّة ألمانية وممثّلة.

- كانديس كاين

Kandis Cayne

ممثّلة قامتُ بدور المتحوّلة في التلفزيون لأوّل مرّة.

- ألكسيس أركويت

Alexis Arquette

موسيقارة وممثلة.

- ليزلي فينبرج

Leslie Feinberg

محامٍ ومؤلف فاز بجائزة لمبادا الأدبية عام ١٩٩٤ عن كتابه Stone Buch

Blues

- ريلي كارتر ميلينجتون

Riley Carter Millington

ممثّل.

- أندرياس كرييجر

Andereas Krieger

رياضي ألماني.

وحدث عن المتحوّلين في التاريخ مثل جان دارك الفارسة الفرنسية التي كانت

ترتدي ملابس الرجال. وفاليريا آركل سميث Valerie Arkell

Smith، التي كانت عضوة بالحزب الفاشي الإيطالي في العشرينيات

من القرن الماضي، وتحوّلت إلى فيكتور باركر، وحاولت أن تتزوّج وتعيش كرجل،

لكنه مات فقيراً بعد سجنه بتهمة سرقة.

والأقدم منهم جميعاً إيلاجابالوس Elagabalus، إمبراطور روما بين عامي

218-222 ميلادية، والذي اغتيل بمؤامرة من أمّه جوليا، وكان حائراً في جنسه، فتزوَّج خمس مرّات من رجال ونساء، وكان يظهر في قاعة الحكم بزيّ النساء، واسمه الأصلي ماركوس أوريليوس أنطونيوس.

صارت المسألة مثل مباراة على الفيسبوك. راح كل واحد يذكر مَنْ يعرفه من الترانسجيندر، وطالت القائمة، فشملت بعض السّياسيّين المعاصرين مثل جورجينا باير Georgina Beyer، أوّل برلمانية متحوّلة في العالم في البرلمان النيوزيلاندي عام 1984 وقد تحوّلت بعملية جراحية. ومثل آيا كاميكawa Aya Kamikawa، السّياسيّة اليابانية التي تعمل للاعتراف بالمتحوّلين، وتمّ انتخ البرلمان، وهي في سنّ الخامسة والثلاثين عام 2003. ومثل السّياسيّة الكندية جامي لي هاميلتون Jamie Lee Hamilton. ومثل كيم كوكو إيواموتو Kim Coco Iwamoto، مفتّشة حقوق إنسان من هاواي. وتامار أدريان Tamar Adrian، أوّل متحوّلة منتخبة في برلمان فنزويلا. وكذلك لويزا ريفيللا يورشيا Luisa Revilla Urcia، المنتخبة في برلمان الأرجنتين. وراحوا يقارنون بين المتحوّلين هنا وهناك، واختصر أحدهم الحوار قائلاً:

“ناس تدخل البرلمان، وناس مش عارفة تدخل بين الرّجال ولا النسوان!!”

أجمع الكثيرون أن ما يحدث مع حمزة هو بسبب تعليقاته على حادث القطار المرعب. لكن حمزة لم يكن سبب الكارثة. هل ستنتهي كوارث القطارات بالقبض على حمزة الذي انتقد الإهمال في السيّكة الحديد؟ وامتلأت صفحات الفيسبوك بصور المتحوّلين في العالم.

صار حمزة مثل عجينة طيّعة في يد الجنود، وهم يدفعون به مع هبوط الظلام إلى سجن القناطر للنساء. تمّ تجريده من بطاقة هويّته، وأخذ أحد الجنود إلى العنبر الذي سيدخل فيه. كان الطريق من الباب الخارجي طويلاً، وأضواء ضعيفة، ورأى وهو يدخل امرأة في ملابس السجن البيضاء متهاففة ومسنودة بامرأتين في ملابس الجنود، وتألّم وهما يمشيان بها على مهل. لم يدرك أنهما يأخذانها إلى مستشفى السجن. بعد ذلك كان كل شيء خالياً. صعد من سلّم يكاد يكون مظلماً ومعه امرأة سميّة في ملابس الجنود. بعد السلّم مشى به في طريقة طويلة، على جانبها أبواب حديدية مغلقة، لا يبدو شيء خلفها، ومصباح وحيد يضيئها. الساعة كانت قد قاربت على الثامنة مساءً، ولا أحد آخر يمكن أن يراه أو يقابله. أبواب العنابر تُغلق طول النهار، ولا تُفتح إلاّ لخروج سجينات للزيارة أو لدخول الطعام إليهنّ أو لوقت التّريض صباحاً لمُدّة نصف ساعة. كان صامتاً، كأنه يشاهد فيلم سينما. بينما المرأة تفتح الباب، شاهد قطعة تمشي جوار أحد الجدران بين العنابر في الاتجاه إليه. لا يعرف لماذا تمنّى أن تنتظر الحارسة حتّى تصل إليه القطّة. فكّر لمَ لا تكون هذه القطّة سجينّة هاربة؟! القطُّ روح منسوخة من البشر، والبشر أيضاً يمكن أن يكونوا أرواحاً منسوخة من القطط. سمع كثيراً مَنْ يمنع من الاعتداء على القطط في طفولته سواء من أمّه أو أبوه أو غيرهما، وأحبّ القطط، لكنه لم يقتنها. كان من ألطف الأوقات حين يذهب مع إحسان والأصدقاء إلى منطقة البورصة، يقضون وقتهم في أحد المقاهي، ويتناولون البيتزا في مطعم راكوتا. قطط كثيرة كانت تقترب منهم، وكان هو أكثر مَنْ يلقي إليها طعاماً. بل حين يراها غير مقبلة على عجين البيتزا، كان يرفع من فوقه قطع التونة أو الدجاج أو السوسيس، ويُلقى إليها بها. كان تقريباً يقدّم لها ربع قطعة البيتزا الخاصّة به، ويتأمّل كثيراً نظراتها إليه في صمت، وإذا أصدرت صوتاً، فيكون أوّل مرّة عند قدومها. “تَوّ” المرّة واحدة، وبصوت خفيض، كأنه نداء قادم من بعيد. لقد قرأ في كُتب التاريخ المدرسي أنها - القطّة - كانت إحدى

الآلهة في مصر القديمة. واكتشف بعد أن تكرّرت زيارته للمكان أنها تقريباً نفس القطط التي تقترب منه رغم كثرتها في المكان. نظراتها إليه - أو إليها وقتها - لم تتغيّر. هل حمل هذا القطُّ الماشي على مهل روح إحدى السجينات، وسيهرب بها؟ هل يمكن أن تحمل قطعة روحه، وينجو؟ لقد ازداد القلق فجأة، والحارسة تدير المفتاح الطويل في الباب، وما إن فتحتُه حتّى دفعته بقوة إلى الداخل، فكاد يقع، لولا أنه تماسك. سمعها تقول "غداً سنُحضر لكَ مرتبة وغطاء" وأغلقت الحارسة الباب دون كلمة مع أحد، وسمع صوت دوران المفتاح في الباب أكثر من مرّة وهي تُغلقه. لم يكن في العنبر أسيرة كما يرى في الأفلام أو المسلسلات. لا دور واحد، ولا دورين. نساء يتمدّدن على الأرض، ونساء يجلسن في دائرة يتحدّثن ويضحكن ويلعبن الكوتشينة. نساء تُدخّن سجائر، ونساء تأكلن من أواني أمامها. وضوء من مصباح واحد متدلّي من السقف، جعل ضوء العنبر مثل هبوط المساء. شمّ رائحة أسماك ورائحة لحوم ورائحة طبخ ورائحة رنجة ورائحة سجائر. رأى بين المراتب المفروشة على الأرض أوانٍ متفرّقة وكؤوساً من البلاستيك وملاعق. أليس في السجن مطعم للسجينات؟ لم يعرف أن هذا الأكل قادم من الزيارات. كنّ عشرين امرأة، وكان قليل منهنّ نائمات.

- تعالي. لماذا تقفين عند الباب؟ أوّل مرّة؟

حدّثته امرأة منهنّ في حوالي الخمسين من عمرها. تقدّم من الدائرة التي تتوسّطها المرأة، ويلعب فيها أربع نساء الورق.

- اجلسي. لماذا تقفين؟

أفسحن له مكاناً بينهما. كانت مع أكثر من واحدة من الأصغر سنّاً مجلّة أو كتاب

أو صحيفة. مجلّة نصف الدنيا، ورواية لنجيب محفوظ، وصحيفة الأخبار. ما كاد
يجلس حتّى تأمّلتُهُ واحدة، وسألتهُ:

- ما اسمك، يا حلوة؟

ابتسم ولم يردّ. وارتفعتُ ضحكات من مجموعة أخرى، تلعب الورق أيضاً، بدا أنها
لم تسمع ردّه. سألتُهُ أخرى:

- واخدة حكم؟ ولا حبس احتياطي؟

- حبس احتياطي.

- ماذا فعلتِ؟

هزّ كتفَيْه، وفتح عَيْنَيْه كَمَنْ لا يعرف.

- لماذا لا يرتفع صوتك؟ أنتِ خوّافة إلى هذا الحدّ؟ أنتِ الآن في أمان.

ابتسم، فقالت المرأة التي سألتُهُ عن اسمه:

- لم تقولي لي اسمك. طيّب. ما معنى هذا الشنب النابت؟ وما معنى هذا
الشّعْر النابت في ذقنك؟ ألا تقومين بنتفه؟ وما هذه التسريحة لشعرك؟ كل
هذا شوّهك وجعلك مثل الرجال. حتّى ملابسك رجالي. لماذا؟

وقالتُ أخرى:

- أشعر أنك متّهمة في قضية دعارة. لا تقلقي. لو دعارة، يوجد هنا - وأشارتُ
إلى اثنتين - لو سرقة كثير - وأشارتُ لعدد من اليقظات والنائمات. خطف أيضاً.

كله موجود والحمد لله. عنبر القتل جوارنا. لا تخجلي بيننا، نحن طبيّبات!

كانت واحدة منهنّ في حوالي الثلاثين. ربّما كانت أجملهنّ، فهو لم يتفحص وجوه الجميع، تنفرد بالنظر في هاتف نقّال ممّا أذهله، فلقد مُنع عنه الهاتف الجديد الذي اشتراه له أبوه في القسم بعد مصادرة هاتفه الأوّل، وعاد أبوه بالهاتف الجديد حتّى لا يتمّ فقدانه، وطبعاً لم يأت به إلى هنا، فالهواتف ممنوعة. هزّ رأسه قائلاً لنفسه كما ظهر الهاتف مع واحدة في القسم يمكن أن يظهر هنا. لكن الفتاة، وعرف فيما بعد أن اسمها "سمرا" هتفت قائلة:

- انتِ حمزة اللي الفيسبوك مقلوب علشانه كل يوم.

وخاطبت الآخرين:

- يا جماعة، هذه ليست بنتاً. هي الولد الذي يسمّونه ترانس مش عارفة إيه إللي بقالي كم يوم أحكي لكم عنه.

سكتن يتأمّلنّه، ووضع يده على فمه خافضاً عينيه إلى الأرض، لا يتكلّم.

كانت صدمة لهنّ، ليس لأنه مظلوم، فهنّ لا يعرفنّ، ولا يهتممن بهذا، لكنّ، بكونه رجلاً، ويأتون به ليُسجنَ بينهنّ. سكتن لحظات طالت جدّاً على حمزة حتّى قال:

- ليس عندي كلام أقوله إلّا أن تنسين كل شيء، وتعتبرنني بنتاً الأربعة أيّام القادمة. المحامي وعدني برفع قضية مستعجلة للاستئناف على قرار النيابة، وأملي كبير أن يتمّ الإفراج عنيّ، أو يتمّ نقلي إلى عنبر الرجال. أعدكم أنني سأنسى كوني رجلاً. لن أتحرك من مكاني، ولن أتكلم.

لكنّ واحدة منهنّ جرت إلى الباب، وراحت تدقّ عليه بقوة من الداخل، وتهتف:

- يا حكومة وسخة، جايين لنا راجل، ينحبس مع النسوان. اسمعوا، يا مساجين. حدفوا علينا ولد دلوقت، وقالوا دي بنت. هم ناويين يعملوا فينا إيه.

وظلَّتْ تدقُّ على الباب من الداخل. ارتفعتْ دَقَّاتُ أخرى كثيرة من الأبواب الحديدية القريبة والبعيدة ذات الشراعات الضَّيِّقة فتحاتها، ثمَّ انطلقت الزغاريد من بعيد، ووصلتْ إليهنَّ. زاد ارتبাকে إلى درجة كبيرة، ففقد الوعي، وتهاوى ممدِّداً على الأرض. انتفضنَّ يقفنَّ. بعضهنَّ صرخنَّ، وبعضهنَّ أخرجنَّ زجاجة صغيرة من الكولونيا، رحنَّ يرشَّنها على وجهه، وواحدة راحتْ تضغط على صدره، كَمَنُ تُفِيقُ غريقاً. والنائمات استيقظنَّ ينظرنَّ في دهشة. لم يطل الوقت، وعاد إليه وعيه، لكنه عاد مرَّةً أخرى، وتمدَّد في مكانه في إعياء شديد.

حطَّ عليهنَّ الصمت. كانت المراتب متقاربة، ويجلسنَّ فوقها، فابتعدنَّ، وتركتهُ ينام على واحدة. جاءت امرأة ببطَّانيَّة من البطَّانيَّات الملقاة بلا عناية في نهاية أطراف المراتب، ووضعتها فوقه، وقالتْ أخرى:

- ليته يفيق، لنقدِّم إليه الطعام. يبدو لم يأكل طول النهار.

كان في الحقيقة لم يأكل منذُ أمس.

قالتْ أخرى:

- لا يجب أن نضايقه، يا جماعة. واضح إنه مظلوم، ونحن لن نكون مثل مَنْ ظلمونا.

طبع إحسان ألف نسخة أخرى، سيعطيها لمُريد وعابدين غداً. خرج من البيت

من جديد بعد أن انتصف الليل وسط البرد، ومطر خفيف بدأ ينزل، ومعه علبة بها مادة الغراء اللّاصقة، وفُرشة، وحوالي مائتا صورة ممّا صوّره وقرّر أن يلصقها الليلة وسط القاهرة. قرّر أن يذهب كل يوم إلى حيّ مختلف، ولو استطاع أن يُلصقها على أماكن المحاكمات والنيابة والقضاة سيكون أفضل ما يفعل. الليلة سيكتفي بشوراع وسط البلد، وسيحاول أن يذهب إلى دار القضاء العالي ومحكمة عابدين ويفعل ذلك خلسة بعيداً عن عيون الحرس. إن أباه وأُمّه نائمان الآن. وضع على رأسه قُبَّعة ذات محيط كبير، يخفيه من أعلى تماماً. برنيطة. وعلى عينيّه نظّارة سوداء، لأنه فكّر في الكاميرات التي صارت شائعة على كل المباني والمحلات تقريباً. قرّر أن يمشي جوار الجدران، فلا يبدو قادماً إليها، ولا يظهر وجهه في الكاميرا، ولا حتّى النظّارة التي تخفي عينيّه، وأن لا يلصق الصور جوار الأبواب مباشرة، فلا بدّ أن معظم الكاميرات فوق الأبواب. كيف فكّر في ذلك كله حقّاً؟ ابتسم. فتح الباب، وتسلّل دون صوت، وترك شارع أمين باشا سامي إلى شارع المبتديان الذي كان صامتاً صمتاً موحشاً إلّا من فرن للخبز سهران، ليس أمامه زبائن، ولا يظهر مَنْ هو خلفه. اكتشف أنه أخذ معه نسخاً عليها كلها تعليق واحد. كان في نيّته أن يلصق الصور ذات التعليقين المختلفين متقابلة. لم يشأ العودة إلى البيت. أين يبدأ هنا؟ ليس هناك مكان مهمّ غير دار الهلال وبنك “السي آي بي” بعيداً وجريدة المصري اليوم في العمارة نفسها بعدها يخرج إلى شارع القصر العيني. يمكن أن يضع لافتة على مدخل مجلّة روزا اليوسيف. هل يمكن أن يفعلها على جدار مجلس الشعب؟ سيرى. الجدران الخارجية للمجلس من أسياخ الحديد، لكنه يمكن أن يلصق صوراً عليها أيضاً.

ابتدأ بلصق عدد من الصور على جدار دار الهلال قبل بابها الواسع. لا حرس أمامها، ورجال أمنها يجلسون بالداخل من الباب. يعرف ذلك. عاد ماشياً في اتجاه شارع القصر العيني نهاية شارع المبتديان. وضع بعض الصور على سور

حديقة دار العلوم، ووصل إلى بنك السي آي بي على الناحية الأخرى، فوجد جندياً نائماً أمامه على مقعد. وضع صورتين على جدار مدخل العمارة التي بها جريدة المصري اليوم، ثم دخل إلى المكان الصغير الذي به ماكينات الصرف الآلي للبنك، ووقف مطمئناً، لأنه حتّى لو استيقظ الجندي سيظنّ أنه يسحب نقوداً من الماكينة. لصق لوحَتين وهو ينظر إلى أسفل، وخرج، فوجد الجندي لا يزال نائماً، فلصق واحدة على باب العمارة من الخارج، وواحدة على الناحية الأخرى من الباب، ومشى قليلاً. عند مدخل مجلّة روزا اليوسف في شارع المبتديان، وجد أن ذلك أفضل، فالأبواب الحديدية للسور الحديدي مغلقة، ولا يبدو أن هناك حرساً ما، لكنّ، لا بدّ أن الباب من ناحية شارع القصرالعيني مفتوح، والأمن الدّاخليّ جالس في الواجهة. لصق ثلاث صور على جدار مجلّة روزا اليوسف الحديدي من ناحية المبتديان، ومشى إلى شارع القصر العيني الذي كان خالياً تماماً، وكل محلاته مغلقة. عند مبنى وزارة التموين والتجارة الدّاخليّة لصق عدّة صور، ثمّ أخرى على جدار مسرح السلام. لقد وجد الأمر مشجّعاً. لا أحد ولا حراس. لصق عشر لوحات بطول جدار المسرح، ومشى. وجد مقهى فيينا مغلقاً، فوضع في بهوه الخارجي عدّة صور، وكذلك على جدار مدرسة الدوبارة الثّانويّة للبنات، ثمّ سور دار الشعب، وعاد إلى الناحية اليمنى، ليضع صوراً على سور مركز المعلومات واتّخاذ القرار التابع لمجلس الوزراء. وصل إلى مبنى مجلس الشعب، فلم يرَ حراساً أمامه. لا بدّ أنهم دخلوا من الباب، وأغلقوه. لصق عدداً من الصور على سوره الحديدي، واستدار وعبر الشارع إلى الرصيف الآخر، حيثُ البنك الزراعي وبنك مصر، ولصق عشر صور متجاورة. عبر تقاطع شارع القصر العيني مع شارع الشيخ ريحان، وانحرف يمينا، ولصق على جدران الجامعة الأمريكيّة خمس صور من ناحية شارع القصر العيني، ومشى جوار جدارها. وجد أمامه مَنْزَلاً للمetro، فنزل عدّة درجات، ولصق صورتين على الناحيتين، وخرج مسرعاً. لا مترو الآن حقّاً، ولا أحد ينزل أو يصعد، لكن الأمن لا

بدّ موجود بالداخل.

كان يشعر ببرد شديد يتسرّب إلى جسمه، لكن الدفء كان يسري في روحه ممّا يفعله. لم يعد ينظر حوله قبل أن يقف، ليطمئن أن لا أحد يراه. واضح له أن لا شرطة في الشوراع هذه الليلة، كأنما اجتمعت معه على أن يلصق الصور. وضع على جدار مطعم فلفلة المغلق من ناحية شارع طلعت حرب عدّة صور، وعبر شارع طلعت حرب، ليضع في مدخل مول إيفرجرين عدّة صور. أدهشه أن لا حراس في الخارج وهو الذي يراهم بالنهار والليل دائماً. كان هناك واحد في نهاية الرّذّة، لكنّ، يغطّ على مقعده في نوم عميق أيضاً. تأخّر في لصق الصور وهو متأكّد أنه لن يستيقظ، ولم يستيقظ، فمشى مبتسماً عائداً إلى الناحية الأخرى. وضع على زجاج مقهى ريش من الناحيتين صورتين في كل ناحية، ومشى إلى مقهى البستان. وضع خمس صور على كل ناحية من الممرّ، ثمّ وضع على جدار المقهى نفسه ثلاث صور. عاد يقطع الممرّ، ليضع على جدار دار الشروق وصيدلية العزبي، وعلى الناحية الأخرى، حيث مكتب شركة إير فرانس. فعل ذلك بهدوء شديد، وهو يشعر أن الحمل خفّ وزنه، والغراء يكاد ينتهي. وضع صورتين على مكتبة مدبولي، ثمّ جدار محلّ فتحى إبراهيم للعاديات والدخان، ودخل إلى شارع كريم الدولة، حيث أتليه القاهرة، ووضع على جداره صوراً، وأمامه على جدار حزب التّجمّع ومكتبة آفاق ومكتبة أقلام عربية، ثمّ لصق عدّة صور على زجاج فاتارين محلّ عمر افندي. عاد يمشي في شارع طلعت حرب قاصداً دخول شارع عبد الخالق ثروت، ليلصق صورتين على جدار محلّ التصوير الذي أبلغ البوليس عن عابدين ومُريد. فعل ذلك، ووضع أيضاً صوراً على جدار بنك السي اي بي ومحلّ لابوار والبنك الأهلي اليوناني وكل البنوك التي قابلها، وأدهشه أنه لا حراسة أمامها! مشى إلى شارع قصر النيل، فوضع عدّة صور على جدار البنك المركزي، وعاد في اتجاه ميدان طلعت حرب،

ليضع صوراً على جدار محلّ القزاز في شارع صبري أبو علم، لكنه رأى جنود الحراسة أمام بطيركية الأرمن الكاثوليك المجاورة في يقظة، فلم يضع صوراً. البرد يشتدُّ على جسده بينما الدفء يتمدّد في روحه، وزاد تصميمه أن يعود من شارع نوبار، ليضع على جدران وزارة الدّاخليّة. لقد انتقلتُ من وسط البلد حقّاً، لكنّ، هناك حراسة ولو قليلة. سيضع الصور والحراس غافلون عنه، فلا بدّ أنهم نائمون الآن خلف سواترهم أو في عربة الكمين، وربّما لا يزيدون عن أربعة متفرّقين. فعلها وكاد يضحك ويقف وسط الشارع يصرخ ويقول أنا هنا. مشى إلى وزارة العدل، فلم يجد معه غير صورتَيْن، وضعهما، واستمرّ في طريقه عائداً آسفاً أنه لم يأخذ معه صوراً أكثر. قبل أن يصل إلى شارع المبتديان وهو في شارع نوبار جوار مدرسة الدواوين وجد رجلاً واقفاً يصليّ وحده وسط الشارع. أدهشهُ المشهد، فالفجر لم يؤدّن بعد، والجوُّ باردٌ والرجل وحده، وهذا غريب. وجد نفسه عاجزاً عن عبور الرجل، وينهار جالساً على الرصيف ويبكي.

انتهى الرجل من الصلاة، وتقدّم إليه حاملاً المصلّة التي طبقها في يده، وبدا له شيخاً صالحاً من الجلباب الذي يرتديه، ومن ذقنه الكبير الأبيض، ومن علامات الراحة على وجهه، وقال له الرجل:

- لا تندهش، يا بني. عرفتُ أنّك في مأزق كبير، فجنّتُ إليك. أمسيكُ دموعك، فلا معنى للبكاء أمام إرادة الله، واعلم أن الله سيردُّ يوماً كيّد الظالمين. لا تقتل، يا ولدي، واطلب النسيان من الله.

وجد نفسه يبكي، ويقول:

- ضربني، يا سيّدي، أنا الذي لم أضرب أحداً.

- هل تعرف، يا ولدي، ماذا شعر بعد ضربك. الألم في وجهه هو الآن.

- قبضوا على صاحبي بلا أيّ سبب.

- الاماكن الضيّقة تتّسع برحمة الله.

وسكت إحسان، فأخذه الرجل من ذراعه قائلاً:

- قم، يا ولدي. أمامك رحلة كبيرة. الرحلات العظيمة تبدأ بالنسيان!

وقف إحسان معه، ومشى إلى جواره لحظة، اختفى بعدها الرجل من جواره، وهطلت الأمطار.

أسرع إحسان في ذهول، ودخل البيت، ثمّ غرفته وليس معه غير علبة الغراء خالية، فوضعها على الأرض والفرشة فيها، وأخذ يتلقّت حوله، لعلّ الشيخ معه في غرفته. لم يجد أحداً. أحسّ أنه سيدخل في حيرة كبيرة، ففكّر أن يأخذ كمّيّة أخرى من الصور، ويعود إلى الشوارع، قد يقابله الرجل مرّة أخرى، لكنه شعر بالبرد شديداً في جسده وحاجته للدفع الحقيقي كبيرة. ما أجمل الدفع الكاذب الذي جعله يفعل هذا كله! وما أجمل الشيخ المصلّي منحة الله حتّى لو كان سراباً! وانهالت دموعه من جديد.

بعد لحظات خلع ثيابه، وارتدى تريننج سوت، وألقى بنفسه على السرير جاذباً فوقه اللحاف يُدفئه، وفتح الموبايل على الفيسبوك. كان يشعر أن الهاتف لا يكفّ عن إصدار صوت وصول رسائل أو تعليقات أكثر من أيّ ليلة. رأى أمامه سؤالاً:

“ما الذي يحدث؟ أشباح تملأ شوارع وسط البلد بصور المقبوض عليه الترانسجيندر حمزة حسين عمران. وعليها تعليق “هذا البطل حمزة الذي عبّر من حالة الأنوثة إلى الرجولة، ووقع في يد الدولة الظالمة تحبسه مع النساء، وتمنعه من استكمال فترة النقاهة، وتتهمه بالإرهاب”.

“لقد تمَّ ذلك كله في وقت واحد رغم وجود كمائن في الطُّرُقَات وفي النواصي
وعند الشارات. كيف لم يفتنُّ رجال البوليس إلى ذلك؟ حمزة تقف معاه الأشباح
أو الأولياء.”

صار يضحك حتَّى كاد يرتفع صوته، لكنه أمسك بنفسه وهو يرى الشيخ يصلي
أمامه في الطريق الخالي، وكتب قبل أن ينعم بالدفء، وينام:

“أنا متضامن مع حمزة الذي نُقل إلى عنبر النساء في سجن القناطر هو الرجل
سيّد الرجال الذي يقف معه الأولياء.”

في اليوم التالي، التقى إحسان في الساعة العاشرة مساءً مع عابدين ومُريد. كانوا قد اتَّفَقوا أن يتقابلوا في المقهى، ويأخذ كلٌّ من عابدين ومُريد الألف نسخة من الصور التي قام هو بطبعتها، ويقومان بتوزيعها على الجدران. يختار كل منهما مكاناً مختلفاً، ويقوم ثلاثتهم ب لصق الصور في وقت واحد بعد أن ينتصف الليل، ليتحقَّق ما قيل على الفيسبوك أن أشباحاً وأولياء تفرِّق الصور في كل مكان. فكَرَّ أنه ليس مهمّاً أن يكتب تعليقاً مثله على الصور. لم يعد ذلك مهمّاً. على العكس قد يكون انتشار الصور ذات التعليق وغيرها بلا تعليق فرصة للارتباك عند الدولة التي لا بدَّ ستفكِّر في أكثر من جهة تفعل ذلك. هذه المرَّة سيكون على عابدين أن يذهب بالصور إلى منطقة روكسي أو ميدان المحكمة بمصر الجديدة أو غيرها. المهمَّ مصر الجديدة. وسيذهب مُريد بالصور إلى منطقة الهرم. أمَّا هو إحسان، فسيذهب بها إلى منطقة الدُقِّي. ستكون الساعة الواحدة صباحاً هي ساعة الصفر لهم. في اليوم التالي، يفعلون ذلك في منطقة أمبابة، وفي منطقة العباسيَّة، وفي منطقة حلوان، ويرتاحون حتَّى يفكِّروا ماذا سيفعلون بعد أن تنفد الصور، وماذا سيحدث مع حمزة في المحكمة المستعجلة التي عرف إحسان أن المحامي سيلجأ لها.

التقوا أمام مقهى الحرِّيَّة في الساعة العاشرة، لكنهم فضَّلوا أن يبحثوا عن مقهى لا يعرفهم فيه أحد، ولا يكون زحاماً. سيجلسون يتناولون القهوة أو الشاي، ثمَّ يأخذ عابدين ومُريد الصور في الساعة الثانية عشرة، وينصرفون جميعاً، وقد يصلوا إلى أماكنهم المحدَّدة، ويبدؤون جميعاً في وقت واحد. الجوُّ لا يزال بارداً، وفرصة سقوط أمطار خفيفة قائمة. لقد سقطت أمطار كثيرة على السواحل اليوم. كانوا يضحكون وهم يتحدَّثون كيف صار توزيع الصور حديث

الميديا، وكيف التقطت مواقع إلكترونية، وكيف تناقلته قنوات خارجية، وفسرته بأن هناك مقاومة تأخذ شكلاً جديداً في مصر. وأن مَنْ يفعل ذلك مئات من الشباب، لأن المنطق يقول إن واحداً أو عشرة لا يفعلون ذلك في منطقة مثل وسط البلد لا تختفي منها الشرطة ليلاً ونهاراً.

كانوا يضحكون من كل التفسيرات. دهشة إحسان كانت كبيرة، لأنه فعل ذلك وحده، وعلى مهل، ولم يكن يوجد بوليس. وإذا وُجد، فيكون واحداً نائماً في ركن ينشد الدفء، أو اثنين لا يغادران سيّارة الحملات، وفي الأغلب نائمين أيضاً. رغم ذلك كان سهلاً جداً أن يتم القبض عليه، لكن الشيخ الذي ظهر له في عودته علامة على أنه محروس من الله الذي سيحرس عابدين ومُريد أيضاً الليلة.

سأل عابدين إحسان:

- طيّب، هل أنت على يقين أن الكاميرات لم تُصوّرك؟ هناك كاميرات أمام كل محلّ أو مطعم أو بنك.

أجاب إحسان:

- كنتُ أرتدي هذه البرنيطة السوداء، وأضع هذه النظّارة على عينيّ، ولذلك طلبتُ منكما أن تأتيا بمثلهما. المهمّ لا تدخلّا على الجدار من جهة مقابله. امشيا جوار الجدار قبل المكان بخمسة أمتار مثلاً، وبعد أن تنتهيا، امشيا خمسة أمتار أخرى، وما دامت المحلّات متجاورة، لا تفارقا الجدار حتّى تدخلّا في شارع أو زقاق جانبي. لا تنتقلا إلى رصيف آخر من نفس المكان. نسبة التّعرف عليكما ستكون ضئيلة، ولا بدّ أن ربّنا سيكرمنا، وتكون هناك كاميرات عطلانة.

قال عابدين:

- طيّبُ. مكتب التصوير الذي صوّرتَ أنتَ عنده لا بدّ يعرف الآن أين ذهبت الصور، ولا بدّ أن لديه كاميرات تصوير في الداخل والخارج، وستكون صورتك عنده، وقد يشي بكّ.

قال إحسان:

- فكّرْتُ في ذلك. لن يحدث، لأنه يعرفني ويعرف والدتي، والأهمُّ أنه سيخشى أن يُتَّهم بالاشتراك معي. ممكن أن يفكّر أني سأقول عنه ذلك. أعتقد أنه سيمسح صورتني، إذا كان لديه كاميرات.

قال مُريد:

- لا أظنُّ أن التصوير أمام المحلّات والهيئات التي سنُلصق بها الصور سيُخفق في تحديد هويتنا، والمحلّ الذي هربنا منه قد يكون به كاميرات تصوير من الداخل أيضاً صوّرتنا، لكنّ، ليس أمامنا غير ذلك، وليكنّ ما يكون. حمزة لا يجب أن يضيع.

كان كل منهما قد أحضر معه علبة من الغراء لزوم لصق الصور وفرشاة. في الساعة الثانية عشرة، تسلّم كل منهم منه خمسمائة صورة، وانصرفا.

استطاع أن يُغرّق شارع التحرير وشارع الدَّقِّي اللَّذَيْن أُغْلقت كل محلّاتهما، وبدا الحيُّ كله مستسلماً للنوم. بل إنه مشى متّجهاً إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز، وانحرف قبله إلى شارع وزارة الزراعة، ولصق قبلها على سور معهد بحوث البساتين، وعاد متّجهاً من جديد إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز مرّة أخرى، ولصق صوراً على سور المعهد القومي لنقل الدم، ثمّ على جدار

مستشفى القوّات المسلّحة، وعلى الناحية الأخرى على بنوك مختلفة
ومحلّات شهيرة مثل محلّ سيراميك كليوباترا، وأخذ طريقه إلى شارع جامعة
الدول العربية، ولصق ما بقي من صور، ثمّ عاد إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز
من جديد، ينظر باسمّاً إلى الصور التي لصقها، ولا يقف أمامها حتّى صعد إلى
كوبري 6 أكتوبر، يمشي وحده. ألقي بالقبّعة إلى الأرض وهو يصعد الكوبري،
وألقى أيضاً بعلبة الغراء والفُرشة على مسافة أبعد، ومشى وسط البرد وكوبري
أكتوبر خالٍ من السيّارات والمارّة، لكنّ، أسعفه الحظُّ بتاكسي يقف جواره وهو
يمشي على الرصيف الضيّق جدّاً، ونظر السائق إليه قائلاً:

- تحبّ أوصلك إلى أيّ مكان؟

- أجل.

وركب معه قائلاً:

- إلى الزمالك.

لقد قرّر أن يجد مقهى سهران إلى الصباح هناك، ويعود إلى البيت بعدها حتّى
إذا قال السائق لأحد أو في أيّ مكان، إنه وجد شابّاً يمشي وحده على كوبري
أكتوبر عند الفجر، سيقول إنه ركب معه إلى شارع حسن صبري بالزمالك.
ابتسم من تفكيره المخبراتي، لكنه أحسّ بالرعب، فقال لنفسه يكفي هذا، يا
إحسان. فلتنتظر ماذا سيحدث في المحكمة بعد يومين لحمزة. أحسّ أن قلبه
سيسقط في قدّمه خوفاً أن يخطئ عابدين أو مُريد في محاولة اتّقاء الكاميرات،
ويتمّ القبض على أحدهما، ويُجبر على الاعتراف على الآخر.

كانت "سمرا" من بين السجينات سهرانة. إنها تتلقّى رسائلها دائماً بعد أن ينتصف الليل، وكذلك ترسل رسائلها. كانت لا تُصدّق أنها أمضت يومين ومعها رجل يسمّى حمزة حسين عمران. أرسلت ذلك إلى الشخص الذي تتواصل معه في الخارج، وصارا يضحكان، وانتهيا إلى أن هذا نوع من التغيير جميل، لا يحدث في السجون.

كان حمزة لا يستطيع الاستغراق في نومه، فهو يشمُّ روائح عفنة، لا بدّ أنها ضراط، لكنها ليست من الزحام، فالعنبر كبير، يسع أكثر من العشرين، لو أرادت إدارة السجن. وهنَّ ينقسمنَ على الناحيتين متجاورات على المراتب الرفيعة فوق الأرض، وفوقهنَّ بطاطين سوداء رخيصة، وأصوات الشخير تتفرّق بينهنَّ، ونافذتان صغيرتان أعلى الجدار، تطلّان على الخارج مفتوحتان دائماً، فلا شيش ولا زجاج لهما. فقط أسياخ حديدية من أعلى إلى أسفل، تمنع العبور منها، ومن ثمَّ يدخل الهواء، لكنه لا يُسيّب البرد، بسبب العدد الموجود، وأنفاس صاحباته وعَرَق لحمهنَّ، وما يصدر من بعضهنَّ من ضراط طول الليل والنهار، فلا فسحة كافية لهنَّ، والأكل يتكوّم في أمعائهنَّ. كنَّ لا يأكلنَ طعام السجن. فقط يأخذنَ الخبز، لأنه أفضل من الخبز خارج السجن، وكان هذا مصدر دهشة كل مَنْ تصل إلى السجن لأوّل مرّة. كذلك كانت الزيارات تأتي معها باللحوم والدواجن والأسماك، وبكميّات كبيرة مع أنواع الجبن المختلفة والشاي والسكر، وكان معهنَّ "سبرتاية" ويؤتى إليهنَّ بالكحول اللازم لها، لكنّ، في علبه بلاستيك، والكؤوس بلاستيك، ولا زجاجات معدنية، فإدارة السجن حريصة على ذلك، حتّى لا تُرتكب جرائم بينهنَّ رغم أنهنَّ استطعنَ تهريب زجاجات بارفان وكولونيا صغيرة. لم يصدّق حمزة أنهنَّ سيتعاملنَ معه من باب التغيير، وكان حذراً جداً، وخائفاً أن يتمَّ اغتصابه أو إجباره عليهنَّ بالليل أو بالنهار في دورة مياه العنبر الذي كان به ثلاث دورات مياه صغيرة. كان يضايقه فيها الألويز المستخدم

الملقاة في سلّة بلاستيكية جوار المرحاض ممتلئة بالدم المتخثر والجافّ أوالجديد، وكانتُ تفوح منها رائحة سيّئة، ويندهش كيف لا يُخرجونها كل يوم عند الباب حين تفتحه الجندية السجّانة، ليخرجنَ يمشينَ في الطريقة أمام الأبواب لمدة نصف ساعة. عرفَ منهنّ أن الشرطيّة تتعمّد أن لا تأخذه لعدّة أيّام حتّى يتعقّن ويشممنَ رائحته، وقلنَ له لكنّ، الحمد لله، لا يزال الجوُّ بارداً، ولا يتعقّن بسرعة، ويدعونَ له أن يتمّ الإفراج عنه قبل الصيف. كان لا يرى في الطريقة وقت الفسحة غير سجينات يمشينَ أمامه، بعضهنّ حزينات، وبعضهنّ يضعنَ ماكياجاً صارخة، وأحمر شفائيف يلوّث الشفّتينَ وجزءاً من الذقن والخدين، ويلكنَ اللّبان، ويتقصّعنَ في مشيتهنّ، ففكّر أنهنّ عاهرات، فقالتُ له سمرا المقبوض عليها في قضية دعارة هؤلاء سحاقيات، ينمنَ مع السيّتِ القوية بين السجينات في البداية جبراً، ثمّ يتعوّدنَ. العاهرات أحسن من كدا. ونظرتُ له في غيظ، ثمّ قالتُ "يا جندر". تصوّرتُ أنها تسبّه، وهو لم يشأ أن يشرح لها معنى الكلمة، وكيف أن كلاً من النساء والرجال له جندره! تركها تشعر أنها انتصرتُ عليه، لكن كلمتها صارت اسمه، تناديه بها، والكل تبعنّها، وسألنّها "يعني إيه جندر، يا أختي؟" فقالتُ "مش عارفة. هي مصيبة، والسلام". وكتّم هو ضحكه. اشتاق أن يصعد على أيّ شيء، ينظر من النافذة العالية، ف خلفها كما قالوا له يجري النيل. يريد أن يرى السفن العابرة، ليعرف أن الدنيا أوسع من هنا، وأن له الفضاء يوماً مهما طال الحبس.

تحرّشتُ به اثنتان منهما صباح اليوم، ولم يجد طريقة غير أن يرفع صوته في زئير مهذّداً أن يستخدم معهما قوّته كرجل، فهو لم يعد يخشى السجن، فابتعدتا عنه قائلَتين "هو إيه، ياختي ده. هو فيه راجل يكره السيّتات. وربّنا انت مرّة، والحكومة عندها حقّ. ومرّة وحشة كمان، ليّها شنب ودقن". ضحكت الباقيات، ثمّ قالتُ واحدة منهما: "وربّنا كنت حاديلك حلاوة عاملاها ع السبرتاية، تنتف

بيها شنبك ودقنك، وتبقى حلو زينا، لكن، بعينك” ورغم تحرشهما به، كان يشعر بالطمأنينة أن الباقيات لم يشغلهن كونه رجلاً أو امرأة. قلن له فقط ما تقلعش هدم قدامنا، مش عايزين نشوف بتاعك، احنا نسيناه” وانطلقن في الضحك. حين أتى أبوه وأمه لزيارته صباح اليوم أيضاً بعد أن انتهيا من إجراءات الموافقة على الزيارة التي قام بها أبوه بالقانون، ولم يتصل بمن يعرفه في الوزارة التي قرّر أن يقطع كل علاقة له مع أحد فيها. حين قابلاه من وراء السلك، بكت أمه، وفوجئت بشرطية تأتي من خلفه، وتقول لهما تفضلاً عند سيادة الأمور رئيس السجن. اندهشا، وذهبا إليه، فوجدا حمزة قد سبقهما، وجلس عنده. قال لهما المأمور: “سأترككما ربع ساعة فقط معه. أنا أعرف حكايته، وفي ضيق كبير قال “أنا على يقين أن مكانه ليس هنا، بل في سجن الرجال، لكن، لا أستطيع أن أرفض وجوده. الذي لا يعرفه هو أن المعاملة الطيبة له من زميلاته كانت بتعليمات من المرأة الأقدم بينهما، وأنا الذي أوصيتها حتى تنجحوا في نقله إلى سجن الرجال” وقال لحمزة “أم حسن، يا حمزة، التي هدّدت الجميع إذا ضايقوك”.

تذكر من تحرشتا به، وقال لنفسه أن تراجعهما بسرعة، ليس لصوته العالي وتهديده، لكن، لأن أم حسن نظرت إليهما شذراً حقاً، وقالت لهما: “اقعدي مكانك، يا مرة، إنت وهي” إذن، هناك من يعطي الأمل.

وقال المأمور لهما أن لا يُخبرا أحداً في أي مكان أنه فعل لهما ذلك. هو فقط يحاول أن يريح ضميره، ويقلل من المصائب التي يمكن أن تحدث. ونصحهما أن يُنهي الأوراق بسرعة حتى إذا لم يحصل حمزة على البراءة من التهم السياسية، يُنقل إلى السجن الطبيعي مع الرجال. واعتصرت كلمة السجن قلب أمه وأبيه، كما يحدث حين يسمعانها في كل مرة.

أيقظته سمرا، وقالت هامسة:

- قم. لا تخف. يخرّب بيتك. الدنيا مقلوبة علشانك.

لم يكن هو في نوم عميق. اعتدل، وجلس وظهّره إلى الحائط، وهي جواره، تعمّدت أن تقترب منه، ليكون جانبها وفخذها وثديها ملتصقين به. لم يفكر أن يُبعدها عنه، فهو يحتاج إلى دفء. بل يفكر أن يترك نفسه لأيّ منهنّ، ولولا خوفه، وهو في فترة نقاهة ستطول، لمارس الجنس معهنّ كلهنّ. لا بأس أن ترتكنَ عليه، ويفرد ساقيه، ويقرأ معها أو يسمع منها:

“الأشباح تتحقّق مرّة أخرى هذه الليلة في ثلاثة أحياء في وقت واحد. مصر الجديدة والدقيّ والهرم. كلها تُوزّع صوراً لحمزة حسين عمران الذي كان لمياء، وكلها تطالب بالإفراج عنه”.

“الذين لم يصدّقوا أن مَنْ فعلوا ذلك أمس أشباح أو أولياء، ما رأيكم وقد تمّ توزيع ولصق الصور في وقت واحد من أقصى القاهرة إلى أقصى الجيزة؟! إيّاكم أن يقول لي أحد إن هناك فريقاً كاملاً يفعل ذلك، كما تقول قنوات الإخوان المسلمين. هذه القنوات تحاول أن تُرعب النظام، وتكون النتيجة هي القبض على الناس بدون ذنب”.

“معك حقّ. هي أشباح، يا بلد، كلها خرافات”.

وأشارت سمرا إلى كلام بالإنجليزية، وسألته:

- صورتك بين الكلام، فهل هو عنك؟

تطلّع إلى الكلام، وقال:

- أجل.

- مَنْ الذي يقول هذا الكلام؟ وهل هو دفاع عنكَ أيضاً؟

- منظّمة عالمية، اسمها

Human Rights watch

تراقب حقوق الإنسان في العالم.

تأمّلتُهُ في دهشة كبيرة، وقالتُ:

- أنتَ هكذا لو خرجت، يمكن أن تترشّح في الرئاسة، وتكسب. آه وربّنا.

لكنه قد صار شاردًا يفكّر مَنْ فعل هذا أو يفعله. تذكّر أن إحسان أخبره أنه رسم له عدّة بورتريهات وهو لمياء، يحتفظ بها، فهل يكون هو وراء ما يحدث؟ ليس أسهل من أن يرسم بورتريهاً جديداً له وهو حمزة. وحين عثرتُ سمرا على صورة للبورتريه، هتفتُ هامسة أيضاً:

- هذه هي الصورة.

دقّق فيها النظر، وشمله الرعب. هل إذا انتهت الأوراق المطلوبة سيجمع بينه وبين إحسان سجن الرجال؟ ترك مكانه، وقام يمشي بين النائمت صامتاً، وسمرا تنظر إليه في دهشة. ثمّ توجّه إلى إحدى دورات المياه، ودخلها وجلس فيها يبكي رعباً على إحسان.

امتلت المحكمة بالحضور من المشاهدين الذي عرفوا من الفيسبوك بجلسة الفصل في حبس حمزة حسين عمران اليوم. في الطريق إلى المحكمة في سيارته أبي إحسان كانت أم حمزة معهم. لقد كانت في خوف منذ أطلعته رانيا على صور للمياء وحمزة صارت تملأ الشوارع، وحكت لها عما حدث في القاهرة وتعليقات الشباب عليه. تذكرت أم حمزة أن أم إحسان وإحسان نفسه أخبرها يوماً أنه رسم بورتريهات للمياء. فكرت أنه قد يكون وراء ذلك، وشملها الرعب عليه. لم تسترخ إلا بعد أن اتصلت به، وطلبت حضوره إليها صباحاً، حيث لا يكون زوجها ولا رانيا في الشقة. حضر، وأخبرته بهواجسها، فصمت. دمعت عينها، وقالت:

- لماذا تجعلنا نخسر، يا إحسان. أ لا يكفي واحد؟!

قال:

- اطمئني، يا أمي، لن يصلوا إليّ.

سألته:

- هل فعلت كل ذلك وحدك؟

تردد لحظة، ثم قال:

- نعم.

سكتت لحظات، وقالت:

- لقد أطلعني رانيا على صور ثلاثة شبّان، صوّرتهم الكاميرات، لكن، لا تظهر وجوههم تحت البرنيطة، وإذا ظهرت، لا تظهر عيونهم تحت النظارات الغامقة.

ثلاثة يختلفون في الحجم والطول والرّبيّ. هل استخدمتَ سيّارتك في التّحرّك؟
قد يكون تمّ تصويرها.

- لا تقلقي. تعرفين أنّي لا أستخدم السيّارة إلّا نادراً. وأيضاً زملاء حمزة لن يصل
إليهم أحد. هما زميلان لحمزة في الجامعة، كانا معي.

انثالت دموعها أكثر، فقال:

- حيّي لحمزة مثل حيّي للمياء، لا يقلُّ، رغم الاختلاف.

وقبّل يدها، وخرج بينما هي تدعو له بالسلامة، وتذكّر ذلك كله الآن، ورأته
جالساً في المحكمة بعيداً عنهم في صفٍّ خلفهم بين الجالسين، وحوله شابّان
على ناحيتيّن، يتكلّم معهما، ففكّرتُ أنهما لا بدّ زميلا حمزة المتعاونان معه في
توزيع الصور، ودقّ قلبها.

“محكمة” ..

هتف الحاجب، ودخل القاضي ومعه عضوا اليمين واليسار، ووكيل النيابة يقف
في مكانه، وحمزة خلف قضبان التخشيبية الرفيعة بجلباب السجن الأبيض
النّسائيّ.

سأل القاضي وكيل النيابة:

- هل لديك ما تقوله الآن؟ لقد تقدّم إلينا محامي المتّهم بشهادة الميلاد
الجديدة الصادرة بناء على اللجنة الطّبيّة والعملية الجراحية التي قامت بها،
وحُكم المحكمة.

قال وكيل النيابة:

- ليس لديّ ما أقوله في مسألة الجنس، لكنّ، لديّ ما أقوله فيما وجدناه في هاتفه، وعن صلّاته بالجماعات الإرهابية والمحظورة.

حطّ الصمت على الجميع، وبدأ الرعب يسري في جسد وروح الأمّ والأب، فأمسك بيدها يُشجّعها وهي جواره، والحقيقة أنه كان يُشجّع نفسه.

تحوّل أكثر الحاضرين من أجل التسلية بقضية جديدة من نوعها في مصر، وأكثر الصحفيين الذين كانت أعدادهم كبيرة جدّاً، إلى الخوف على المتّهم الذي لا صلة لهم به. وحده إحسان كان يشعر بالغيط ومعه عابدين ومُريد، وكانا يهزّان رأسيهما سخرية. ثمّ قال وكيل النيابة:

- لو سمحت، عندي سؤال للشاهد الرئيسي الدكتور مختار صابات.

قال القاضي:

- تفضّل.

وقف الدكتور مختار صابات مكانه، وسأله وكيل النيابة:

- هل فعلاً قمّم بالعملية الجراحية حتّى تُصدّق الأوراق، لأن جرائم التزوير كثيرة في مصر؟!

أجاب الدكتور مختار صابات:

- أجل، قمنا له بالعملية، أنا وطاقم طبّي حاضر هنا - وأشار إلى طبيب وطبيبة - كذلك معي الممرّضتان اللتان كانتا تتابعانه ليلاً ونهاراً.

وأشار إلى فتاتين في العشرينيات من عمرهما.

قال له القاضي:

- وحدك شاهدًا تكفي، يا دكتور ...

لكن الدكتور صابات قال:

- عندي كلمة.

قال القاضي:

- تفضّل، يا دكتور.

- أمس مساء تلقّيتُ مكالمة تُهدّدني بالقتل إذا حضرتُ إلى المحكمة.

انفجرت المحكمة في ضوضاء بأصوات احتجاج ودهشة، فقال القاضي:

- سكوت من فضلكم. سكوت.

سكت الحاضرون، وقال القاضي لكاتب الجلسة:

- سجّل هذا الكلام، وعلى النيابة أن تعتبره بلاغاً، وتُحقّق فيه.

صَفَقَت القاعة، فأشار إليهم بالسكوت بسرعة، وقال:

- نحنُ لا نحتاج إلى شكر أو تقدير. نحنُ نمثّل العدالة.

دَوَّت القاعة بتصفيق جديد، لكنه انقطع بسرعة بنظرة منه، ثمّ ابتسم وتوجّه

بالحديث إلى حمزة.

- لن أعطيَ المحامين فرصة الحديث، فالموضوع واضح، لكنني سأخاطبك، يا حمزة. سأقول لك، يا حمزة، وأرجو أن تبتسم.

كان المحاميان هما الأكثر ابتسامة بين الحاضرين، فهذه علامات البراءة، والقاضي تجاهل حتّى الآن حديث وكيل النيابة عن التُّهم السِّياسيّة، لكن حمزة قال وهو يهزُّ كتفيه ويحرِّك حاجبيّه، وبصوت نسائي رقيق به كثير من الميوعة:

- أنا لمياء، يا سيادة المستشار. أيوه لمياء. ليه تظلموني وتخلُّوني حمزة؟!

هنا دوَّت القاعة بالضحك بينما كادت أمُّ حمزة أن تفقدَ وعيها، وحملق فيه القاضي لحظة مندهشاً، وسأله:

- هل هذا صوتك الطَّبَّيعي؟

- طبعاً، يا سيادة المستشار. صدّقني. أنا لمياء، واسألهم في السجن، شافوا كل حِتّة في جسمي.

أجاب بنفس الصوت والميوعة، فازداد الضحك. وقف إحسان يكاد ينفجر، ووقف معه عابدين ومُريد، ووضعت أمُّ إحسان وجهها في صدر أبيه تبكي، بينما الأب يشعر أن قلبه ستتوقّف ضرباته، ويحمله بعيداً عن الحياة. مال عضوا اليمين واليسار على القاضي، وتهامسا، فشحب وجهه، لكن الدكتور مختار صابات طلب الكلمة. سمح له بها القاضي، فقال:

- يبدو أنني سأعمل بالمحاماة بعد ذلك، يا سيادة المستشار. ما نراه الآن من حمزة هو من أثر حبسه مع النساء. هذا النوع يحتاج بعد الجراحة إلى تأهيل نَفْسِيّ طويل، وكنا نسير فيه. صحيح أن هذا الميل للنسويّة لن يجعله امرأة فيزيقيّاً مرّة أخرى، لكن، يمكن أن يجعله شاذّاً فيما بعد. أرجوكم الإفراج عنه،

لإنقاذ حياته، فهذا ليس صوته الذي أعرفه، وشكراً.

لكن حمزة قال بصوت مرتفع، وقد تغيّر صوته، وعاد إلى خشونته:

- لا. لم يحدث عندي تأثر بالنساء بعد. لقد قابلتُ بشراً أنقياء. نساء كان على هذا المجتمع أن يوفّر لهنّ حياة أسعد. أنا فقط تحدّثتُ كما النساء من باب السخرية، وأعتذر للمحكمة. و....

هتف وكيل النيابة:

- أعترض على هذا الكلام. إن ما جرى من المتّهم فيه إهانة للمحكمة.

صمت القاضي لحظات، وصمتت القاعة، كأنها خلتُ ممّن بها، ثمّ قال القاضي:

- أكمل، يا ابني.

أكمل حمزة بصوته الطّبيعيّ:

- أنا طالب دارس للأدب والثقافة، ومن عائلة محترمة. أنا قاومتُ وحاربتُ حتّى أنتهي إلى ما خصّني الله به من رجولة. أنا أستطيع أن أتحدّث الإنجليزية والفرنسية إلى جوار لغتي العربية، ولديّ الشجاعة أن أقول ما أريد. ماذا يفيد الدولة من حبسي مع النساء، لتزداد النساء امرأة؟! بل ماذا يفيد الدولة من حبسي أصلاً؟! لقد وُلدنا بحبّ الوطن، فلماذا تُجبرنا هذه الدولة على كره الوطن؟! أنا أعرف أن فخامتكم ستحكمون بنقلي إلى سجن الرجال، لكنّ، لماذا أسجن أصلاً، ولم أحمل سلاحاً، ولم أقتل، ولم أسرق، ولم أزن، ولم أكذب؟! هل تعرفون، يا سيادة المستشار، لماذا صمّمتُ على إجراء العملية، بينما كانت أمّي وأبي لا يُصدّقانني، ولا يريدان الخروج على حكم الله؟ صمّمتُ لأن هذا

حُكْمُ الله أيضاً. أن يبتلي عباده، ويرى كم هم أقوياء، يشكرونه في السرَّاء والضَّراء. إن ما على صفحتي على الفيس بوك لا يضرُّ أحداً. لستُ ناشطاً سياسياً، ولا زعيماً، لكنني شابٌّ يرى البائسين الحائرين حوله كثيرين في البلاد. إذا كان سوء الحظِّ أوقعني في طريق الشرطة بعد ساعات من لعب الطاولة على المقهى، فهذا ليس ذنبى. كان هاتفى سيظلُّ معي، وفيه كل الكلام الذي أحاكم عليه. هل يعرف أحد في مصر كم الهواتف التي تمتلئ بما هو أفسى ممَّا هو على هاتفى؟ حديثي كله عن فصيلتي من الترانسجيندر، هذا الحديث ماذا يسيء للدولة؟! إنهم نجوم في بلاد العالم في الفنِّ والأدب والسياسة، وهنا يوضعون في السجون، فهل هذا يُرضي الله؟ لا أريد أن أكون نجماً، لكنني أريد أن أكون بين أهلي. أتناول إفطاري من يد أمِّي الطَّيِّبة - وكاد يبكي، فانفجرت أمُّه في البكاء، وكثير ممَّن في القاعة، لكنه تماسك، وأكمل الحديث - أريد أن أضحك مع أختي الصغيرة، وأسمع حكايات أبي عن الدنيا زمان، وأسهر مع أصدقائي، كما لم أسهر من قبل حين كنتُ بنتاً، لأن البنات لا بدَّ أن يكنَّ أهدأ وأرقَّ. أنا الآن، يا سيِّدي - أعرف، وعلى يقين، حُكْمُك العادل بكوني رجلاً، ولا أخاف من حبسي مع الرجال، لكن، لماذا يكون عليَّ الانتظار في قلق حتَّى ينتهي حبسي وأغادر هذه البلاد؟! ما دامت هذه الدولة لا تريدني سعيداً في وطني، فأنقذني منها، وأعلِن - يا سيِّدي - تبرئتي من كل التُّهم التي لا أعرف كيف تتَّهمني النيابة بها، وأنا. أنا.

وبدأ يجهش بالبكاء.

- أنا سأترك البلاد. لن أعود إليها أبداً. لن تخسرَ مصر شيئاً برحيلي عنها.

انفجرت القاعة كلها بين البكاء والإعجاب. ووقف القاضي وعضوا المحكمة، وقال الحاجب:

- رُفَعَت الجلسة. الحُكْم بعد المداولة.

ظلَّ حمزة يبكي بعد أن جلس على مقعد من الخشب داخل التخشبية والقاعة كلها بين نسيج وبكاء وهتاف معجبين "الله عليك" "رَبِّنا حينصرك" أمَّا أمُّه، فقد وضعت صدرها ووجهها تنتحب على صدر أبيه الذي كان يبكي في صمت.

انتهت / يناير - يونيو / 2019

إبراهيم عبد المجيد

كاتب وروائي من مواليد الإسكندرية. خريج كُليَّة الآداب، قسم الفلسفة،
بجامعة الإسكندرية. يعيش في القاهرة منذ عام 1975.

كتب ونشر قصصه القصيرة في مجلَّات عربية مرموقة مثل الهلال والمجلَّة
والطليلة والآداب وإبداع والكرمل، وغيرها من المجلَّات العربية. بالإضافة إلى
نشر مقالاته في أهمِّ الصحف العربية والمصرية، ولا يزال إلى حدِّ اليوم. حاز
على جوائز مصرية وعربية هامَّة، منها في مجال الرواية: جائزة نجيب محفوظ
في الرواية عن روايته "البلدة الأخرى"، 1996. جائزة ساويرس في الرواية لكبار
الكتَّاب عن رواية "في كل أسبوع يوم جمعة"، 2011. وجائزة كتارا عن رواية
"آداجيو"، 2015.

أصدر إبراهيم عبد المجيد تسع عشرة رواية، نذكر منها: في الصَّيف السابع
والستَّين، المسافات، الصيَّاد واليمام (حوِّلَت إلى فيلم)، قناديل البحر (حوِّلَت
إلى مسلسل تليفزيوني)، الإسكندرية في غيمة، قطط العام الفات،
السايكلوب، وغيرها. أصدر كذلك سبع مجموعات قصصية، جُمعت ستُّ قصصٍ
منها في مجلَّد واحدٍ بعنوان: أشجار السَّراب، عدا مجموعة: حكايات ساعة
الإفطار، للمؤلِّف كُتِبَ متنوِّعة أخرى في المسرح وأدب الرحلة والفلسفة
والمقالة، مثل: أين تذهب طيور المحيط؟، ما وراء الخراب، رسائل من مصر.
تُرجمت العديدُ من أعماله إلى لغات أجنبية كالإنجليزية والإيطالية والفرنسية
والألمانية.

الفهرس

1 - الغلاف

2 - العابرة

3 - -1

4 - -2

5 - -3

6 - -4

7 - -5

8 - -6

9 - -7

10 - -8

11 - -9

12 - -10

13 - -11

14 - -12

-13- - 15

16 - القسم الثاني

-2- - 17

-3- - 18

-4- - 19

-5- - 20

-6- - 21

-7- - 22

-8- - 23

-9- - 24

-10- - 25

-11- - 26

-12- - 27

-13- - 28

29 - إبراهيم عبد المجيد

